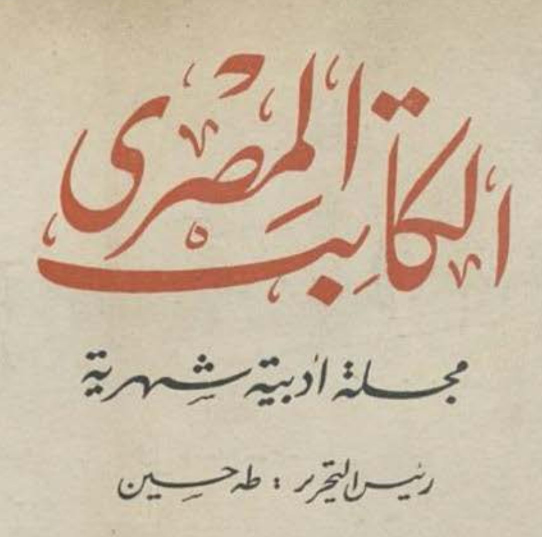
مجلد ٧ — عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٤٧



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

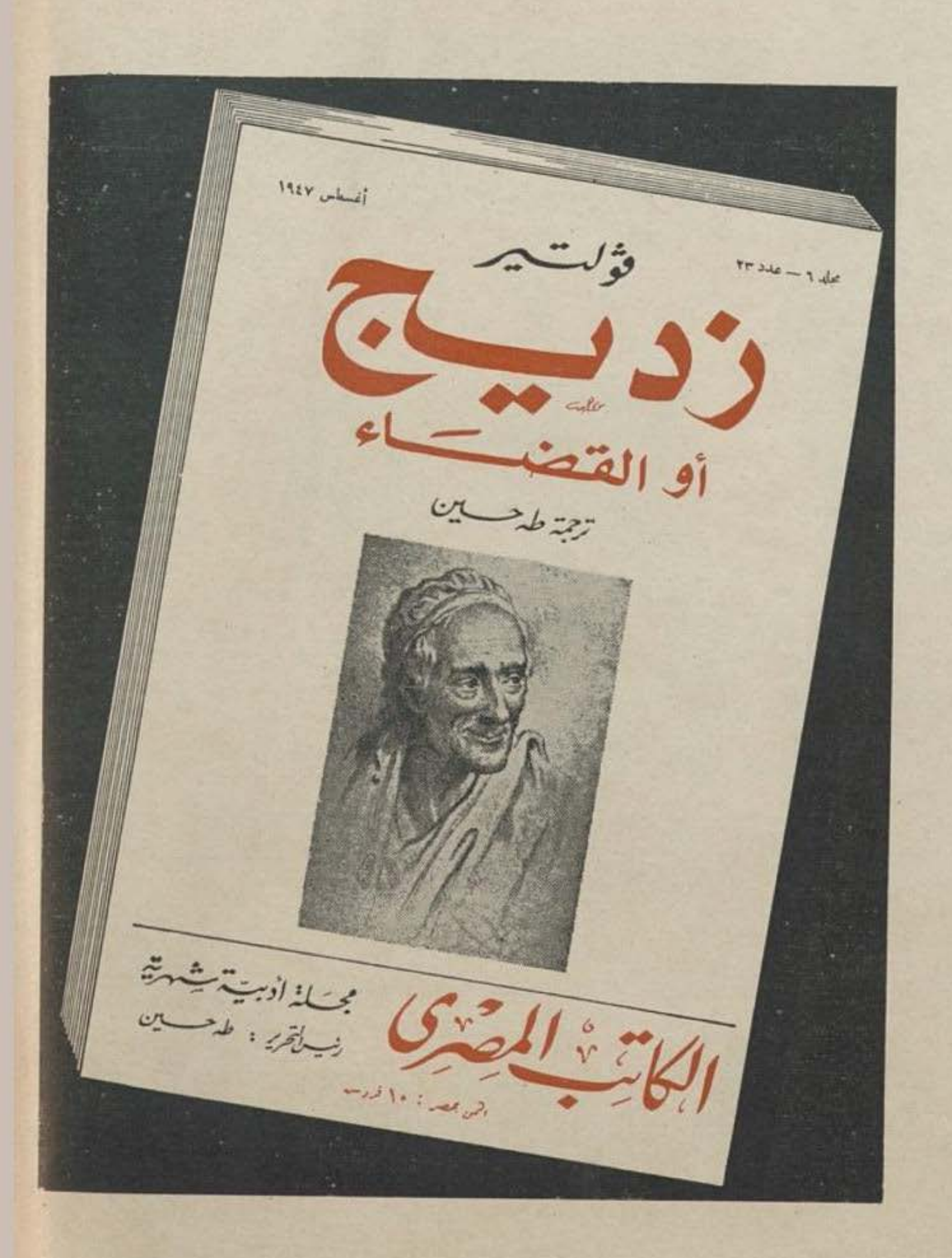
فهرس

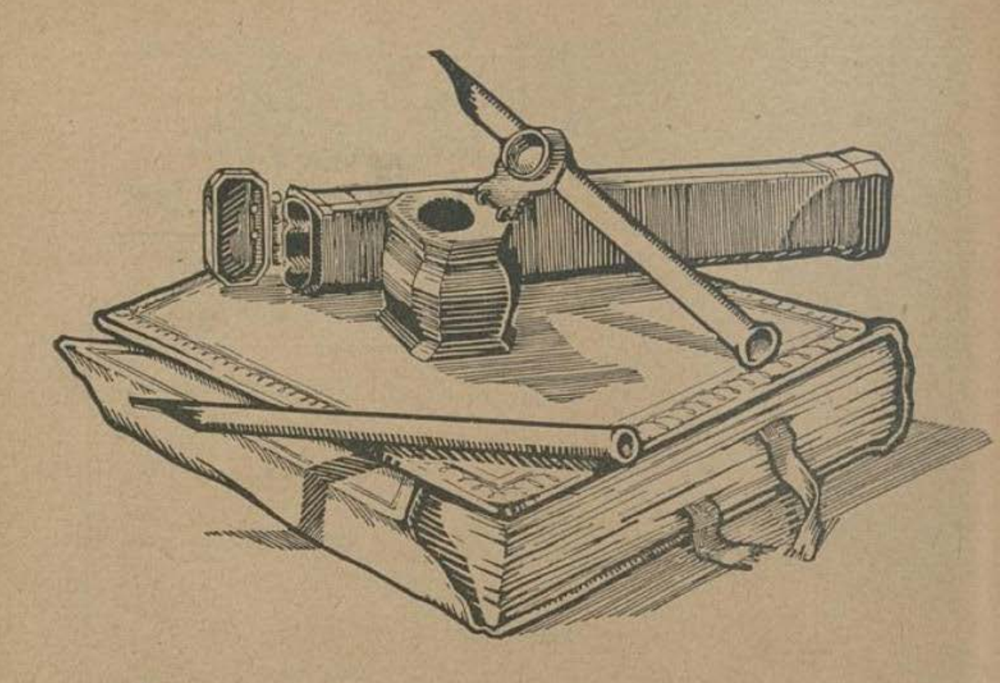


تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة


أغسطس ١٩٤٧
مجلد ٦ — عدد ٢٣
ڤولتير
زديج
أو القضاء
ترجمة طه حسين
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين
الكاتب المصري
الثمن بمصر : ١٠ قروش



لقد انتهى عصر المخطوطات والقلم والمحبرة ...

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

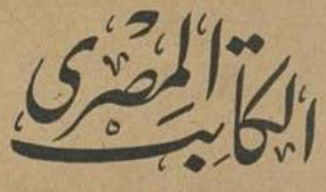
مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein





ذو الحجة ١٣٦٦ — نوفمبر ١٩٤٧
السنة الثالثة — مجلد ٧ — عدد ٢٦

فى الأدب الفرنسى

جان پول سارتر والسينما

تساءل الكاتب الفرنسى المعروف جان بول سارتر عن الأدب ما هو وماذا ينبغى أن يكون ؟ ودفعه هذا التساؤل إلى أن يضع كتاباً قيما لم يظهر بعد فى مجلد ، ولكنه نشر تفاريق فى مجلة « العصور الحديثة » ، وقد عرضنا لهذا البحث بشىء من النقد المفصل ، فى عدد يونيو الماضى من هذه المجلة . والفكرة التى دار حولها هذا الكتاب القيم هى مقدار ما يكون بين الأديب وبين قرائه من الاتصال من جهة ، ومقدار ما ينبغى أن يحتمل الأديب من تبعة بحكم هذا الاتصال بينه وبين القراء ، ومشاركته لهم فيما يعرض من المشكلات التى تأتلف منها الحياة الاجتماعية مهما تكن طبيعة هذه المشكلات ، ومن دون تفريق بين ما يتصل منها بالسياسة أو بالنظام الاجتماعى ، أو بأى لون من هذه الألوان التى تؤثر فى حياة الناس ، والتى يجب على الأديب أن يشارك فيها ، ويحتمل نصيبه من تبعاتها، كما يجب على الأدب أن يصورها ويصور المشاركة فيها ويصور الوسائل المختلفة لتدبيرها والخروج من ضائقتها واستكشاف ما يمكن استكشافه من الحلول لأزماتها مهما تختلف فى الطبيعة والصورة والأثر . وهذه الفكرة هى ما يسميه جان بول سارتر التزام الأدب ، وهى ليست أكثر من أن الأديب يجب أن يعيش مع معاصريه فيشقى بشقائهم ويسعد بسعادتهم ، ويواجه مشكلات الحياة كما يواجهونها ، ويصور هذا كله

فى أدبه تصويراً دقيقاً خصباً مجدياً ، دون أن ينفصل عن حياة معاصريه ، أو يعتزلهم ليعيش فى برجه العاجى ، وينتج فى هذا البرج أدباً لا يتصل بآلام الناس وآمالهم ، وما يعرض لهم من بؤس ونعيم .

وقد استعرض جان بول سارتر فى كتابه هذا تاريخ الأدب الفرنسى فى عصوره المختلفة ، وبين مقدار ما كان بين الأدباء وقرائهم من الصلات والاشتراك فى احتمال التبعات على اختلاف العصور وتباين الظروف . ووصل من هذا الاستعراض إلى نتائج رائعة فى تاريخ الأدب الفرنسى ليس هنا موضع الحديث عنها . ولكنه لاحظ أن تطور الحياة الحديثة ، ولا سيما فى القرن التاسع عشر وفى أوائل هذا القرن ، قد انتهى بالأدب إلى أن يكون لوناً من ألوان الترف يترفع عن الحياة اليومية العاملة ليعنى بألوان من هذه الحياة الفنية المترفة التى لا تتاح إلا لطبقات ضيقة من الناس . ثم حاول أن يرسم للأديب المعاصر ، ولنفسه وأصحابه بنوع خاص ، برنامجا يحققون به الاتصال بينهم وبين قرائهم ، ويشاركونهم به فى مواجهة ما تمتلئ به الحياة المعاصرة من المشكلات التى تزداد عنفاً وتعقداً من يوم إلى يوم . وقد اضطره هذا إلى أن يستقصى مشكلات الحياة الاجتماعية فى هذه الأيام ، وينتقد المذاهب السياسية الاجتماعية التى تحاول حل هذه المشكلات ، ويختار لنفسه ولأصحابه طريقاً وسطاً بين مذهب الشيوعيين الذين يلغون حرية الفرد ، ومذهب البورجوازيين الذين يبيحون هذه الحرية لفريق من الناس دون فريق . وأراد أن يصل إلى نوع من النظام يكفل للفرد حريته كاملة ، ويكفل للجماعة عدلا شاملا ، ويكفل للأديب حريته الكاملة فى التفكير والتصوير والتعبير دون أن يخضع لما تفرضه الأحزاب على أعضائها من قيود وأغلال تضطرهم إلى أن يفكروا ويصوروا ويعبروا كما يريد نظام الحزب ، لا كما تريد حرية الفرد ولا كما تريد طبيعة الأشياء وحقائق الحياة .

وقد استعرض جان بول سارتر وسائل الاتصال بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك ، فلاحظ كما يلاحظ غيره من الناس أن العصر الحديث قد ابتكر لهذا الاتصال وسائل لم تكن معروفة من قبل ، وأن هذه الوسائل قد طغت وأسرفت فى الطغيان على الوسائل القديمة . فالصحف والمجلات أكثر

اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الكتب . والراديو أكثر اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الصحف والمجلات فضلا عن الكتب . والسينما أكثر دعاء وأشد استهواء للجماعات على اختلاف طبقاتها من التمثيل .

وإذن فما ينبغي للأديب الذى يقدر الحياة الاجتماعية ويشارك فيها وفى احتمال تبعاتها أن يهمل هذه الوسائل المستحدثة ، ويفرغ لاستخدام الوسائل القديمة التى لم تفقد قيمتها وخطرها ، ولا ينتظر أن تفقد قيمتها وخطرها ، ولكنها لا تستطيع أن تظفر من الشيوع والشمول والتغلغل فى الطبقات المختلفة المتفاوتة بمثل ما تظفر به الوسائل المستحدثة . فستؤلف الكتب ، وسيقرؤها القراء ، وستنشأ المسرحيات وسيشهدها النظارة ، ولكن الصحف والراديو والسينما ستكون أكثر انتشاراً وأشد اتصالا بالجماعات وأعظم تغلغلا فى طبقاتها من الكتب والمسرحيات .

وقد لاحظ جان بول سارتر فى شئ من الدعابة أن مسرحية قصيرة من مسرحياته حظر تمثيلها فى بريطانيا العظمى . ولكنها أذيعت فى الراديو البريطانى ، فكانت النتيجة أن الذين استمعوا لها من الانجليز كانوا أكثر مرات كثيرة من الذين كان يمكن أن يشهدوها فى ملعب التمثيل . على أن الرقابة البريطانية قد فطنت آخر الأمر لهذه الملاحظة ، فأباحت عرض هذه القصة فى الملاعب . والمهم هو أن جان بول سارتر يريد بلا ريب أن يساير الحياة الحديثة ، وأن يتصل بقرائه أو بمستهلكيه من طريق الوسائل المختلفة التى تستحدث لهذا الاتصال . وقد سلك هو هذه الطريق ؛ فهو يؤلف الكتب على اختلافها ، يؤلف الكتب التى يقصد بها إلى الخاصة ليتحدث إليهم فى الفلسفة الوجودية أو فى هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات الدراسة الأدبية . ويؤلف الكتب التى يتجه فيها إلى الجماعات الضخمة ليذيع فيها ما يريد أن يذيعه من تصوره للمشكلات وتصويره لها ومذهبه فى حلها ، يسلك فى ذلك طريق القصص الطويل والقصير .

وهو يصدر مجلته ليتجه فيها مع أعوانه إلى جماعات من القراء قد تؤثر الدراسات الميسرة ، التى لاتنحرف مع ذلك عن مناهج البحث الدقيق ، على الكتب الفلسفية الجافة وعلى القصص السهل اليسير . ثم هو بعد ذلك ينشئ المسرحيات التى يتجه فيها إلى جماعات تحب أن تأتيها متعة المعرفة

والفن لا من طريق القراءة وحدها ، ولكن من طريق القراءة والنظر لحركات الممثلين والاستماع لهم حين يتحاورون . ثم هو لا يكره أن يتحدث إلى المستمعين فى الراديو أو ينشئ لهم من الآثار ما يتلى عليهم من طريق الراديو ليستمعوا له غير مقبلين عليه كل الاقبال ، ولا متوفرين له كل التوفر ، ولا معرضين عنه كل الاعراض .

ولم يبق من هذه الوسائل المستحدثة إلا السينما ؛ فقد حاول جان بول سارتر أن يتخذ هذه الوسيلة ليتصل بالجماعات الضخمة المتباينة فى البلاد المختلفة المتنائية فى وقت واحد . وواضح جدا أن الكتاب والصحيفة والمجلة لا تقرؤها الجماهير مجتمعة ؛ وإنما يخلو فيها القارئ إلى نفسه وإلى الأديب الذى يقرأ كتابه أو مقاله فى الصحيفة أو فصله فى المجلة . وواضح كذلك أن المسرحية لا تعرض فى غير ملعب واحد فى المدينة الواحدة ، ولا يشهدها من أجل ذلك إلا جمهور من النظارة مهما يكن ضخما فهو محدود . والذين يمثلون المسرحية أو ينشئون أدوارها ، كما يقول أصحاب التمثيل ، مضطرون إذا نجحت المسرحية أن ينفقوا فى تمثيلها الأشهر ليشهد أكبر عدد ممكن من النظارة ، وأن يتنقلوا بها بعد ذلك فى كثير من المدن ، بل فى كثير من البلاد ، ليظهروا عليها أضخم عدد ممكن من الناس ، وفى ذلك من الجهد والمشقة والعسر ما فيه ثم هو بعد ذلك لايبلغ من إذاعة المسرحية ما يريد صاحبها ، وما يريد ممثلوها ، وما يريد الناس أنفسهم . أما السينما فهو يملك من وسائل التيسير ما لا تملكه الكتب ولا الصحف ولا الراديو ولا التمثيل . فالقصة الواحدة إذ أعدت للعرض تستطيع بعد إعدادها أن تغزو الأرض كلها فى وقت واحد ، وأن تشهدها جماعات النظارة فى جميع أقطار الأرض فى غير مشقة يحتملها الكاتب أو المخرج أو الممثل ، شأنها فى ذلك شأن الكتاب المطبوع ، ولكنها تتحدث إلى الجماعات حين يتحدث الكتاب إلى الفرد . ثم هى تتحدث إلى الجماعات من طريق العين ومن طريق الأذن حين يتحدث الكتاب من طريق العين وحدها أو من طريق الأذن وحدها . ثم هى تستعين على الحديث من طريق العين والأذن بأشياء لا يستطيع الكتاب أن يستعين بها لأنه لا يستطيع أن يحققها . ففيها الحركة ، وفيها اختلاف المناظر ، وفيها ما تمتاز به المناظر من الروعة والقدرة على التأثير المباشر من طريق الأشياء نفسها ، لا من طريق

الألفاظ التي تدل عليها بالرمز الذى يخطئ حينا ويصيب حيناً آخر .

وقد تصحبها الموسيقى فتستأثر بملكات النظارة كلها . فالأديب الذى لا يرى الأدب ترفا ولا فكاهة ولا تلهية ، وإنما يراه جدا من الجد ، يراه مشاركة فى الحياة ونهوضاً بأعبائها واحتمالا لتبعاتها ، لا ينبغى له أن يهمل السينما كما لا ينبغى له أن يهمل أية وسيلة تمكنه من أن يتصل بالجماعات ويؤثر فيها فيوجهها إلى ما يريد أن يوجهها إليه ، ويصدها عما يريد أن يصدها عنه ، ويغريها بما يجب أن يغريها به ، ويزهدها فيما يجب أن يزهدها فيه . والأديب من بعد ذلك أو من قبل ذلك مضطر إلى أن يصطنع هذه الوسائل ليحمى نفسه من الفناء ، وليحمى نفوس الجماعات من الفساد . فهذه الوسائل المستحدثة قد وجدت وأصبحت من ضروريات الحياة الحديثة . فليس من سبيل إلى إلغاء الصحف ، ولا إلى إسكات الراديو ، ولا إلى تحريم السينما . فالأديب بين اثنتين : إما أن يغزو هذه الوسائل ويتخذها أدوات لاذاعة الأدب وما يحمل إلى النفوس من خير ورشد وإصلاح ، وإما أن يهمل هذه الوسائل فيقضى على أدبه بالتزام الحدود التى لا يتجاوزها الكتاب ، ويعرّض نفوس الجماعات لشر عظيم تحمله إليها الصحف والراديو والسينما التى ستكون أداة لقوم ليس لهم حظ من أدب ولا من فلسفة ولا من فن ولا من فقه بالحياة ومشكلاتها ، وإنما همهم كله أن يلهو الجماعات بما يذيعون فيها من سخف رخيص ، وأن يستزلوا الجماعات بما ينشرون فيها من دعوة إلى أشياء لعلها لا تلائم ذوقاً ولا منفعة ولا رقيا ولا ميلا إلى الاصلاح . والخلاصة أن الأديب إذا آمن بأنه فرد من الجماعة التى يعيش فيها ، يشاركها فى حياتها ، ويتضامن معها فى النهوض باعباء هذه الحياة ، ويحتمل معها تبعات الجهاد مهما تختلف ، فليس له بد من أن يصطنع كل هذه الوسائل ، قديمها وحديثها ، وما يمكن أن يستحدث منها فى مستقبل الأيام ، ليحقق اتصاله بالجماعات ، ويحقق اتصال الجماعات به .

وكما أن الأديب لا ينبغى أن يعتزل فى برجه العاجى وأن يوحى منه إلى الجماعات كتباً أو فصولا لا تتصل بحياتها اتصالا مباشراً ، وإنما ينبغى أن يعيش مع الناس فى الأرض ويشتق كتبه من نفوسهم ، فهو كذلك لا ينبغى أن يعتزل فى برجه العاجى ليوحى إلى الناس قصصاً تعرض عليهم

في السينما ، دون أن تكون هذه القصص مشتقة من حياتهم ، مصورة أدق تصوير وأصدقه لما يجدون من ألم ولذة ، وما يحسون من أمل و يأس ، وما يثور في قلوبهم من عاطفة وشعور . فليست الحياة لهواً ولا لعباً ، و إنما الحياة جهاد ، يحتاج الناس في أثنائه إلى شيء من اللهو وفنون من التسلية ، ليستعينوا بذلك على احتمال الحياة والمضي في جهادهم في غير سأم أو ملل أو فتور . و إذن فيجب أن يلتزم السينما كما يلتزم الأدب ، أي يجب أن يعرض السينما على النظارة حياتهم ، وما يملؤها من المشكلات وما يمكن أن يواجهوا به هذه المشكلات من حزم وعزم ، ومن رفق وأناة ، ومن صبر واحتمال ، ومن حيلة وتصرف ، وما يمكن أن يجدوا لهذه المشكلات من حلول تريحهم منها ليستقبلوا غيرها . فحياة الناس لم تخل ولا يمكن أن تخلو من المشكلات ، ولا سيما حين يكون لهؤلاء الناس حظ من رقي العقل ، وذكاء القلب ، ودقة الحس ، وقوة الضمير .

وقد حاول جان بول سارتر ، اصطناع السينما لاذاعة أدبه أول ما حاول بعرض قصته تلك القصيرة التي حظرت في بريطانيا العظمى وأذيعت في الراديو ، وهي القصة التي عنوانها : *Huis Clos* ، والتي أستطيع أن أسميها من « وراء السور » . فالقصة تعرض أمر نفر من الناس دفعوا بعد الموت إلى الجحيم ، وضرب من دونهم بسور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب . وليس في جحيمهم هذا الذي دفعوا إليه ، نار تتلظى ، ولا سعير تصهر فيه الجلود وتذاب فيه الأجسام ، بل ليس فيه ألم مادي ما ، و إنما هم مدفعون إلى حجرة من الحجرات التي ألفوها في حياتهم الدنيا ، وهم مكرهون على أن يقيموا في هذه الحجرة إلى آخر الأبد ، إن كان للأبد آخر . وهم يصلون متتابعين إلى حجرتهم هذه ، لا يعرفون أنهم موتى ، و إنما يخيل إلى كل واحد منهم أنه قد أقبل على فندق من الفنادق ، وقاده الخادم إلى حجرة من حجراته . نهم يتفقدون في هذه الحجرة مرافقهم التي ألفوها في الحياة الدنيا ، وهم يتبينون شيئاً فشيئاً أنهم قد ماتوا ، وأنهم يلقون في هذه الحجرة جزاء ما قدموا بين أيديهم من الأعمال . وليس هذا الجزاء ألما ماديا ، كما قدمت ، و إنما هو ألم معنوي يتبينون إحساسهم له شيئاً فشيئاً . يتبينون ذلك حين يتعرف بعضهم إلى بعض ، وحين يذكر كل واحد منهم

لنفسه أولا ولرفاقه بعد ذلك ، ما قدم من أعمال منكرة وما اقترف من آثام استحق عليها العقاب ، ثم حين يكون بينهم الاختلاف والتناكر ، وحين يستبين كل واحد منهم أنه لا يستطيع أن يعاشر رفاقه راضياً عن عشرتهم ، ولا يستطيع أن يفلت من هذه المعاشرة ؛ فهو مكره إذن على معاشرة لا يطيقها ولا يطمئن إليها ، ولا يستطيع أن يخلص منها إلا إذا عكف على نفسه وأهمل طائعاً أو كارهاً من حوله من الرفاق . وسواء أراد أو لم يرد ، فهو يرى هؤلاء الرفاق و يتأذى بمنظرهم ، وهو يسمعهم و يتأذى بما يسمع منهم ، وهو يحاول أن يفر منهم إلى نفسه ، فلا يرى في نفسه إلا نكرا . وهو لا يستطيع أن ينسى هذا النكر الذي يراه في نفسه ؛ لأن أعماله كلها تعرض عليه وآثامه كلها تمر أمامه من وراء هذه الأسوار ؛ فيتحدث عنها فيؤذيه حديثه ويؤذي رفاقه ، ويسكت عنها فيؤذيه سكوته ويؤذي رفاقه ؛ لأن كل واحد منهم في حاجة إلى أن يشغل نفسه عن نفسه ، ولأن كل واحد منهم يؤذيه أن يشغل نفسه عن نفسه ، كما يؤذيه ما يحاول من الفراغ لنفسه والانصراف إليها عمن حوله من الناس . فكل واحد منهم إذن إنما يحمل جحيمه في نفسه ، وليست جهنم شيئاً منفصلا عن الانسان ، وانما هي شيء مستقر في ضميره حيا وميتاً . وكل ما في الأمر أن الانسان في حياته الأولى قد يخدع ضميره ، أو يخدع عن ضميره ، بما يكسب من عمل ، وبمن يعاشر من الناس ، وبما يعرض له من المشكلات التي يشغله بعضها عن بعض ، ومن اللذات التي قد تشغله عن آلامه وقتاً يقصر أو يطول . فأما بعد الموت فليس يشغله عن نفسه شيء ، وليس يصرفه عن آلامه وآثامه شيء . وهو يعلم حق العلم أنه موقوف على هذه الآلام والآثام ، وأن هذه الآلام والآثام موقوفة عليه أبد الآباد أو أبد الآبدين . وقد يخطر لك أن هذه الفكرة الفلسفية المجردة قد تكون في نفسها قيمة عظيمة الخطر بعيدة الأثر في نفس الذين يظهرون عليها من النظارة حين يشهدون التمثيل أو من القراء حين يقرءون القصة . ولكنك تسأل : كيف عرضت هذه الفكرة على المسرح ، وعلى الشاشة البيضاء ، كما يقول أصحاب السينما ؟ وهذا بالطبع حديث لا أريد أن أقف عنده الآن ، وقد ألم به في مقال آخر حين أعرض لمسرحيات جان بول سارتر . وإنما يكفي أن تعلم أن التمثيل إنما يقوم على ما يكون بين هؤلاء

النفر حين يلتقون من حوار فيه العسر واليسر ، وفيه العنف واللين ، وفيه الخلاف والوفاق . وكله منته آخر الأمر إلى العجز واليأس اللذين ينتهيان بأصحابهما إلى الجنون ، إلا أن الموتى لا يصيبهم الجنون . فأما السينما فانه يصور هذا كله ويؤديه أداء حسناً ، ولكنه يعرض مع هذا كله تلك الآلام والآثام التي اقترفها هؤلاء النفر في حياتهم الأولى ، والتي يتحدث بها بعضهم إلى بعض في ملعب التمثيل ، فلا تظهر النظارة عليها إلا من طريق اللفظ الذي تسمعه الأذن . فأما في السينما فيظهر النظارة عليها من طريق العين لأنها تمر أمامهم مراً كلما عرض لها أصحابها في الحديث .

وكأن نجاح هذه القصة في السينما قد أغرى الكاتب إغراء شديدا بأن يعنى بالسينما من حيث هو سينما ، فلا يعيره قصة كتبت للملعب ، وإنما يمنحه قصصاً تكتب له خاصة .

ومن الكتاب الفرنسيين الممتازين من حاول وما زال يحاول هذا الفن السينمائي الخالص فيظفر بكثير من النجاح والتوفيق . والناس كلهم يذكرون روائع جان كوكتو ومارسيل بانيول . ولكن هذين الكاتبين وغيرهما لا يتجاوزون بآثارهم محاولة التوفيق بين السينما والفن ؛ فليس يعنيهم أن يذيعوا فكرة فلسفية أو أدبية ما ، وإنما يعنيهم أن يمتعوا النظارة بالسينما كما تعودوا أن يمتعوهم بالتمثيل . فأما جان بول سارتر ، فهو لا يكره أن يمتع النظارة ولكنه لا يكتفي بامتاعهم ، وهو لا يكره أن يعظ النظارة ولكنه لا يكتفي بوعظهم ، وإنما يحاول فوق الامتاع والوعظ أن يعرض عليهم مشكلات عنيفة ، بعضها يعرض للانسان من حيث هو إنسان يفكر في حياته ومصيره تفكيراً فلسفيا ، وبعضها يعرض له من حيث هو إنسان يدبر حياته تدبيراً سياسيا واجتماعياً ، فيلقى في هذا كله ما يلقى من المصاعب والعقاب .

وقد كتب جان بول سارتر للسينما قصتين إلى الآن ، عرضت إحداهما في كان ولم تعرض على الجمهور بعد ، ونشرت الثانية في مجلة من مجلات السينما ، ولست أعلم أن المخرجين قد هموا باخراجها بعد . فأما القصة التي أخرجت وعرضت بالفعل فعنوانها الفرنسي *Les jeux sont faits* . وتستطيع أن تترجم هذا العنوان بهذه الكلمة العربية : « لقد تمت اللعبة » ، كما تستطيع أن تترجمه بكلمة واحدة ، وهي « هيهات ». وهذا

العنوان الفرنسي ليس إلا الجملة التي ينطق بها محرك « الروليت » في أندية القمار قبل أن يحرك هذه الأداة ، وبعد أن يضع اللاعبون ما يضعون من النقد على ما يختارون من الأرقام . وإذا نطق صاحب الأداة بهذه الجملة فهو إنما ينبه اللاعبين إلى أن أحدهم لا يستطيع أن يختار رقما غير الرقم الذي اختاره ، ولا يستطيع أن يسترد النقد الذي وضعه على هذا الرقم ؛ فقد تمت اللعبة ولم يبق إلا أن تجرى الكرة وتختار اللاعبين أو تختار من اللاعبين صاحب الرقم الذي أتيح له الكسب . فاذا قلت تمت اللعبة ، أو قلت هيهات، أو قلت سبق السيف العذل، أو قلت لا سبيل إلى استدراك ما فات، فقد أديت المعنى الفلسفي الذي قصد إليه الكاتب حين أنشأ قصته .

ويقول النقاد الذين شهدوا عرض هذه القصة في مدينة كان إنها لم تظفر بشيء من النجاح ، ثم يختلفون بعد ذلك في مصدر هذا الاخفاق ؛ فبعضهم يحمل تبعته على جان بول سارتر لأنه كلف السينما ما لا يطيق ، وعرض على النظارة مشاهد لا يحبون أن يروها ولم يتعودوا أن يروها، وكلفهم أن يخادعوا أنفسهم خداعاً عظيما قوامه التحكم الخالص ليفرقوا بين أشخاص ومشاهد لم يألفوا التفريق بينها . وبعضهم يحمل تبعة هذا الاخفاق على المخرجين والممثلين لأنهم لم يحسنوا الاخراج والعرض والتمثيل . ومن المحقق أني لن أحاول القضاء بين هؤلاء المختصمين ؛ فلست من السينما في شيء ، وليس السينما مني في شيء . ولكن من المحقق أيضاً أني قرأت هذه القصة التي أذيعت في الناس تمهيداً لعرضها عليهم ، وقرأتها ثلاث مرات ، فلم تزدني قراءتها إلا إعجاباً بها ورضا عنها لا لما فيها من آراء فلسفية فحسب ، ولا لما لها من قيمة أدبية فنية فحسب ، ولكن لهاتين الخصلتين جميعاً ولخصلة ثالثة ، وهي طريقة العرض التي يقتضيها السينما والتي تدفع الكاتب والقارئ جميعاً إلى شيء من النشاط والحركة والتنقل السريع المفاجئ من بيئة إلى بيئة ، ومن طور إلى طور ، بل من عالم إلى عالم كما سترى .

وليس يعنيني أن تظفر هذه القصة بالنجاح على الشاشة البيضاء أو لا تظفر به ، وإنما الذي يعنيني أنا قبل كل شيء هو أن هذا اللون من الكتابة القصصية يمكن أن يقصد إليه الكاتب في نفسه ، سواء عرض على النظارة أو لم يعرض ، فهو في نفسه فن طريف حي خصب يستطيع أن يكون

أداة قيمة جـدا لابلاغ ما يريد الأدباء أن يبلغوه إلى قرائهم من طريق الـكتاب . ولا عليهم بعد ذلك أن يستغله السينما فينجح فى استغلاله أو يخفق ، ولا عليه ألا يستغله السينما أصلا . وقد أستطيع أن أضرب لك مثلا مقاربا ؛ فالأدب التمثيلى القديم اليونانى واللاتينى ممتع حين تقرؤه ، خالد بحكم هذا الامتاع ، وقليل منه يمكن أن يمثل فى الملاعب ويظفر برضا النظارة ، ولكن أكثره قد فقد هذه الخصلة ، وأصبح ممتعا بقراءته ليس غير .

وقد يستطيع الممثلون المعاصرون أن يعرضوا على النظارة « أنتيجون » ، أو « أوديب » ، أو الـكنز من آثار سوفوكل . ولـكنى أشك أعظم الشك فى أنهم يستطيعون أن يعرضوا على النظارة « فيلوكتيت » أو « إياس » . من آثار هذا الشاعر نفسه ، وأن يظفروا بشئ من إعجاب النظارة المحدثين . وكل رجل مثقف يجد المتاع كل المتاع فى قراءة هاتين القصتين ، بل قد حاول أندريه جيد فى كثير من التوفيق أن يجدد قصة « فيلوكتيت » ، كما جدد قصة « أوديب » ، وكما جـدد كتّاب آخرون قصصاً أخرى لسوفوكل وغيره من القدمـاء . فالـكتاب الذين يستعيرون من السينما طريقته فى العرض والحركة والتنقل السريع يجـددون فى الأدب تجديداً خطيراً ، ويفتحون للأدباء آفاقاً واسعـة سواء وفق المخرجون أم لم يوفقوا فى إخراج ما يكتبون .

والذين قرءوا « طريق الحرية » ، أو ما ظهر من « طريق الحرية » ، لجان بول سارتر ، يلاحظون أنه لم يصل إلى هذا اللون من الفن فجاءة ولا عن إرادة وتعمد . وانما وصل إليه شيئاً فشيئاً من طريق التطور الفنى الرفيق ، تأثر فى ذلك ببعض الـكتاب الأمريكيين ، وتأثر فيه بالسينما ، وتأثر فيه بالحياة الحديثة نفسها . فهو فى طريق الحرية قاص ، ولـكنه لا يقص أحداثه كما تعود الـكتاب أن يفعلوا ، وانما هو أمام أشخاص كثيرين جدا مختلفين أشد الاختلاف ، يعيشون فى أقطار متنائية متباعدة ، وتحدث لكل واحد منهم ألوان مختلفة من الأحداث ، كلها متأثر بذلك الروع الذى ملأ الأرض قبيل الحرب العالمية الثانية . وهو يلقى إليـك أطرافاً من هذه الأحداث فى شئ يشبه أن يكون فوضى ، ولـكنه قد نظم أدق تنظيم وأمتنه . فهو يحدثك عن رجل مروع فى هذه المدينة من مدن تشيكوسلوفاكيا ، ثم يثب بك إلى مدينة ميونيخ حيث الاستعـداد للقاء هتلر وتشمبرلين ، ثم أنت فى باريس

فى ناد من أندية اللهو ، ثم أنت فى باريس فى غرفة خاصة حيث يتناجى عاشقان . وهو كذلك يتنقل بك فى أقطار أوربا ، وربما نقلك إلى إفريقية ، وربما عبر بك البحر بين مراكش وفرنسا . وأنت لا تستقر فى مكان من هذه الأماكن إلا ريثما ينقلك منه إلى مكان آخر . ولكنه على كل حال مغرق فى هذا الروع الذى ملأ الأرض قبيل الحرب ، مفكر فى الحرب ، مستحضر لها ولأهوالها ، شاهد لآياتها وبوادرها ، متأثر بعد ذلك بما لكل قصة من هذه القصص الكثيرة المختلفة المختلطة من عبرة تتصل بالسياسة أو بالخلق أو بالفلسفة أو بنظام الاجتماع . فهو لا يقص عليك الأحداث ، وإنما يعرضها عليك عرضاً ، قد استعار للكتابة فن السينما فى العرض ، فأتقن الكتابة والعرض جميعاً ، بحيث يمكن أن يعرض هذان الجزءان اللذان ظهرا من كتابه عرضاً سينمائياً فى غير مشقة ولا عناء .

فلا غرابة إذن فى أن يستقبل الكتابة الأدبية الفلسفية للسينما ، ولا غرابة كذلك فى أن يجد الفنيون مشقة فى الاخراج ، ويجد النظارة عسراً فى الفهم والاستمتاع .

والقصة التى نحن بازائها ، تعتمد على شخصين اثنين ، هما البطلان ، ومن حولها أشخاص كثيرون ، لكل منهم مكانه وأثره . وهذان الشخصان رجل وامرأة . فأما الرجل فهو بيير دومين وهو عامل ممتاز بين زملائه ، قد أسس مع جماعة من رفاقه جماعة الحرية التى تنظم مقاومة الطاغية منذ أعوام ، وهى تستعد للثورة من غد . وأما المرأة فهى إيف شارلييه ، وهى بالطبع جميلة رائعة الجمال ، غنية واسعة الغنى ، تشغل مع زوجها فى الطبقة الممتازة مكاناً رفيعاً . فاذا بدأت القصة ، فإيف هذه مريضة تراها فى سريرها مكدودة ، وقد أقبل زوجها مترفقاً ، فدنا منها وتبين أنها لم تحس مقدمه لأنها مغرقة فى النوم . ثم يعرض عليك منظر غرفة حقيرة فى بيت متواضع ، وقد اجتمع رؤساء العمال حول رئيسهم بيير ، وقرروا بعد مناقشة أن تبدأ الثورة من غد . ثم نترك هذه الغرفة ، ونرى بيير فى الشارع يركب دراجته ، ويدنو منه غلام يعتذر من بعض الخطأ ، ونفهم أنه قد وشى بالجماعة إلى الشرطة بعد أن عذبته الشرطة عذاباً شديداً ، ونفهم كذلك أن بيير لا يريد أن يعفو عنه ، وإنما يزدريه أشد الازدراء ، فيمتلىء قلب

الفتى حفيظة وموجدة وخزياً ، ثم نرى بيير قد وصل إلى مكان خارج المدينة حيث تعمل طوائف من العمال والفتى يتبعه ، حتى إذا بلغ قريباً من أصحابه أطلق الفتى عليه مسدسه فخر صريعاً . وأقبل العمال من كل صوب حين سمعوا انطلاق المسدس . ثم نعود إلى الغرفة التى تمرض فيها إيف ، فنرى زوجها قد انحنى ينظر فى وجهها ، حتى إذا استيقن أنها نائمة استخرج من جيبه زجاجة صغيرة وصب منها قطرات فى قدح من الماء قد وضع إلى جانب السرير ، ثم انسل إلى الصالون حيث كانت تنتظره لوست أخت امرأته ، وهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، مشفقة أشد الاشفاق على أختها ، فلا تكاد تسأله عن حالها حتى يهيئها للنبأ الخطير ، والفتاة جزعة أشد الجزع ، ولكن الرجل يهدىء من روعها فى رفق ، ونفهم أنه يتملقها ويريد أن يخيل إليها شيئاً يشبه الحب .

ثم نعود إلى خارج المدينة فنرى بيير صريعاً قد أحاط به العمال ، وقد أقبلت فرقة من الجند فالعمال يتحرشون بها ، ويريدون أن يرجموها بالحجارة ، والجند يتهيأون لاطلاق النار . ثم نعود إلى الغرفة التى تمرض فيها إيف فنراها قد أفاقت من نومها وأخذت القدح وشربت مافيها ، ثم نهضت متثاقلة فسعت إلى الصالون ودعت زوجها ، ثم عادت إلى سريرها وجعلت تحذر زوجها فى صوت خافت متهالك من أن يعرض لأختها بشر ، وتنبئه بأنها ستبرأ وستحمى أختها منه ، وبأنه لم يتزوجها إلا رغبة فى ثروتها ، وبأنه الآن يطمع فى ثروة أختها . وزوجها يسمع لها غير حافل ولا مكترث ، ثم لا تلبث أن تموت . ونعود إلى خارج المدينة فنرى العمال مزدحمين حول الصريع يتأهبون لرشق الجند بما فى أيديهم من حجارة وحديد ، ويأبون أن يفسحوا لهم الطريق ، والجند يريدون إطلاق النار . ولكن بيير ينهض من مصرعه ويتخطى جثته التى لا تزال فى مكانها ، وينصح للعمال بأن يتفرقوا ملحاً عليهم أشد الالحاح ، ولكن أحداً من العمال لا يسمع صوته ولا يرى شخصه . فاذا استيأس منهم رفع كتفيه ومضى لوجهه . ونعود إلى غرفة المريضة التى صرعها الموت ، فنراها قد نهضت وجعلت تسعى من الغرفة حتى تبلغ الصالون ، فترى أختها الفتاة منتحبة قد وضعت رأسها على كتف الزوج الذى جعل يهدئها ويواسيها متلطفاً مترفقاً متحبباً أيضاً ، وهى تقف أمامهما فلا يريانها

وتتحدث إليهما فلا يسمعانها ، حتى إذا استيأست منهما تركتهما ومضت نحو الباب ، فتلقى الخادم فى طريقها فتتحدث إليها ، ولكن الخادم لا تراها ولا تسمعها ، وهى تمر أمام المرآة فتنظر إليها ، ولكن المرآة لاترد إليها صورتها ، وهى تنظر فترى المرآة ترد صورة الخادم ولا ترد صورتها هى ، فتنطلق . ونحن فى الشارع نرى حركة الناس وازدحامهم واضطرابهم فيما يضطربون فيه، ونرى فى الوقت نفسه بيير يسعى فى بعض الطريق وإيف تسعى فى بعض الطريق أيضا ، وكلاهما يرى الناس ويسمع منهم ، ويحاول أن يعرض لهم فلا يراه أحد ، وأن يتحدث إليهم فلا يسمع منه أحد . وكلاهما يمضى فى طريقه يسأل عن شارع بعينه لأنه على موعد فى هذا الشارع ، ولكنه يسأل فى غير طائل ؛ فالناس لا يرونه ولا يسمعونه ولا يجيبونه . وكلاهما يسعى مع ذلك حتى يصل إلى زقاق ضيق غريب قد كتب عليه اسم الشارع الذى يسأل عنه . وكلاهما يدخل فى هذا الزقاق ، فاذا جماعة من الناس قد وقفت أمام باب مغلق فى أقصى الزقاق ؛ وهذا الباب يفتح بين حين وآخر فيدخل منه أحد هؤلاء الناس ، ثم يغلق حيناً ثم يفتح ليدخل منه شخص آخر . ويلاحظ بيير وإيف أنهما يريان هؤلاء الناس ويسمعان منهم ، وأن هؤلاء الناس يرونهما ويسمعون منهما . والباب يفتح فيدخل بيير ، وإذا هو فى حجرة ضيقة يمضى فيها حتى يبلغ أقصاها ، فاذا سيدة نصف قد جلست أمام مائدة وعلى المائدة دفتر ضخم . فاذا انتهى بيير إلى هذه السيدة سألها فى أدب أهى تنتظره ؟ فتنبئه السيدة بأنها تنتظره ، ثم تنبئه باسمه وتاريخ مولده . ولا يكاد يدهش لذلك حتى تنبئه بأنه قد مات مقتولا ، ثم تطلب منه إمضاءه على الدفتر ، فاذا فعل أذنت له فى الانطلاق ، ولكن على أن يخرج من باب غير الباب الذى دخل منه . فاذا سألها إلى أين أذهب وماذا يجب أن أعمل ؟ أنبأته بأن الموتى أحرار يذهبون إلى حيث يشاءون ويعملون مايشاءون . وتجرى القصة نفسها لايف بعد حين ، فتعلم من السيدة أنها قد ماتت مسمومة ، وتمضى على الدفتر ، وتمضى حرة تذهب إلى حيث تشاء وتعمل ما تشاء لأن الموتى أحرار بعد أن يوقعوا بأسمائهم فى سجل الأموات .

ولست أقص عليك تفصيل ما يعرض لهذين الميتين بعد خروجهما من هذه الحجرة وانطلاقهما فى المدينة يريان الأحياء ويسمعانهم ، ولكن الأحياء

لا يرونهما ولا يسمعونهما . ويلقيان الموتى فنونا وأشكالا ، منهم المحدثون ومنهم الذين بعد عهدهم بالموت . وهما يستطيعان أن يتحدثا إلى الموتى ، وأن يسمعا منهم ، وأن يتندرا معهم بالأحياء وبما يعملون . لا أقص عليك ما يعرض لهما من خطوب ، فذلك شيء يطول ، وإنما أسجل شيئين اثنين : أحدهما أن بيير يذهب مع دليل له من الموتى إلى قصر الطاغية ، فيدخل القصر وينسل إلى غرفة الطاغية ، فيراه متبذلا متهيئا لاتخاذ ثيابه الرسمية . ويتناول طعامه ومن حوله موتى كثيرون ، كلهم مبغض له ساخط عليه يريد أن يصيبه بالمكروه ، ولكنه لا يبلغ مما يريد شيئاً لأن الموتى لا يبلغون مما يريدون شيئاً . وقد أنبأهم بيير بأن الطاغية سيموت من غد حين تشب الثورة التي دبرها ، والموتى لا يصدقونه ، ولكنه يلح حتى يوشك أن يقنع بعضهم بصدق ما يقول . ولكن رئيس الشرطة يدخل فينبئ الطاغية بأن زعيم الثورة قد قتل ، ويغضب الطاغية لذلك غضباً شديداً ؛ فهو قد كان أعد للثورة جيشاً ضخماً وقرر أن يسحقها سحقاً وأن يريح نفسه منها عشر سنين على الأقل . وإذن فقد استيقن بيير بأن الثورة ستسحق ، وأن الطاغية لن يفاجأ ، والموتى يضحكون منه ويحاولون تعزيته ، ولكنه يمضي مغضباً لا يلوى على شيء ، حتى يبلغ الغرفة التي كان يأتمر فيها مع أصحابه ، فيراهم ويسمعهم ، ويعلم أن مصرعه قد بلغهم . ويحاول أن يتحدث إليهم ليردهم عن الثورة ويحملهم على تأجيلها ، ولكنهم لا يرونه ولا يسمعون منه ، فينصرف عنهم يائساً مستيقناً بوقوع الكارثة من غد .

هذا أحد الأمرين . أما الأمر الثاني فهو أن بيير يلقى إيف فينظر إليها ويدنو منها ويكون بينه وبينها حديث ثم شيء يشبه الألفة . وهما يذهبان معاً إلى إحدى الحدائق ، وإلى ناد من أندية اللهو في هذه الحديقة تغشاه الطبقة الممتازة من أصحاب إيف . وهما يريان ويسمعان ، ولكن أحداً لايراهما ولا يسمعهما . وقد استحالت ألفتهما إلى تعاطف ، ثم إلى شيء يشبه الحب ، وهما يتراقصان ، ولكنهما لا يجدان لذة الرقص لأن الموتى لا يجدون لذة لشيء . وكلاهما يود لو بذل نفسه ثمناً للحظة قصيرة ينفقها مع صاحبه كما ينفق الأحياء أوقاتهم حين يكون بينهم الحب . ولكن كليهما يحس كأنه مدعو إلى موعد ، فينطلقان حتى يبلغا تلك السيدة التي تسجل الموتى ، فتنبئهما بأنهما

كانت تنتظرهما ، وبأنها قد علمت أن كليهما يظن أن قد غلط به فى الحياة ، وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه ، وأن المادة الأربعين بعد المائة من القانون تقضى فى مثل هذه الحال بتصحيح الخطأ ورد الحياة إليهما أربعاً وعشرين ساعة . فاذا استطاعا أن يستأنفا منها حياة قوامها الحب الصحيح مدت لها أسباب الحياة ، وإلا عادا إلى الموت . وهما يزعمان لهذه السيدة أن قد غلط بهما وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه فترد إليهما الحياة . ويودعان الموتى الذين يتمنون لها الخير ، ومنهم من يكلفهما بعض الأعمال فى عالم الدنيا .

ثم نعود إلى خارج المدينة فاذا جثة بيير فى مكانها ، وإذا العمال من حولها يتأهبون لرشق الجند بالحجارة ، والجند يتهيأون لاطلاق النار . فقد حدثت كل هذه الأحداث على كثرتها فى لحظة قصيرة ؛ لأن الزمن لا حساب له بالقياس إلى الموتى . وقد جلس بيير بعد أن ردت إليه الحياة ، وتحدث إلى العمال فاستيقن أنهم يرونه ويسمعونه ؛ وآية ذلك أنهم أطاعوه وتفرقوا . ولكنه ينهض فى شئ من ذهول ويعمد إلى دراجته فيركبها ويعود إلى المدينة . وقد أرسل العمال من ورائه أحدهم ليتبعه ويعينه إن احتاج إلى شيء من عون .

ونعود إلى الغرفة التى ماتت فيها إيف ، فنراها على سريرها وقد جثت أختها منتحبة إلى جانب السرير . ولكن إيف تتحرك ثم تتكلم ثم تنهض . وقد حدثت كل هذه الأحداث فى أقصر لحظة ممكنة ؛ لأن الزمن لا قيمة له بالقياس إلى الموتى . وقد ابتهجت أختها الفتاة حين رأتها تفيق،وسقط فى يد الزوج فخرج يلتمس لها الطبيب . وجعلت إيف تتحدث إلى أختها محذرة لها من هذا الزوج الخائن الذى يخدعها ليظفر بثروتها ، والفتاة تدافع عن هذا الزوج لأنها لم ترمنه إلا خيراً . ونحن أمام الدار التى تسكنها وهى دار أنيقة فخمة قد أقبل عليها بيير ، حتى إذا بلغها نزل عن سيارته ودخل وسأل البواب عن الطابق الذى تسكنه إيف شارلييه ، فيدله عليه مزدرياً له ، ويأمره بأن يرقى إليه من سلم الخدم . ثم نرى الخادم قد أقبلت تنبئ سيدتها بمكان هذا العامل ، وبأنه يريد أن يلقاها ، وبأنه ينتظر فى المطبخ . فتذكر إيف كل ما حدث لها أثناء الموت وتأذن لبيير . فاذا أقبل راعه ما فى هذه الدار من ترف لم ير مثله قط ، وهو على كل حال يلقى صاحبته ويتحدث إليها ويدعوها إلى أن ترافقه ؛ وهى تتردد شيئاً ، ثم تذكر ما زعمت لمسجلة الموتى ، فتهم أن تخرج ، ولكن

الزوج يقبل ، فيراها وقد ظهر تفوقه على امرأته . فقد رآها فى غرفتها مع رجل غريب من غير طبقتها ، ورأى بينهما صلات لا تكون إلا بين العاشقين . فهو يريد أن يطردها ، ولكنها تخرج مع رفيقها وفى نفسها شئ من حب ، وفى نفسها كثير من حسرة وخوف على أختها . وهما يستأنفان فى الشارع كل ما حدث لها أثناء الموت ، فيسعيان إلى الحديقة ، وإلى النادى . ويريان أصحاب إيف ويسمعانهم ، ولكن أصحاب إيف يرونهما هذه المرة وينكرون مكانهما ويسخرون منهما . وهما يشقيان بذلك شقاء مختلفاً مصدره استخذاء المرأة من رفيقها العامل الوضيع أمام هذه الطبقة الممتازة ، واستخذاء الرجل من ضعة هيئته ومما بينه وبين صاحبته من الفرق الهائل فى الطبقة وفى الفقر والغنى . ولكنهما كليهما حريصان مع ذلك على أن يستأنفا حياة قوامها الحب ؛ فقد أعطيا بذلك عهداً فى دار الموتى ؛ فهما يعرضان عن كل ما يلقاها من المصاعب ، وهما يتراقصان فى نفس المكان الذى تراقصا فيه ميتين ، ولكنهما يجدان لذة الرقص فى هذه المرة ، ويكادان ينعمان بهذه اللذة لولا هذه البيئة التى تنغص عليهما كل شئ . وقد وقع الشر بين بيير وبين رجل من هذه البيئة ، وأقبل جندى يريد أن يعنف ببيير ، فتظهر إيف بطاقتها للجندى ، ويعلم بيير لأول مرة أن زوجها يشغل منصباً خطيراً فى الشرطة فينصرف عنها هارباً . ألم ينفق حياته كلها فى مقاومة هذه الشرطة والكيد لها ؟ فالنظام الاجتماعى كله ، والنظام السياسى كله ، والنظام الاقتصادى كله ، يحول بينه وبين هذه المرأة التى زعمت أنها خلقت له ، والتى زعم أنه خلق لها . ولكن إيف تدركه وما تزال به حتى ترده إلى بعض الهدوء ، ثم يتعاونان على إنفاذ ما أوصاها به بعض الموتى فيقرب ذلك بينهما شيئاً ما . ثم يذهبان إلى دار بيير ويفترقان حين يبلغانها . يريد بيير أن تستأنس صاحبته إلى هذه الدار وحدها من جهة ، وأن يسرع إلى أصحابه فينبهم إلى الخطر الذى ينتظرهم من جهة أخرى ، فأما هى فتصعد إلى الغرفة التى يعيش فيها بيير ، وتجد شيئاً من الحرج فى الاطمئنان إليها والاستقرار فيها ، ولكنها مع ذلك تذعن لما ليس منه بد فتأخذ فى إصلاح الغرفة . وأما هو فيذهب إلى أصحابه ، فاذا لقيهم أنكروه أشد الانكار ، لأنهم عرفوا دخوله دار هذا الموظف الكبير من موظفى الشرطة وخروجه مع امرأته . ثم لم يكتفوا بالشك

فيه ، وإنما اتهموه بالتجسس عليهم بأنه قد أفضى بأمرهم كله إلى حكومة الطاغية . وقد انصرف عنهم يائساً منهم ، وعاد إلى صاحبته حزيناً كئيباً ؛ فهي تواسيه وتسليه وترفق به وتذكره الحب وما أعطيا من عهد وما ضرب لهما من موعد سينتهي إذا كان الغد . وهما كذلك إذ يأتي أحد العمال فينبئ بيير بأن أصحابه قد ائتمروا به ليقتلوه ، ويحثه على الهرب بأنهم قادمون لإنفاذ ما أزمعوا . والعامل ينصرف وبيير ينبئ صاحبته بأنه مقتول بعد حين ويأبى الهرب . وهذه أقدام يسمع وقعها ، وإذا العاشقان يعتنقان والباب يطرق ثم يطرق ، ثم ينصرف الطارقون فلا يشك العاشقان في أن النصر قد كتب لحبهما ، وفي أن الموت قد صرف عنهما لينعما بهذا الحب السعيد .

فاذا أصبحا من الغد فهما راضيان بعض الرضا لا كله ، لا يشك أحدهما في أنه يحب صاحبه . ولكن بيير يذكر الثورة التي ستسحق بعد حين وأصحابه الذين سيمحقون محقاً ، ويريد أن يبذل آخر جهد لينقذ الثورة من الاخفاق ، وينقذ أصحابه من الموت . وإيف تذكر أختها التي توشك أن تكون فريسة لهذا الرجل الذي لا يحبها وإنما يحب ثروتها ، وهي تريد أن تبذل آخر جهد ممكن لأنقاذها . وهما مع ذلك يحاولان أن يستمسكا بالحب والحياة ، ولكنهما يفترقان على أن يلتقيا بعد ساعة قبل أن يحين الموعد الذي ضرب لهما في دار الموتى .

فأما هي فلا تكاد تدخل دارها حتى ترى أختها وزوجها قد جلسا إلى طعامهما جلسة لا تخلو من ريبة ، فتخرج المسدس وتأمرهما ألا يتحركا حتى تقص على أختها خيانة زوجها ، ثم تأمرها بأن تستخرج من مكتب زوجها رسائل الحب التي تثبت خيانته . وأما بيير فقد ذهب إلى أصحابه في نفس ذلك الوقت وقد اجتمع إليهم زعماء العمال ، وقد أخذ أصحابه ينكرونه ، وأخذ هو يدافع عن نفسه حتى اطمأنت إليه الجماعة بعد لأي وهمت أن تؤجل الثورة . ولكن الثورة قد بدأت في مواضع كثيرة ، وهم يتداولون فيما ينبغي أن يتخذوا من قرار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وقد دنا الموعد الذي ضرب لبيير وصاحبته في دار الموتى ؛ فهو يسرع إلى التليفون لينبئ صاحبته بأنه لا يستطيع فراق زملائه، وهو يحاورها حواراً شديداً في التليفون نسمعه نحن ، والوقت يمضي ويمضي . وقد أقبل الجند فحاصروا المجتمعين ، وتطلق رصاصة

فيخر لها بيير صريعاً والجند يقتحمون الدار ويقهرون من فيها . ثم نرى بيير يتخطى جثته ويمضى لا يراه أحد ولا يسمعه أحد . ثم نراه بعد ذلك وقد لقى إيف ميتين وكلاهما يتحدث إلى صاحبه كأنهما قد خدعا عن أنفسهما وعن الحب ، وبأن التجربة قد أخفقت ، وبأنهما قد عادا إلى الموت لأن بيير لم يتمن الحياة إلا لينقذ الثورة وأصحابه ، ولأن إيف لم تتمن الحياة إلا لتنقذ أختها من زوجها الخائن الأثيم . وقد أخفقا جميعاً ، فلم يستطع بيير أن ينقذ الثورة ولم تستطع إيف أن تنقذ أختها . ويلقاهما أحد الموتى فيسألهما دهشاً : ألم تنجحا فيما حاولتما ؟ فيجيبه بيير : كلا ياسيدى لقد تمت اللعبة ، فليس لأحد اللاعبين أن يختار . ويلقاهما مع ذلك ميتان آخران فتى وفتاة يخيل إليهما أن كلا منهما قد خلق لصاحبه ، وأنه قد غلط بهما فى الحياة الأولى ، وأنهما يستطيعان إن أتيح لهما الانتفاع بالمادة الأربعين بعد المائة أن يستأنفا حياة سعيدة قوامها الحب ، فيشير عليهما بيير وإيف بأن يحاولا ، فمن يدرى لعلهما أن يظفرا بما لم يتح لهما الظفر به .

وكذلك تنتهى هذه القصة التى لم أرسم لك منها إلا أيسر ما فيها ، وهى على ذلك تصور لك ما قصد إليه جان بول سارتر من عرض هذه الظروف القاسية المحتومة التى يفرضها النظام الاجتماعى والسياسى والتى تفرق بين الناس تفريقاً محتوماً لا سبيل إلى التخلص منه إلا إذا تغير النظام السياسى والاجتماعى ، وزالت هذه الفروق التى تجعل من الناس أقوياء وضعفاء وفقراء وأغنياء ، لاسبيل إلى أن يلتقوا ولا إلى أن ينعموا بالحياة مادامت قائمة . فهم يجدون المساواة إذا ماتوا ويطمحون إليها مخلصين ويودون لو ردوا إلى الحياة ليحققوها، ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها إذا ردوا إلى الحياة ؛ لأن اليد الواحدة لاتستطيع ، التصفيق ولأن النظام السياسى والاجتماعى لا تغيره إرادة فرد أفراد ، وإنما تغيره إرادة إجماعية لا تتحقق إلا بالتطور . ومن يدرى ! لعل التطور لا يكفى لتحقيقها ، ولعلها تحتاج لشىء أشد عنفاً من التطور وهو الثورة .

وليس هنا موضع الحديث عما يمكن أن يكون بين هذا التفكير الفلسفى وبين الفلسفة الوجودية من تقارب أو تباعد ، وإنما الشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذا النحو من التفكير ملائم لما أشرت إليه آنفاً من رأى

الكاتب فى بحثه عن الصلة بين الأديب وبين الجماعات . فجان بول سارتر يريد أن يجعل المساواة بين الناس حقيقة واقعة تريدها الجماعة كلها ولا يريدها الأفراد متفرقين . وأحسبك توافقنى على أنه قد صور من ذلك ما أراد تصويره، فبلغ من هذا التصوير ما أحب .

أما القصة الثانية فعنوانها « الأنوف المستعارة » وهى تدور بالفعل حول أنوف مستعارة يخفى بها أصحابها أنوفهم التى ركبها الله فى وجوههم . والقصة فكاهة ، ولكنها فكاهة مرة تضحك ولكن من حماقة الانسان وسخفه وضعفه وتعلقه بالمنافع العاجلة وانقياده للوهم واستسلامه للسلطان وإن كان ضعيفاً لا يعتمد على قوة تسنده أو تجعله مصدراً للخوف .

فأنت حين تبدأ القصة فى دهليز من دهاليز القصر الملكى فى مورافيا ، وهذا الدهليز قذر مهمل قد ضربت عليه العنكبوت بنسجها ، ورجل قائم على سلم يحاول أن يرد إلى سقف الدهليز وجدرانه نظافتها ويزيل عنها نسج العنكبوت . ثم تعرض عليك صورة أخرى ترى فيها حجرة العرش وقد اجتمعت فيها حاشية الملك ووجوه الدولة وفى موقدها نار ضئيلة تخمد شيئاً فشيئاً . ولكنك تلاحظ على كل من ترى فى القصر من رجال ونساء ومن سادة وخدم أنهم يحملون فى وجوههم أنوفاً ضخمة مسرفة فى الضخامة تجعل هذه الوجوه قبيحة مضحكة . ثم يقبل الملك والملكة فتنهض الحاشية ، ويحاول الملك أن يجلس على عرشه فاذا هو مضطرب لا يثبت قد قصرت بعض قوائمه ، فيضطر بعض الحجاب إلى أن يتموا هذه القوائم القصيرة بقطع من الخشب يزجونها بينها وبين الأرض ، حتى إذا ثبت عرش الملك واستطاع أن يجلس جرت القصة نفسها لعرش الملكة . وقد أخذ الملك يتحدث إلى وجوه دولته ، فيعلن إليهم أن ابنه الأمير أندريه سيقترن بالأميرة أجات بنت ملك القوقاز ، وأن هذه الأميرة فى طريقها الآن إلى عاصمة مورافيا ومعها حاشيتها وتتبعها عربات ضخمة قد ملئت ذهباً ، وستمتلىء خزائن مورافيا ، وسيجعل الله لهذه الدولة الضخمة الفقيرة يسراً بعد عسر وغنى بعد فقر وفرجاً بعد حرج . ثم يشير الملك إلى صورة مغطاة قد علقت إلى أحد الجدران فيرفع عنها غطاؤها ، وتظهر الأميرة من ورائه رائعة الجمال ، بارعة الحسن ليس فيها إلا عيب واحد وهو أن أنفها طبيعى جميل . فاذا نبه الملك إلى ذلك دعا رسام القصر فأمره بأن يصلح هذا الأنف . فيقبل الرسام

على الصورة يضخم أنفها وينفخه ويسبغ عليه من القبح ما تمتاز به الأنوف في مملكة سورافيا . هنالك يرضى الملك ورجال الدولة عن الصورة،ويدعى الأمير الشاب ليراها ، فاذا أقبل نظر إلى الصورة في تكره واشمئزاز ثم انصرف عنها معرضاً يظهر الاذعان للقضاء المحتوم أكثر مما يظهر الشوق إلى خطبته التي شغفت قلبه حبا . وفي أثناء هذا كله يلاحظ الملك أن خدم القصر قد تركوا أعمالهم وأبوا أن يستجيبوا له إذا دعا.فاذا سأل عن ذلك أنبأه وزير العمل بأن خدم القصر قد قرروا الاضراب إذا تمت الساعة الحادية عشرة؛لأنهم لم يقبضوا أجورهم منذ ستة أشهر ، وقد حاولت الحكومة إقناعهم بأن زواج الأمير سيملأ الخزائن ذهباً وسيقبضون رواتبهم ومكافآت أخرى ، ولكنهم لم يحفلوا بهذه الوعود. هنالك يعلن الملك أن لا بد مما ليس منه بد،وأن رجال القصر كلهم ومعهم وجوه الدولة يجب أن يتناوبوا فيما بينهم أعمال الخدم . ثم ينهض الملك نفسه فيقدم الأسوة الصالحة ويأخذ في ترتيب الحجرة ، ويضطر وجوه الدولة إلى أن يصنعوا صنيعه ، فهم ينقلون الأثاث القديم الموروث ليضعوا مكانه أثاثاً جديداً أنيقاً قد استعاره الملك من أعضاء حاشيته . وربما كان من المضحك أن نلاحظ أن الملك في أثناء حديثه إلى وجوه دولته يرى سيدة تصطك أسنانها من البرد ، فاذا نهاها عن ذلك حاولت أن تملك نفسها ولكنها لا تستطيع ، فيأمرها الملك بالخروج ويمضي في حديثه ، ولكنه يسمع أسناناً أخرى تصطك،فيهم أن يغضب ، ولكنه ينظر فاذا الملكة هي التي تصطك أسنانها من البرد . هنالك يأذن بالنهوض وضرب الأرض بالأرجل طلباً لبعض الدفء . وكذلك ينهض هو وتنهض معه حاشيته ويأخذون في طرق الأرض بأرجلهم ، حتى إذا ظفروا ببعض الدفء ، عادوا إلى مقاعدهم ومضى الملك في حديثه .

ثم يعرض علينا المطبخ ، وقد أخذ رجال ونساء من وجوه الدولة يعملون فيه ، يهيئون الوليمة التي ستدعى إليها الأميرة إذا كان المساء ، وهم يختصمون فيما بينهم خصومات مضحكة تدل كلها على أنهم محنقون من هذا العمل الذي اضطروا إليه والذي لا يحبونه ولا يحسنونه ولا يعملونه في قصورهم ، وإنما هو فقر الدولة قد اضطرهم إلى هذا الهوان ؛ لأن هذا الزواج سيجلب للدولة مالا كثيراً فيعود أمرها إلى اليسر والثراء ، ولكنهم على ذلك قد

ضاقوا بالملك وابنه وبهذه الحياة المنكرة التي تفرض عليهم وعلى الشعب . فهذه الأنوف الضخمة الفخمة البشعة ، إنما فرض عليهم وعلى الشعب كله حملها ؛ لأن الأمير قد ولد كبير الأنف بشعه ، فأراد الملك ألا يحس الأمير أنه منفرد بهذه البشاعة ممتاز بهذا القبح ، فشرع قانوناً يفرض على الشعب كله أن يتخذ الأنوف الضخام . ومضى الشعب على هذه السنة المنكرة حتى ألفها وحتى أصبحت الأنوف الطبيعية عورة يجب أن تستر ، وحتى تهالك الناس على التماس هذه الأنوف الطبيعية ، يختلسون النظر بها خفية ومن وراء الحجب ، ويتحدثون عن أماكن اللهو التي يمكن أن يغشوها وأن ينفقوا فيها النفقات الضخمة ليروا أنفاً طبيعيا جميلا ، وليستطيعوا مسه ، فاما تقبيله فشيء لا يتاح إلا للذين ينفقون في سبيله أضخم النفقات .

وللملك أخ ضيق بهذه الحياة ، طامع في العرش ، يدبر ثورة يخلع بها أخاه ويطرد بها ابن أخيه ، ويرق بها إلى الملك ، ويزيل عن الناس أنوفهم هذه المستعارة ، ويبيح لأنوفهم الطبيعية أن تظهر للهواء والنور وتستمتع بحريتها كاملة . وهو يتحدث في المطبخ إلى أعوانه من وجوه الدولة بما دبر من هذه الثورة ، فيقرونه على خطته ، ويتفقون على إفساد هذه الخطة ، ومنع هذا الزواج ، وعلى أن وسيلتهم إلى ذلك ستكون إفساد الوليمة أولا ، فسيقدم إلى المدعوين أقبح طعام وأردأه ، وستكون الخدمة منكرة مخالفة للمراسم والتقاليد ، وسيتعمدون حين يدورون بالصحاف والشراب على المدعوين أن يسيئوا الخدمة ، فيصبوا النبيذ والمرق على ثيابهم الجميلة وعلى أكتاف السيدات العارية ، ثم سيفسدون على الضيف نومهم ، فيضعون الضفادع في الأسرة ، حتى إذا كان الغد واحتشد الأشراف والشعب لامضاء عقد الزواج صدرت إشارة ، فألقى كل إنسان أنفه الصناعي ، وأظهر الأشراف جميعاً أنوفهم الطبيعية وأعلنت الثورة ، ورأى الأمير أنه وحده صاحب الأنف الضخم القبيح . وهم يتفقون على هذا كله ، وقد استمع الأمير لبعضه أثناء مروره أمام المطبخ فابتهج له ؛ لأنه كاره لهذا الزواج ، يريد ألا يتم .

ثم يعرض علينا مقدم الأميرة ، وقد خرج الملك لاستقبالها في بعض الطريق ؛ فلم يكد يتلقاها ويتحدث إليها ويظهر لها صورة الأمير حتى تراع الفتاة حين ترى هذا الأنف ، وحين تعلم أن الأنوف كلها في سورافيا على هذا النحو من

البشاعة . ويزداد جزعها حين يعرض عليها الملك أنفاً صناعيا تخفى به أنفها الصغير الجميل . وهى تثور وتمتنع وتحاول أن ترفض هذا الزواج ، ولكن وزير أبيها يذكرها بأنه الزواج أو الدير ، فتذعن كارهة ، وتضع أنفها الصناعى كما يضع رجال حاشيتها ووصائفها أنوفهم الصناعية . وتصل إلى القصر وهى تتمنى ألا يتم هذا الزواج بشرط ألا تكون هى مصدر هذا الاخفاق حتى لا تضطر إلى الدير . وقد احتاط أبوها الملك واحتاطت معه دولة القوقاز لهذا النكر الذى ستدفع إليه الفتاة ، فألحق بحاشيتها ضابط رشيق وسيم ليكون فى خدمتها وليعزيها عن حياتها تلك المنكرة . وقد أخذ هذا الضابط يتقرب إليها ، وأخذت هى تطمئن إلى دعابته ، ولكنها ربما فكرت فى أن تهرب مع هذا الضابط إلى حيث يعيشان عيشة الحب والسعادة بعيدين عن هذه الأنوف الكبار . وقد بلغت الأميرة القصر واستقبلها الأمير استقبالا فاتراً متكلفاً ، أنكر أنفها ، وأنكرت أنفه ، وتمنى كلاهما ألا يتم هذا الزواج . ثم كانت الوليمة ، وأقبل الخدم وهم من وجوه الدولة ، تقدموا أردأ طعام وخدموا أسوأ خدمة ، وهمّ بعضهم أن يصب النبيذ على الأميرة فيتقيه الأمير بيده ، وهم آخر أن يميل قنديله ليسقط على كتف الأميرة الشمع المذاب ، فيضع الأمير يده على كتفها ليتلقى هذا الشمع ، وتذعر الأميرة لذلك فتلطمه، ويوشك الأمر أن يفسد لولا أن الوزير يرمق الفتاة فتذكر الدير ، ولولا أن المرضع تمس الأمير فيذكر حاجة الدولة إلى المال .

وتمضى السهرة على شر حال . وتمر الأميرة بالمطبخ مستخفية حين يتقدم الليل فتسمع الأشراف وهم يتخذون قراراتهم الأخيرة لاتمام الثورة ، فتبتهج بهذه القرارات ، وتنضم إلى المؤتمرين ؛ لأنها لاتريد أن يتم الزواج ، ولأنها لن تحتمل تبعة الاخفاق إذا كانت الثورة . ولكن وزير أبيها مختبئ كما كانت مختبئة ، وهو يسمع لما سمعت له ويندس بين المؤتمرين ، حتى إذا أجمعوا أمرهم أعلن إليهم أنه مكلف أن يزوج الأميرة من وارث العرش فى موارفيا كائناً من يكون ، فاما أن يقبل أخو الملك ، أن يتخذ الأميرة لنفسه زوجاً ، وإما أن يفضح هذه الثورة قبل وقوعها . هنالك يتقدم أخو الملك معلناً اغتباطه بهذا الزواج ، ويسقط فى يد الأميرة ، فهى بين اثنتين : إما أن تتزوج الأمير الشاب وأنفه الكبير ، وإما أن تتزوج الأمير الشيخ وسنه التى تشرف به

على الهرم والفناء . فان لم تقبل هذا ولا ذاك ، فهو الدير . وهى مقتنعة بأن ليس لها بد من الهرب ، فهى تأمر الضابط بأن يهيئ لها وسائل الفرار، والضابط كاره لذلك ، فهو لم يرسل ليحتمل تبعات الحب الحر ، وإنما أرسل ليكون خليلا لولية العهد ، ثم خليلا للملكة حين يرقى زوجها الأمير إلى العرش . ولكنه مع ذلك يظهر الطاعة ويسرع إلى الوزير فيظهره على جلية الأمر ويطلب إليه أن يحتاط لمنعهما من الهرب . وقد خلت الأميرة إلى نفسها آخر الليل فى غرفة من غرفات القصر . ولم تكد تدخل هذه الغرفة حتى رأت جماعة من التماثيل قد وضعت لها أنوف ضخام . وهى ثائرة فتضرب أنوف هذه التماثيل حتى تسقط وتنزع أنفها الصناعى وتمعن فى البكاء . ويمر الأمير فيسمع نحيبها فيدخل الغرفة ، ولا يكاد ينظر إلى الفتاة ويرى أنفها الطبيعى الصغير الجميل ، حتى يأخذه دهش أى دهش ، وإذا هو ينزع أنفه المستعار . وترى الفتاة فيه شاباً أنيقاً وسيما ، وهو يعطف على الأميرة عطفاً لا حد له ، فقد عرف أنها مثله قد ابتليت بأنف صغير ، وأنها تخفى مثله هذه الآفة بأنفها الصناعى ، فهو يحبها لأنها شريكته فى هذه المحنة ، فأنوف الناس كلهم كبار إلا أنفه هو . وهو من أجل ذلك مضطر إلى أن يتخذ هذا الأنف الصناعى ليخفى به عاهته . وتحاول الأميرة أن تقنعه بأن أنوف الناس كلهم صغار ولكنه لا يقتنع . والمهم هو أنه أحبها لأن لها أنفاً صغيراً كأنفه الذى كان يخفيه . وهى تحبه لأن له أنفاً طبعياً كأنوف غيره من الناس . ويقبل الضابط وقد هيأ للهرب كل شئ ، ولكنها تعلن إليه أنها لن تقبل . ثم نرى الجمع قد احتشد من غد لامضاء عقد الزواج ، ونرى عرش الملك مضطرباً كما رأيناه من قبل ، ونراه يسند بقطع الخشب ، ونرى المائدة التى سيمضى عليها العقد مضطربة قد قصرت قوائمها ، فما تزال تسند بقطع الخشب والمجلدات الضخام حتى تستقر وقد ارتفعت فلم يحتج الملك أن يجلس ليمضى العقد ، وإنما هو يمضيه قائماً متطاولا . ثم تصدر الاشارة التى اتفق عليها فتلقى الأنوف الصناعية كلها ويظهر الناس بأنوفهم الطبيعية الصغار . ويطلب أخو الملك إلى الأمير الشاب أن يعتزل ولاية العهد ؛ فما ينبغى لملك مورافيا أن يكون مشوه الخلق . وما ينبغى أن يملك على هذه الأرض من أكره الشعب فى سبيله عشرين عاماً على حمل هذه الأنوف المستعارة البشعة . هنالك يلقى الأمير أنفه الصناعى

ويظهر كما خلقه الله شابا وسيما جميل الأنف ، فيضطرب الناس و يميلون إليه . ولكن أخا الملك يعلن أن هذا الفتى ليس ولى العهد ؛ فقد ولد ولى العهد كبير الأنف ، وأثبت الأطباء ذلك وصدر القانون بحمل الأنوف الكبار من أجل ذلك. والملك نفسه دهش فهو يعلم أن ابنه ولد كبير الأنف ، ولكن المرضع تعلن الحقيقة ، وهى أن ابن الملك قد مات بعد ولادته بأشهر قليلة ، وأن أمه الملكة التى ماتت منذ عشر سنين قد اتخذت مكان ابنها طفلا صغيراً ، واتخذت له هذا الأنف الصناعى ، فعلت ذلك كله حبا للملك و إشفاقاً عليه أن تنتقل ولاية العهد من ذريته ، فيورثه ذلك حزناً عظيما . وقد نهضت الأميرة فألقت أنفها الصناعى،وأعلنت أنها لن تتزوج إلا هذا الفتى ، وأنها إن صرفت عنه فستؤثر الدير. هنالك يتجه الملك إلى الشعب والأشراف سائلا ماذا تريدون ؟ أتريدون ملكاً من الأسرة المالكة ، أم تريدون ذهب القوقاز؟ فيتلقى الجواب الاجماعى بأن الشعب يريد مال القوقاز . ويعلن الملك أنه تبنى هذا الفتى فأصبح أميراً شرعياً وليا للعهد.

وكذلك تنتهى هذه القصة ، وقد عرضت عليك خلاصتها موجزة ، ولم أعرض عليك شيئاً من خصائصها الفنية التى تتصل بالاخراج والعرض ، وتلائم السينما بوجه عام . وقد رأيت ما فى هذه القصة من مغزى سياسى واجتماعى وخلقى ، ورأيت أن جان بول سارتر قد استطاع أن يذيع فى القصة الأولى من طريق الجد آراء فلسفية هى بعينها التى تؤلف فيها الكتب وتكتب فيها الفصول وتنشأ فيها المسرحيات ، واستطاع فى القصة الثانية أن يذيع من طريق الفكاهة آراء فلسفية ليست أقل خطراً من الآراء التى أذاعها فى القصة الأولى من طريق الجد ؛ فجد السينما وهزله كجد التمثيل وهزله ، وكجد الكتاب والمقالة وهزلهما يمكن أن يكونا وسيلة من وسائل التصوير والتعبير التى تحقق الصلة المنتجة المجدية بين الجماعة وبين الأديب .

طه حسين

أحمد لطفى السيد

والدعـوة إلى أرسـطو

لم يكن عفواً أن يكون الداعية الأكبر إلى أرسطو فى مصر الحديثة ، هو أحمد لطفى السيد ، بل لم يكن بد من أن يكون الأمر كذلك . ولا أريد بالدعوة مجرد العناية بمؤلفات أرسطو ونقلها إلى العربيـة ؛ فالكثيرون ممن ليس لهم كبير حظ من الفلسفة يستطيعون ذلك ، ومن مؤرخى الفلسفة من تفرغ لدراسة بعض الفلاسفة دراسة عميقة وافية ، دون أن تعد هذه الدراسة دعوة إلى طريقة معينة أو نظام خاص من التفكير ، إنما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعـة وتفكيراً إلى من يدعو إليه ، ولابد أن يكون بين الداعى إلى أرسطو و بين هذا الفيلسوف من التشابه فى التفكير والتقارب فى الروح ما يجعل فلسفته حية قوية لا مجرد موضوع دراسة تاريخية .

والارسطاطاليون قليلون فى العصر الحاضر . ومن حسن حظ مصر أن وجد فيها فى أول نشأتها الحديثة أرسـطاطالى من الطراز الأول . ووجوده فى هذا الطور من حيـاتنا الفكرية حادث هام فى تاريخ الحياة الفكرية فى مصر؛ لأنه جعـل من فلسفة أرسطو أساساً من أسس التفكير الحديث فى مصر ، فوجهنا بذلك وجهة معينة على أسس متينة كنا فى أشد الحاجة إليها ما دمنا سائرين فى طريق المدنية الغربية التى أساسها الفلسفة اليونانية مهما تشعبت بها المذاهب بعد ذلك .

وأوجه التشابه بين الداعى والمدعو إليه ظاهرة فى أمور كثيرة ؛ فـكلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات عناية فائقة ، وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق البحت يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية ، وينقص كلا منهما العناية بالتفاصيل والطريقـة التحليلية وادراك ما للمنطق البحت من حدود كثيراً ما تقصر به عن إدراك الحقـائق العلمية . ومن سـوء حظ

الارسطاطاليين جميعاً منذ عهد أرسطو أنه ترك فلسفة كاملة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فأصبحوا لا يستطيعون إلا أن يرددوا حكمته ويعيدوا علينا قوله. ولم يكن ذلك لينقص من قدرهم ؛ فهم ارستقراطية معينة بين المفكرين وسيظلون طبقة معينة ما بقى للتفكير الانسانى قيمة .

وأخص صفات أرسطو ما أدركه العرب لأول وهلة حين لقبوه بالمعلم الأول. ولا شك أنه علم الانسانية كلها كيف يكون التفكير الصحيح ، وهى صفة تختلف كثيراً عن صفة العلم . وقد يكون الرجل من أكبر العلماء دون أن تكون له صفة المعلم ، إنما المعلم من يهديك بالاشارة الخفيفة والكلمة السامية إلى آفاق جديدة من التفكير . ولست أعلم أحداً فى مصر له هذه الصفة واضحة قوية كما رأيتها فى لطفى السيد ، وواضح أن ذلك رأى تلاميذه جميعاً . وإنى وإن كنت أحدث مريديه عهداً به قد شعرت بقوة أثره كمعلم منذ أول مرة لقيته . وهو لا يعنيه من الأمور، إلا ما يستطيع به أن يكون قضية عامة واضحة ، ثم يلقيها إليك فى قول مختصر فيصيب من نفسك ما لا يصيبه الشرح الطويل.

أما العناية بالكليات فهى أيضاً من أخص صفات التفكير الأرسطاطالى ، وهى مصدر قوته وهى أيضاً سر ضعفه . فالكليات عند أرسطو حقائق ثابتة، وهى عنده أعز منالا من أن تطعن فى صحتها وقائع معينة . وهذا النوع من التفكير يختلف اختلافا تاما عن التفكير العلمى الحديث الذى تكفى فيه مسألة واحدة لهدم أقوى النظريات العامة. وهذا الايمان بالكليات واضح كل الوضوح فى تفكير لطفى السيد ، وهو مغرم برد كل شىء يعرض له إلى قضية عامة ثابتة ، وهو أصدق من عرفت حكما على الأمور على أن تكون المقدمات والوقائع التى تعرض عليه كاملة غير منقوصة ولا مشوهة ، فان لم تكن كذلك لم نأمن عليه من الخطأ . ولا يرى أن من عمله أن يحقق وقائع معينة ولا أن يطبق الكليات على الواقع ، فهو يرى أن يترك ذلك لتلاميذه يبلغ كل منهم من الصواب ما تؤهله له طبيعته . والناس يخطئون حين يظنون أن هذه العقلية تعنى بالنظريات ، وقد سمعت محدثاً للطفى السيد يصفه بذلك. ومع أن لطفى باشا لم ينكر عليه قوله إلا أنى أعتقد أن محدثه أخطأ وأن الوصف الحقيقى له هو أنه رجل كليات عامة ، وذلك من أوضح صفات الأرسطاطالية .

وقد اختار لطفى السيد من كتب أرسطو كتبه فى الأخلاق والسياسة

والاجتماع ، وهى أبقاها على الزمن ، وأقربها إلى تفكيرنا الحديث ، وليس الأمر كذلك فى كتبه العلمية ، فقد فقدت كل قيمتها إلا التاريخية وإن ظلت من خير الأمثلة على قوة المنطق البحت وضعفه وحدوده ، وكيف يخطئ حتى فى يد أرسطو نفسه ، والنهضة العلمية فى أوربا كانت كلها ثورة على تعاليم أرسطو . والذين يدرسون تاريخ العلم إبان النهضة يدهشه ما اضطر إليه العلماء من الجهد العنيف فى سبيل القضاء على نظرياته العلمية . ومن أمثلة ذلك رأيه فى الحركة ، فقد قسمها إلى حركة طبيعية وقسرية ؛ وأن الحركة الطبيعة تذهب بالأجسام إلى أصلها الأول ، فالحجر يسقط لأنه يعود إلى أصله الأول وهو الأرض ، والدخان يصعد لأنه يعود إلى أصله وهو الهواء . وقد كان همّ علماء إيطاليا أن يتضافروا على القضاء على هذه النظرية الخلابة ، التى يكاد يكون صدقها من البديهيات قبل أن يستطيعوا إقامة نظريات جديدة فى الحركة والجاذبية ، وكذلك كان شأن أكثر المشاكل العلمية فى ذلك العهد . ومع أن أكثر النظريات الحديثة إنما كانت نتيجة الثورة على أرسطو فان ذلك لا ينقص من قيمة فلسفته ، على أنها مرانة ذهنية بديعة فضلا عن دلالتها على ما كان للرجل من قوة ذهنية خالصة لم يبلغها إنسان قبله أو بعده . وفلسفة أرسطو كلها تنقصها المرونة فهو لم يتصور التطور . ثم إن منطقه على أهميته فى تنسيق الفكر لا يؤدى وحده إلى معرفة طبائع الأشياء . فأبسط قضاياه : كل يونانى إنسان ، سقراط يونانى فهو إنسان ، قضية لا غبار عليها ولكنها لا تصل بنا إلى حقائق علمية . فلو حاولنا مثلا أن نعرف طبيعة الميكروبات فنقول كل حى متحرك بنفسه حيوان والميكروبات حية تتحرك بنفسها فهى حيوانات ، لم يكن ذلك صحيحاً من ناحية الواقع ، وإن كان صحيحاً من ناحية المنطق .

على أنه مع الاعتراف بحدود الفلسفة الأرسطاطالية فلا سبيل إلى نكران قيمتها فى تقويم التفكير الانسانى ، ونحن سعداء إن وجد منا من يدعو إليه دعوة ناجحة موفقة ، وأن تصبح فلسفته وطريقته فى التفكير من الأسس التى تقوم عليها نهضتنا الحديثة ، ونحن مدينون فى ذلك لأحمد لطفى السيد فهو أقرب المصريين إلى طبيعة هذا التفكير وأشدهم إيماناً به وأقدرهم عليه .

على أن بعض الناس سيتساءلون هل نحن فى حاجة إلى أرسطو فى عصرنا

هذا بعد أن سارت الفلسفة بعده أشواطاً جعلت العودة إليه نوعاً من اللذة التاريخية دون أن يكون لدراسته ضرورة ملحة . الرأى عندى أن مصر وقد أخذت كل علمها الحديث عن التفكير الغربى لابد لها إن أرادت أن تصل من هذه المدنية الغربية إلى غايتها أن يقوم تفكيرها على ما قامت عليه هذه . ولا شك أن الفلسفة اليونانية أساس من أسس المدنية الغربية ، وسيظل التفكير الغربى فى مصر مستعاراً ما لم يتطور تاريخ الفكر عندنا على غرار تطوره فى أوربا .

ويتبين أثر التفكير اليونانى فى تكوين المدنية الغربية حين تقارن بينها وبين المدنيات الأخرى .

الفلسفة فى الشرق الأقصى قامت على أسس أخلاقية خالصة ، وكان قوامها التميز بين الحسن والقبيح ، ومدار بحثها ما يليق وما لا يليق ، ومن ذلك نشأت تعاليم كونفوشيوس .

والفلسفة الهندية قامت على بحث الفرق بين الدوام والزوال ، وكان قوامها البحث فى القيم الأبدية والقيم المؤقتة ، ومدار بحثها البقاء والعدم وتناسخ الأرواح والنيرفانا وغير ذلك من تعاليم البراهمة .

أما الفلسفة اليونانية فقد قامت على التمييز بين الخطأ والصواب ، ومدار بحثها البرهان العقلى وهو ما لم تعن به الفلسفات الأخرى .

والذين يظنون أنهم يستطيعون أن يلموا بالعلم الغربى بدراسة أحدث مظاهره دون أن يلموا بالعهد اليونانى القديم يخطئون خطأ كبيراً . وقد يكون الأوربى الحديث أبعد ما يكون عن كل رأى من آراء أرسطو ولكن تكوينه العقلى قائم على التفكير اليونانى . ومهما قدم العهد بهذا التفكير فقد بقى منه فى أوربا الشئ الكثير ، وأهم ما بقى منه تقديس التفكير المستقيم ، والحاجة إلى البرهان ، والاتفاق على قواعد يتميز بها الخطأ والصواب .

على أننا لن نقف عند أرسطو طويلا بل يجب أن نخطو الخطوة التالية فى تطور حياتنا الفكرية على الطريقة الغربية ، وسيتم ذلك حين يقوم بيننا من يدعو إلى ديكارت على طريقة لطفى السيد إلى أرسطو . ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته إلى العربية . وإنما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له ، وأن تكون دعوته إلى طريقة ديكارت بأن

يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها . ولعل بيننا من فيه من الصفات العقلية ما يؤهله للقيام بهذا الواجب ، بل إنى أكاد أسميه ولو عنى بهذه الدعوة لأدى لبلاده خدمة كبرى .

حاولت فى هذه الكلمة القصيرة أن أوضح قيمة دعوة لطفى باشا إلى أرسطو ومقدار خدمته للتفكير فى مصر. ولو لم يكن له أثر بيننا إلا هذا لعددته من أكبر الخدمات الوطنية التى تبقى على الزمن والتى لا تعد الخدمات الأخرى بجانبها شيئاً مذكوراً . ومهما ظن الناس أن قيمة البلاد إنما تكون بغناها وسعادتها فان القياس الأول لمدنية أية أمة إنما يقاس بمقدار نموها العقلى وسيظل لطفى السيد فى تاريخ الفكر فى مصر عاملا من أكبر العوامل فى توجيهه اتجاهاً صحيحاً .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

فى أفق السياسة العالمية

فى هيئة الأمم المتحدة

لم يكد ينقضى عامان على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإنشاء هيئة الأمم المتحدة ، حتى بدأت سحب الخلاف تتجمع وتتلبد بين الدول الكبرى ، وبات جو العلاقات الدولية ينذر بأخطر العواصف وأشد الأنواء . وكان الناس يتوقعون بعدما عانوه من أرزاء الحرب الأخيرة وويلاتها ، أن يكون السلام الذى يعقبها أدنى إلى تحقيق المبادئ الانسانية العامة ، التى طالما نادى بها ساسة الحلفاء فى أثناء الحربين العالميتين وضمنوها عهودهم ومواثيقهم ، فيعيش الناس فى أوطانهم أحراراً آمنين ، محررين من خوف الحرب والعدوان ، فاذا هم اليوم يواجهون فى ظلال السلم المزيف حالة أشد وقعاً على أعصابهم وأسوأ أثراً فى علاقاتهم واقتصادياتهم من حالة الحرب نفسها . والناس فى دهشتهم وحيرتهم مختلفون فى تفسير ما أصابهم من خيبة وابتئاس ، كل يحاول تأويله بحسب ما يعتنق من مبادئ وآراء سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية .

ومع ذلك فليست هذه أول مرة فى الأزمنة الحديثة يخرج فيها العالم من حرب عامة ، منهوك القوى ، مصدع البنيان ؛ فقد اجتاحت أوربا الحروب النابليونية مدة خمسة عشر عاماً تقريباً ووسعت ميادين الحرب العالمية الأولى معظم قارة أوربا ، وبلاد الشرق الأوسط ، وجهات من الشرق الأقصى ، وجميعها اكتوت بنارها أكثر من أربع سنوات ، ولكن السلام الذى أعقب كلا من الحربين لم يتعرض لخطر الانتكاس والانتقاض السريع كما تعرض له السلم هذه المرة .

فبعد الحروب النابليونية عقد الحلفاء مؤتمر فينا ، وأعلنوا للملأ عزمهم على تقرير سلام دائم بين الدول يكون أساسه توازن القوى وقمع الثورات . واتفقت الدول الكبرى فيما بينها على أن يجتمع مندوبون عنها فى أماكن ومواعيد يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التى تصون التسويات الاقليمية التى

أبرموها ، وتكفل لشعوب أوربا سعادتها واستقرار السلام في ربوعها . وقد كان المقصود طبعاً من سعادة الشعوب واستقرار السلم ، القضاء على الحركات الثورية التي قد تقوم ضد الملوك فتنغص على الناس حياتهم ، كما فعلت الثورة الفرنسية في فرنسا وأوربا . وقد نجح المؤتمر الأوربي أو الكنسرت Concert في تحقيق هذه الأغراض رغم الخلاف الأيديولوجي أو المذهبي ، الذي كان يفرق إذ ذاك بين روسيا ومعها النمسا و بروسيا ، وبين انجلترا ومعها فرنسا . فقد كانت حكومات الفريق الأول أوتقراطية رجعية ، وأما حكومتا الفريق الثاني فكانتا أميل إلى اتباع المبادئ الديمقراطية النيابية في حكمهما . ومع ذلك فقد ساد الجميع اعتقاد واحد بضرورة حفظ السلام بين الدول ومقاومة الثورات بصفة عامة أينما كانت . وكان اتفاق الدول على هذا الأساس وبدرجات متفاوتة كافياً لايجاد نوع من التعاون استطاعوا به أن يصونوا السلام في أوربا مدة طويلة ، وحالوا بوساطته دون وقوع حرب أوربية كبرى من سنة ١٨١٥ إلى ١٨٥٢ ؛ حين قامت حرب القرم ، واشتبكت فيها انجلترا وفرنسا وتركيا وبيدمنت من جهة وروسيا من جهة أخرى .

وكذلك كانت الحال عقب الحرب العالمية الأولى أدعى إلى صيانة الأمن والسلام العام بين الدول منها في أيامنا هذه . فقد تمخضت تلك الحرب عن أكبر وأهم مؤسسة عالمية ابتدعها العقل البشري لتعاون الدول وحفظ السلام بينها ، تلك هي عصبة الأمم التي أمدها الحلفاء في أول أمرها بسلطانهم وأحاطوها باهتمامهم ، حتى نمت قوتها وعظم خطرها واستمع العالم إلى كلمتها ؛ إلى أن طغت على أوربا موجة الدكتاتورية ، وذعر مجلس العصبة من خيال الحرب العامة ، فجبنت العصبة وضعفت ، وما زالت الأسقام تتناوبها والصدمات تتوالى عليها من كل جانب حتى أدركتها الوفاة الطبيعية بقيام الحرب الأخيرة بعد انقضاء عشرين عاماً على صلح فرساي .

ولم يكن الوفاق شاملا صفوف الحلفاء في الحرب الأخيرة لا في الخطط الحربية ولا في المبادئ السياسية والاقتصادية ، ولكنهم كانوا جميعاً يخشون الروح الحربية في ألمانيا ، وطغيان النازية في أوربا ؛ فكان هذا الخوف من أقوى العوامل التي ساعدت على تماسك الحلفاء في أثناء الحرب ؛ حتى إذا ما انتهت بانتصار الحلفاء وزالت النازية وكادت تزول معها ألمانيا من

الوجود ، وجد الحلفاء أنفسهم فى مواجهة بعضهم بعضاً ، وقد تداعت الأسوار والحصون والحدود التى كانت للعدو المشترك ، وجاءت جحافل النصر فدمرتها تدميراً . لقد كان قيام ألمانيا ورغبة الجميع فى القضاء على طغيانها هو العامل المشترك الذى أحكم الصلات بين اتحاد السوفييت والدول الغربية ؛ وكان من سوء حظ الحلفاء أنهم لم يستبقوا بعد الحرب ظلا لألمانيا كما فعلوا فى الحرب العالمية الأولى . ولذلك فانه لما ذهبت ألمانيا ذهب معها عامل الوثاق ، وبقى الفريقان مجردين من أى نوع من أنواع المشاركة ، حتى ليخيل لنا أن هيئة الأمم المتحدة التى أنتجتها جهود الحلفاء المشتركة قبيل انتهاء الحرب قد جاءت عفواً ومن غير إيمان صحيح برسالتها ، وكانت بذلك أشبه شئ فى التاريخ بالمحالفة المقدسة التى أعقبت الحروب النابليونية ، وجادت بها قريحة إسكندر الأول عاهل روسيا ، فوقعها الحلفاء آنئذ ساخرين ؛ وسرعان ما ظهر للناس أن الوثيقة لم تكن حلفاً صحيحاً ، وليس لها من القداسة أكثر من اسمها .

لذلك كان هذا العقم المبكر الذى أصاب هيئة الأمم المتحدة فشل حركة مجلس الأمن فيها وكدس المشكلات بعضها فوق بعض على عاتق جمعيتها العمومية دون أن تصل إلى حل لها ، وجلها مسائل لم تجد طريقها إلى المجلس أو الجمعية إلا لخطورتها واحتمال تهديدها للأمن الدولى والسلام العام .

وعسير علينا أن نعتقد أن أسباب هذا العقم كامنة فى حق « الفيتو » أو حق الاعتراض الذى اختصت به الدول الخمس الكبرى ؛ فقد كان إجماع الآراء شرطاً محتما لسريان قرارات مجلس عصبة الأمم ، ومع ذلك عاشت العصبة وخدمت قضية السلام العام سنين طويلة . ولا نظن أن اشتراك روسيا والولايات المتحدة فى هيئة الأمم منذ تكوينها واحتضان أمريكا للهيئة فى بلادها من شأنه أن يشل حركتها أو يوغر صدر روسيا عليها . بل إننا على العكس نرى فى اشتراك جميع الدول الكبرى والصغرى فى الهيئة وفى حدب أمريكا عليها ، خير ضمان لنجاحها على مر السنين . غير أننا قد نلمح سبب عقم الهيئة فى اختلاف المذاهب السياسية التى تدين بها حكومات الحلفاء ، ويختلفون من أجلها ذلك الاختلاف الأساسى الذى كاد يجعل التفاهم بينها مستحيلا . ومع ذلك ما أيسر أن نرى حكومات الكتلتين الشرقية والغربية كلاًّ منها تباهى بأن نظام الحكم فيها إنما هو النظام الديمقراطى الصحيح ، وأنه فى غيرها من

حكومات الفريق الآخر إنما هو الفاشية أو النازية بعينها . ولا يعقل بطبيعة الحال أن نحمل معنى الديمقراطية ذلك التناقض الصارخ الذى لا تنى الدول عن ترديده لا فى منتدياتها وصحفها فحسب بل كذلك فى ساحات هيئة الأمم المتحدة نفسها . ولو أنعمنا النظر لرأينا سبب هذا التناقض واضحاً فيما يؤول به الفريقان معنى الديمقراطية التى يتشدقان بها .

فدول الكتلة الشرقية تفسر الديمقراطية تفسيراً اقتصاديا اجتماعيا ، وترى أنه ما دامت موارد الثروة فيها ملكاً للدولة ، والتجارة الخارجة احتكاراً بيدها ، وما دام الانتاج فيها موزعاً على الفلاحين والعمال دون أى تعطل ، فماذا يهم بعد ذلك أن تكون الحريات محدودة والسلطات السياسية جميعاً بيد الحزب الذى يسيطر على كل شئ فى الدولة ؟ وأما الدول الغربية فتفسر الديمقراطية تفسيراً سياسيا ، وتقول إن النظام الديمقراطى الصحيح يتمثل فى الحكم النيابى أو البرلمانى الذى يتيح لكل فرد حق إعطاء صوته فى الانتخابات ، ويضمن لهم جميعاً احترام الفردية والملكية وحرية الاعتقاد الدينى والصحافة والكتابة والخطابة فى حدود القانون العام ؛ ولا يضير الديمقراطية مع ذلك أن تكون الصناعات والأعمال العامة بأيدى أصحاب رءوس الأموال ، وأن يكون العمال تابعين لهم فى الحدود التى تقررها الدولة لحماية مصالحهم . من ذلك يتضح أن الفريقين محقان فيما يدعيانه ؛ فحكومات الكتلة الشرقية ، ديمقراطية من الوجهة الاقتصادية . وحكومات الكتلة الغربية ، ديمقراطية من الوجهة السياسية . و إذا كانت حكومات الفريق الثانى تعمل جاهدة ، كما فى بريطانيا ، لتأميم موارد الثروة فيها وتحقيق تفسير الديمقراطية بوجهتيها السياسية والاقتصادية معاً ، فان حكومة اتحاد السوفييت لا تؤمن فى الوقت الحاضر إلا بالوجهة التى طبقتها فى بلادها ، ولا يكفيها أن تنحصر جهودها فى دائرة الكتلة الشرقية وحدها ، بل إنها لتعمل حثيثاً على كسب شعوب العالم كله إلى صفوفها .

وسياسيو الفريقين على علم تام بهذه الحقائق وتلك الخطط ما ظهر منها وما استتر ، ولكنهم جميعاً يتغابون ويتظاهرون ليمثلوا أمام العالم أدوار البطولة فى البراءة والتضحية . وهم بتمثيلهم هذا إنما يحاولون أن يخفوا مثالبهم ، وأن يتستروا على أعراض مرض الاستعمار الخبيث الذى يصيب الدول الطامعة إذا

ما استشعرت القوة على البطش والقهر . وقد كانت العلة قبل الحرب الأخيرة محصورة فى بريطانيا وحدها ، وفى فرنسا إلى درجة ما ، ولكن ما كادت الحرب تنتهى حتى بدت أعراض المرض صارخة على وجه روسيا والولايات المتحدة ، وأصبحت القوى الثلاث تتنازع فيما بينها السيطرة والتفوق فى العالم . ولم يبق شك إذن فى أن أسباب المنافسة والانقسام لا ترجع إلى الخلاف الأيديولوجى أو المذهبى كما يبدو لأول وهلة ، وإنما توجد أسبابها كامنة فى شهوة الاستعمار التى تسلطت على الدول الكبرى ، ولا سبيل إلى تراجع إحداها عن تحقيق أغراضها إلا « بالحرب » . وقد كشفوا أخيراً عن نوع جديد من الحرب هو الحرب « الجامدة » أو « الباردة » التى لا تسيل فيها الدماء ، ولا يتطلب نشوبها قطع العلاقات أو سحب السفراء . وهذه هى الحرب التى لم يألفها العالم من قبل ، والتى تعانيها الشعوب الآن فى داخل هيئة الأمم المتحدة .

وإليك زيارة خاطفة لبعض ميادين الحرب « الجامدة » الجديدة ولنبدأ بالبلقان :

١ — تطورت الحال فى البلقان على أثر عودة الملكية إلى اليونان فى العام الماضى ، وباتت اليونان تعانى منذ ذلك الوقت أوجاع حرب أهلية جديدة من تلك الحروب التى ما برحت تنتاب هذه البلاد بين آونة وأخرى . فقد أبان استفتاء الشعب فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ أن نحو ١,١٧٠,٠٠٠ نفس قد اقترعوا فى صف الملك ، ونحو ٥٢٣,٠٠٠ قد أعطوا أصواتهم ضد الملكية . ومن هذا العدد الضخم فرت آلاف عدة عابرة الحدود إلى دول البلقان المجاورة ، وهى بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا . وفى هذه البلاد عامة وفى يوغسلافيا بصفة خاصة أخذ الاغريق الجمهوريون يتثقفون بالمثقافة الشيوعية ، ويتدربون حربيا ، حتى إذا كمل إعدادهم تسربوا إلى داخل حدود اليونان ولاذوا بجبالها ووهادها يعتصمون فيها ، ومنها يكرون ويفرون ويشنون حرب العصابات على قوات الحكومة وأهل القرى الواقعة فى دائرة نفوذهم . وقد تقدمت اليونان فى خلال هذا العام تشكو إلى مجلس الأمن من أن بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا تتآمر عليها وتتربص بها الدوائر ، وأنها تيسر للعصابات عبر الحدود وإثارة الفتن والقلاقل بين سكانها الآمنين ، مما يعرض السلام فى البلقان وخارجه لخطر محقق . وقد ألف المجلس لجنة دولية لبحث الشكوى ، وتقدمت اللجنة

بمقترحاتها للمجلس ، وكان أهمها تعيين مندوب أو لجنة صغيرة شبه دائمة لمراقبة الحدود بين اليونان وجيرانها نيابة عن هيئة الأمم . فاعترضت دول البلقان الثلاث على افتيات الهيئة على سيادتها وتدخلها فى شؤون تعدها من صميم اختصاصها ، ووقف المندوب الروسى ينفى تهمة الاعتداء عن دول البلقان ، ويقرر أن حرب العصابات فى اليونان ، إنما هى مظهر من مظاهر الحرب الأهلية التى منيت بها اليونان ، وأن السبب الرئيسى لاشتعال هذه الحرب واستمرارها إنما يرجع إلى بقاء القوات الانجليزية محتلة البلاد ، وإعلان مبدأ ترومان الجديد الذى يقضى بتقديم المساعدة لكل من اليونان وتركيا ، وعلى ذلك تشجعت العناصر الرجعية فى اليونان ، وأصرت على البطش بالعناصر الديمقراطية الحرة فيها . لذلك احتدم الخلاف بين الدول الشرقية والدول الغربية . وكلما اتخذ المجلس قراراً لحل المسألة ، رفع المندوب الروسى يده بالاعتراض . لذلك قرر المجلس آخر الأمر عرض الموضوع على الجمعية العمومية لهيئة الأمم التى انعقدت فى ١٦ سبتمبر الماضى . وقد نظرت اللجنة السياسية فى موضوع الخلاف واتخذت أخيراً قراراً بأكثرية ٣٦ صوتاً ضد ٦ أصوات ، وامتناع عشر دول عن التصويت ، وينص القرار على ما يأتى :

« بعد أن أخذت اللجنة السياسية علماً بالتقرير الذى وضعته لجنة التحقيق الدولية ، واتضح منه بأغلبية الأصوات أن بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا قد منحت مساعدتها وتأييدها للعصابات الثائرة التى تقاتل ضد الحكومة اليونانية ، فان اللجنة تدعو ألبانيا وبلغاريا ويوغسلافيا إلى الكف عن تقديم أية مساعدة فى المستقبل لهذه العصابات » . وكذلك وافقت اللجنة على تأليف لجنة خاصة لمراقبة الحالة بالبلقان ، واحتفظ فيها بمقعدين لروسيا وبولندا ، ولكن مندوبى الدولتين أعلنا انسحابهما من اللجنة ، وعاد الاشكال إلى ما كان عليه .

وليس أدل على هبوط قيمة مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة فى نظر الدول من الخطاب الذى أرسله أعضاء اللجنة البلقانية فى شهر يوليو الماضى ينبئون فيه المجلس بأن حكومتى يوغسلافيا وألبانيا قد منعتاهم من مباشرة التحقيق فى بلادهما ، وأن بلغاريا اشترطت عليهم شروطاً لم يسعهم سوى رفضها . وأخيراً قال الأعضاء بالنص : « إن هذه الدول قد أظهرت احتقارها واستهانها للسلطات التى خولها مجلس الأمن للجنة . »

٢ — وهناك مسألة العضوية فى مجلس الأمن وفى هيئة الأمم . أما فى مجلس الأمن فقد خلت ثلاثة أماكن بدلا من البرازيل واستراليا وبولندة . ففازت بثلثى الأصوات فى الهيئة كل من كندا وأرجنتينا . وتلتهما أكرانيا والهند بأقل من ثلثى الأصوات ، فأعيد الاقتراع بينهما مرات عدة ، ولكن انقسام الرأى بين الكتلتين قد حال دون فوز إحداهما ، ولا يزال الموقف معلقاً إلى الآن . وأما عن مسألة عضوية هيئةالأمم ، فقد كان الواجب أن ترحب الهيئة باستقبال الدول المستقلة التى لا تزال واقفة بالأبواب ، ومنها الدول التى عقد الحلفاء معها أخيراً معاهدات الصلح . ولكن انقسام الدول الكبرى فيما بينها لم يسمح إلا بقبول اليمن والباكستان ، وتركت فى الدهليز دول لها خطرها وأهميتها مثل إرلندة والبرتغال و إيطاليا وفنلندة .

وكان السبب فى هذا التعنت أنه لما تقدمت ألبانيا لقبولها عضواً بالهيئة أيدت روسيا طلبها على أساس أن ألبانيا قد حاربت إلى جانب الحلفاء فى الحرب الأخيرة ضد قوات المحور ، غير أن الدول الغربية عارضت فى قبولها بسبب التهم الموجهة اليها من اليونان ، ولتشددها أمام بريطانيا فى قضية الألغام التى كانت مبثوثة فى خليج كورفو واصطدمت بها فى العام الماضى سفينتان انجليزيتان ، فدمرت السفينتان وراح ضحية الحادث عدد من البحارة الانجليز . فلما اقترع المجلس ضد قبول ألبانيا جاء الرد سريعاً من روسيا ؛ إذ اعترضت على قبول إرلندة والبرتغال وشرق الأردن حين قرر المجلس قبولها . وكانت حجة المندوب الروسي فى الاعتراض أن استقلال شرق الأردن ناقص ، وأن إرلندة والبرتغال لم تشتركا فى الحرب ضد قوات المحور ، وأضاف المندوب إلى اعتراضه قوله إنه يكفى سبباً لرفض قبول هذه الدول أن حكومة اتحاد السوفييت لم تر من المناسب أن تتبادل معها التمثيل السياسى ، لأنها لا تستوفى الصفات التى تؤهلها لأن تكون أعضاء فى هيئة الأمم . ولا تعارض روسيا فى قبول إيطاليا وفنلندة إذا قبلت الدول الغربية بلغاريا وألبانيا . وهكذا تنحدر الاجراءات الخاصة بتطبيق ميثاق هيئة الأمم المتحدة إلى درك المساومة والمقايضة!

٣ — أما مسألة أندونيسيا ، فقد ظهر فيها ضعف مجلس الأمن ظهوراً أكثر وضوحاً . ذلك أنه لم يكد المجلس يقرر مطالبة الفريقين المتحاربين بوقف

القتال ، ويعلن الطرفان قبولها توسط المجلس ، حتى عادت الأنباء تؤيد استئناف القتال بين الجانبين ، ولا تزال الجمهورية الأندونيسية تطالب المجلس بوقف القوات الهولندية عند مراكزها الأولى ، ولكن بدون جدوى . ولا تزال اللجنة الثلاثية التي ألفها المجلس من أستراليا وأمريكا وبلجيكا في طريقها إلى أندونيسيا لحسم النزاع بين المتحاربين .

وهذا الموقف السلبي من جانب مجلس الأمن يذكرنا بموقف مخالف له تماماً وقفه مجلس عصبة الأمم في سنة ١٩٢٥ . ذلك أنه حدث في أكتوبر من ذلك العام أن توترت العلاقات بين اليونان وبلغاريا كما هي متوترة الآن ، ولكن بفارق واحد ، هو أن الإغريق كانوا هم المعتدين إذ اخترقوا حدود بلغاريا ، وحدثت بينهم وبين البلقان مناوشات كادت تفضي إلى نشوب الحرب بين الشعبين ، فسارعت بلغاريا إلى مجلس العصبة تشكو من اعتداء اليونان ، وكان رئيس المجلس إذ ذاك السياسي الفرنسي الشهير مسيو بريان Briand وزير خارجية فرنسا ؛ فما إن وصلته أنباء الحادث حتى اتصل شخصياً بالحكومتين تلفونياً ، وطلب إليهما باسم العصبة وقف الاستعداد للحرب فوراً وسحب قوات كل من الحكومتين إلى داخل حدودها ، ثم دعا المجلس إلى الانعقاد في باريس في مدى ثلاثة أيام من تاريخ وصول الشكوى ، وقرر المجلس أن تسحب اليونان قواتها في مدى أربع وعشرين ساعة ، وكلف الملحقين العسكريين لدول الحلفاء تنفيذ أوامر المجلس بدقة والسهر على مراقبة الحالة . وقد وصلت الأوامر إلى الجيش اليوناني بالارتداد قبل أن يتهيأ للهجوم ببضع ساعات .

حدث هذا كله لأن الدول كانت تحدوها جميعاً الرغبة الأكيدة في صيانة السلم ونشر ألويته في جميع البلاد على السواء ، ولأن أعضاء المجلس كانوا يقدسون رسالتهم ويعتقدون أنهم حين يتكلمون كانوا ينطقون بلسان الشعوب بل بلسان الانسانية جمعاء ؛ فكان إذا تكلم بريان الفرنسي أو تشمبرلن أو رمزي مكدونلد أو هندرسون الانجليزي اهتز لكلماتهم العالم أجمع . أما اليوم فماذا نرى ؟ إننا لا نرى قادة ينطقون بلسان الانسانية فينصت لهم العالم ، بل نرى مندوبي الدول في الهيئة مجرد ممثلين سياسيين لحكوماتهم يقتضيهم واجبهم أن يدافعوا عن مصالح حكوماتهم وكفى . أما رسالتهم العامة

ودفاعهم عن الحقوق والحريات وقيامهم كحراس للأمن والسلام فى ربوع العالم جميعاً ، فأمور قد تتشدق بها ألسنتهم ، ولكنها لا تنطوى عليها قلوبهم .
وسيبقى مصير هيئة الأمم المتحدة معلقاً فى الميزان لا نقض لها ولا إبرام فى المشكلات الدولية ، حتى يستقر رأى الدول الكبرى فيما بينها ، فاما إيمان صحيح بالميثاق وبرسالة الهيئة ، وإما حرب « جامدة » كالتى نعانيها الآن تعقبها بعد أمد طويل أو قصير حرب ذرية لا تبقى ولا تذر .

محمد رفعت

دولة باكستان

فى مقال سابق تحدثنا عن الهند بين الوحدة والتقسيم [1] ، وذكرنا أن التفرقة فى حياة الهند لا ترجع إلى فعل المستعمرين وحده ، وإنما هى ترتبط بعوامل أعمق كثيراً مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ فهى تتصل بطبيعة البلاد الهندية وانقسامها أقساماً متباينة من حيث التوجيه الجغرافى ؛ وهى تتصل بتاريخ الهند العمرانى والاجتماعى والثقافى ، ذلك التاريخ الطويل الحافل بعوامل الخلف والتفرقة بين السلالات والجماعات والطوائف والديانات واللغات وغير ذلك ، مما يصعب معه الجمع بين سكان الهند فى أمة واحدة . وغاية ما حدث فى تاريخ الهند الحديث أن الانجليز وجدوا فى تلك البلاد مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، وحقلا خصباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ، فكانوا مستعمرين مهرة عرفوا كيف يفيدون من الهند كميدان للاستعمار ، ووجهوا أسباب الشقاق إلى ما يخدم أغراض المستعمرين ، ولا يمهد السبيل إلى تقارب أو تساند بين جماعات الشعب وطوائفه فى تلك البلاد ، بل لا ينير السبيل أمام الهنود عليهم أن يهتدوا إلى لون من ألوان الاتحاد السياسى بين أجزاء الهند ، اتحاداً لا يبعد أن يعوض تلك البلاد عن بعض ما فوتت عليها الظروف من وحدة قومية شاملة .

ونود فى هذا المقال أن نتتبع نشأة دولة باكستان ، إحدى الدولتين الكبريين اللتين انتهى إليهما تقسيم الهند ؛ وأن نحاول أن نكشف عما تستند إليه تلك الدولة الاسلامية من مقومات فى الطبيعة والتاريخ والاقتصاد والتكوين البشرى والاجتماعى ، كما نتتبع ما ينبغى أن تقوم عليه صلات تلك الدولة ببقية الهند ، بما فى ذلك الهند المتحدة أو هندستان ، والامارات الهندية

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢٥ (أكتوبر ١٩٤٧) .

الكثيرة التى قد ينتهى بها الأمر إلى أن تختار الاستقلال على الاندماج فى إحدى دولتى الهند الكبيرتين .

وقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نرجع إلى التاريخ ، عله أن يلقى شيئاً من الضوء على ما وراء فكرة الباكستان ودولتها الاسلامية فى الهند . ولقد دخل المسلمون أول ما دخلوا إلى الهند فى عهد الدولة الأموية ، فالدولة العباسية ؛ ولكن أولى الغزوات الواسعة النطاق إنما جاءت أيام فتوح محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، حين قامت للمسلمين دولة فى شمال غرب الهند ؛ ثم اتسع نفوذ المسلمين ونطاق ملكهم ، حتى بسطوا نفوذهم على بعض جهات بنغالة فى شمال الهند الشرقى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ وصحب ذلك انتشار الاسلام بين الهنود الأصليين . وكذلك امتدت سيطرة الحكام المسلمين إلى بعض جهات الهند الوسطى فى جوجرات والدكن وغيرهما ؛ وظهرت للمسلمين فى الهند دولة قوية فى القرون الوسطى ، لا سيا أيام المغول (موجال) ؛ وبقيت تلك الدولة قائمة حتى عام ١٨٥٧ ، عندما قضى عليها الانجليز ؛ فكانت آخر دولة هندية قاومت المستعمرين قبل أن يبسطوا سيطرتهم الكاملة على الهند . . . ولا يزال المسلمون يذكرون أنه كانت لهم دولة قائمة فى بلاد الهند قبل تسعين سنة .

و إلى جانب ذلك فان قصة استقرار الاسلام وانتشاره فى الهند لا تخلو من طرافة ، وهى ولا شك تفيد فى تفهم فكرة الباكستان وردها إلى أصولها الأولى فى الدين والاجتماع والسياسة . فالاسلام يختلف عن غيره من أديان فى أنه كثيراً ما يجمع بين أمور الدنيا وأمور الدين . وهو فى الهند بالذات قد احتفظ بصفته هذه إلى حد بعيد ، لا سيا فى الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، حيث اتصل انتشار الدين بتوسع سلطة الحاكمين من المسلمين . ومع ذلك فلم تكن تلك قصة انتشار الاسلام فى الهند كلها ؛ فهناك أمثلة معروفة تبرز أن دخول طوائف كبيرة من الهنود فى الاسلام لم يترتب على قهر أو قسر ، وإنما جاء نتيجة للنظام الاجتماعى والدينى السائد بين الهنادك ، وما انبنى عليه من وجود طوائف منبوذة ، وجدت فى اعتناق الاسلام مخرجاً مما هى فيه ، ووسيلة لأن ترفع مستواها الانسانى والاجتماعى بأن تدخل فى زمرة المسلمين الذين يتساوون فى العقيدة . وأغلب الظن أن انتشار الاسلام فى بلاد البنغال

جاء عن هذه السبيل ، فتخلصت به طوائف كثيرة كان البراهمة والهنادك يضعونها بحكم العقيدة فى مستوى اجتماعى حضيض . ويبدو أن هذه العناصر تعصبت للاسلام بعد أن اعتنقته أكثر مما تعصب له المسلمون الأصليون من الغزاة ؛ بل لعلها أن تكون قد ورثت فى دمائها روحاً هى أقرب إلى التشفى منها إلى التسامح الذى كان ينبغى أن يهديها إليه دينها الجديد . وقد يجد علماء النفس ، إن هم تعمقوا دراسة أسباب الشحناء والتنابذ بين طوائف الهند من المسلمين والهنادك ، أن روح الانتقام والتناحر قد تكون أقوى بين الهنود فى المناطق التى كان انتشار الاسلام فيها على حساب الديانات المحليـة وبين طبقات المنبوذين وأشباههم منها فى المناطق التى جاء المسلمون فيها كمجرد غزاة فرضوا سلطانهم على الأهالى ولم ينشروا عقيدتهم بين المنبوذين منهم . وقد يكون خير مثال لذلك ما نراه من قلة المشاحنات الطائفية فى إمارة حيدر آباد ، حيث الطبقة الحاكمة من المسلمين والغالبية المحكومة من الهنادك ، وذلك كله بخلاف الحال فى مناطق البنغال حيث التشاحن والتناحر لا يزال على أشده .

وهناك منطقة أخرى انتشر فيها الاسلام ، وكثر التناحر بين المسلمين وغيرهم ، هى منطقة البنجاب ، وبعض جهات الشمال الغربى . ولكن التناحر هنا يمكن رده إلى عامل آخر غير ما نراه فى البنغال ؛ ذلك أن الاسلام فى البنغال لم يجد ديانة واحدة قوية متماسكة تستطيع أن تقف فى طريقه ، فاكتسح المنطقة اكتساحاً فى خلال خمسة قرون أو ستة بعد القرن الثانى عشر الميلادى . أما فى شمال الهند الغربى فان العقائد البراهمية كانت قد انتصرت على الديانة البوذية قبل وصول الاسلام ؛ فلما جاء المسلمون وجدوا أمامهم ديانة قوية منتصرة ، وحياة روحية أبعد ما تكون عن الانحلال ؛ وبذلك كان على الاسلام أن يكافح من أجل المحافظة على كيانه وسلطانه ، حتى ليقال إن البنجاب لم تتحول إلى الاسلام فى نطاق واسع إلا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وذلك رغم قربها من موطن الاسلام ، ورغم وقوعها فى طريق الغزاة من المسلمين . ولا تزال فى هذه المنطقة ، وفى شمال الهند الغربى أقليات قوية من غير المسلمين ؛ ففى مقاطعة البنجاب لا يزيد المسلمون على ٥٧ ٪ من السكان ، والباقون من الهنادك والسيخ . بل إن

إمارة كشمير ذاتها ، وبها كثرة من المسلمين تبلغ السبعين فى المائة ، لا يزال يحكمها أمراء من غير المسلمين .

وإلى جانب ذلك كله فان هناك مناطق بالهند جاء انتشار الاسلام إليها عن طريق آخر غير طريق الفتح أو الاعتناق تخلصاً من بعض الأوضاع الاجتماعية الهندية ؛ ففى غرب الهند وجنوبها ، وعلى ساحل ملابار بصفة خاصة ، جاء انتشار الاسلام عن طريق التجارة . فقد بدأ التجار العرب والفرس يستقرون على الساحل وفى بعض موانيه ابتداء من القرن الثامن الميلادى ؛ وكانت علاقة التجار المسلمين هناك حسنة ووثيقة بالحكام الهنادك ؛ فانتشر الاسلام عن طريق المخالطة والتبشير . ولولا وصول البرتغاليين بعد عهد الاكتشافات لشمل الاسلام نسبة عظمى من سكان ساحل ملابار .

من كل هذا يتبين أن انتشار الاسلام بين الهنود ، وفى مختلف أرجاء الهند كان ظاهرة معقدة ، اختلفت الدوافع إليها من إقليم إلى إقليم . ولعل فى ذلك ما يزيد من تعقد الأحوال فى الهند ؛ بل لعل فيه ما يعكس صورة من اختلاط الأمور فى هذا العالم الهندى ، حيث تتعدد الأوضاع وتتغاير الصور وتختلف الأسباب والمظاهر ، حتى فى حالة الديانة الواحدة ، كما هى الحال بين المسلمين .

فاذا ما انتقلنا بعد هذه العجالة التاريخية إلى دولة باكستان ونشأة فكرتها أو بعث فكرة الدولة الاسلامية الحديثة فى الهند ، فاننا نلحظ أموراً جوهرية : أولها أن هذه الفكرة إنما نبتت فى إقليم شمال الهند الغربى ، وهو الوطن الروحى والعسكرى الأول بالنسبة للاسلام فى الهند ، بل هو الاقليم الذى احتك فيه الاسلام كما ذكرنا بعقائد هندية قوية مزدهرة ، فاشتبك بها فى صراع قوى لم تكن له فيه الغلبة إلا بعد كفاح طويل . ثم إن هذا الاقليم فى الوقت ذاته كان مدخلا قديماً لعناصر متتابعة جاءت إلى الهند من داخلية آسيا فى موجات متتالية ، لم تكن موجة المسلمين إلا أخراها . ولذلك فقد عاشت فى هذا القسم من الهند سلالات كثيرة من ذرية الفاتحين ؛ وهؤلاء دخلوا فى الاسلام ، أو دخلت كثرتهم فيه ، بالتدريج ؛ فأصبح المسلمون هنا ذوى تكوين جنسى ميزهم على غيرهم من سكان شمال الهند الشرقى مثلا ، حيث انزوت العناصر المستضعفة أمام موجات الغزاة ؛ أو من سكان جنوب الهند ، حيث طوردت أضعف العناصر وأقدمها وأبعدها عن التجديد والاحتكاك الثقافى بالعالم

الخارجى . لذلك كله لم يكن غريباً أن تنبعث فكرة باكستان كرسالة دينية وسياسية فى هذا الاقليم الشمالى الغربى من أقاليم الهند . . . بل قد يكون انبعاثها فى هذا الاقليم قبل غيره دليلا من دلائل القوة التى أخرجت الفكرة من حيز الخيال إلى حيز الممكن ؛ ثم لم تلبث أن جعلت منها حقيقة واقعة ، فى وقت لم يكن فيه كثير من الناس يعتقدون إمكان تحقق فكرة باكستان على هذا النحو السريع !

وثانى هذه الأمور التى يجب أن نلحظها هو أن فكرة باكستان ، كغيرها من الأفكار التى تظهر فى بلاد عريقة فى المدنية وحافلة بأحداث التاريخ كبلاد الهند ، إنما سبقت تحقيقها مرحلة من الفكر والفلسفة السياسية لدى نفر من مفكرى المسلمين فى الهند . فهى لم تنشأ كحركة شعبية ، وإنما بدأت كفكرة فلسفية سياسية ، لبى الشعب المنادى بها لأنها مست حياته الروحية حركت مشاعره العاطفية ، فاستجاب لها كما تستجيب الشعوب لما يهديها إليه قادة الفكر . وقد استندت فكرة باكستان كما نعرفها أول ما استندت إليه إلى فلسفة الشاعر الهندى محمد إقبال ؛ فقد أصدر فى خلال الحرب العالمية الأولى ديواناً يقوم الشعر فيه على فلسفة القوة ، وبعث بذلك فى نفوس المسلمين من الهنود رغبة ملحة فى أن يستعيدوا مجدهم الفائت وقوتهم الضائعة ، ودفعهم إلى أن يؤمنوا بأنه لا سبيل إلى تحقيق الأحلام إلا إذا استيقظ النائم وسعى القائم ، وخرج الناس من حيز الفكر إلى حيز العمل . . . والعمل القوى الفعال ! ثم تبع إقبال الزعيم رحمت على ، فأعرب بطريقة أوضح عن آمال المسلمين فى الهند وأمانيهم ، وقال فى عام ١٩٣٣ بضرورة إنشاء دولة إسلامية كبرى تسمى « باكستان » وتأتلف من ولايات خمس فى شمال الهند الغربى هى بنجاب والولاية الشمالية الغربية (ويسمى سكانها أفغان) وكشمير (وهى إمارة) والسند وبلوخستان [١] . كما يجوز أن تنشأ على نمطها أو أن تنضم إليها دولة « بانجسلام » وهى بنغالة وأسام ودولة « عثمانستان » وهى حيدر آباد والدكن ؛ ومع ذلك فان آراء رحمت على كان ينقصها التبلور والتحديد العملى من بعض

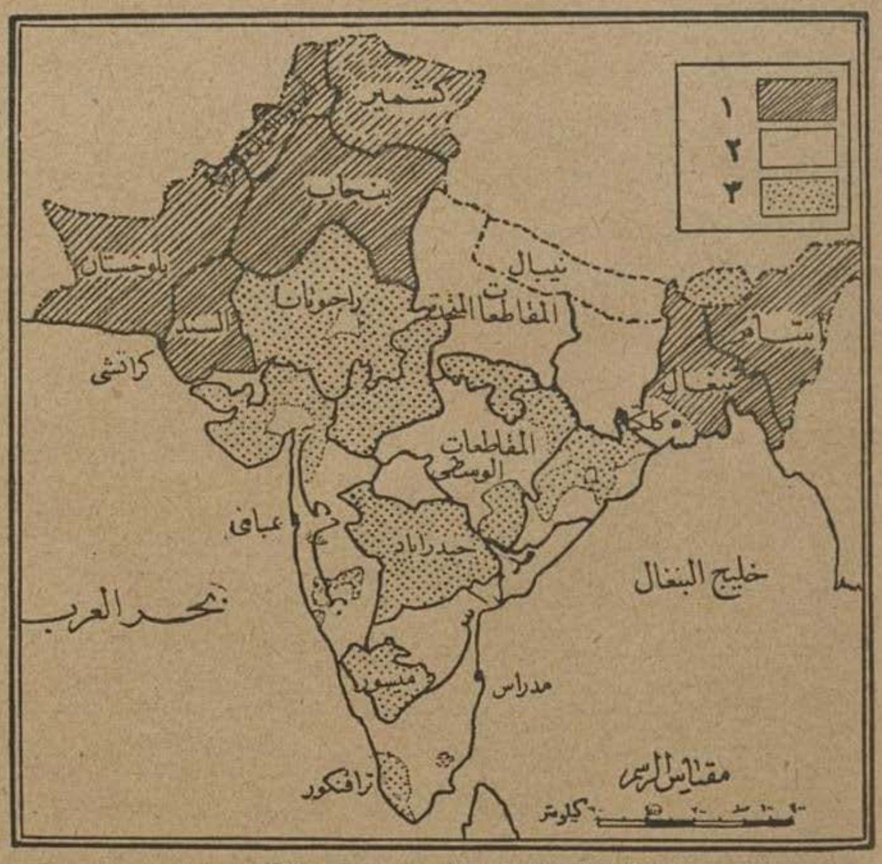
(١) إذا أخذنا الأحرف الأولى من أسماء بنجاب وافغان وكشمير وسند والأحرف الثلاثة الأخيرة من بلوخستان خرجنا بلفظ « باكستان » . ومن الطريف أن هذا اللفظ يعنى باللغة الأوردية والفارسية « أرض الطاهرين » .

الوجوه ؛ فهو مثلا قد حاول أن يقرن ولو من بعيد بين المناطق التى تكون كثرتها من المسلمين ، كما هى حال باكستان وشرق البنغال وأسام ، وتلك التى تحكمها أقلية إسلامية ولكن كثرة أهلها من الهنادك ، مثل إمارة حيدر آباد ولذلك كله بدت آراؤه بعيدة المرام عن بعض المفكرين من المسلمين ؛ بل إن المسلمين فى جملتهم بقوا فترة من الزمن يزاوجون بين جهودهم وأمانيهم وبين جهود بقية الهنادك وأمانيهم فى مدافعة الانجليز ؛ وجاء وقت اتفقت فيه الرابطة الاسلامية ، وهى تمثل كثرة المسلمين ، مع حزب المؤتمر ، وكثرته من الهنادك . . . اتفقا على الكفاح المشترك ضد الانجليز ، والمطالبة باستقلال الهند عامة ، دون نظر إلى تقسيمها على أساس طائفى أو سياسى . حتى إذا ما جاء دستور الهند فى عام ١٩٣٥ ، وضع على أساس ديمقراطى فى ظاهره ، ولكنه ينتهى آخر الأمر بأن يبقى المسلمون فى الهند قلة تتحكم فيها كثرة دائمة من الهنادك . فالمسلمون وإن كانوا فى الهند كلها يزيدون على التسعين مليوناً ، فان الهنادك بمختلف طوائفهم يزيدون على ثلاثة أمثال ذلك العدد . فاذا فرض أن استقلت الهند الموحدة بأمورها فسيبقى المسلمون على الدوام قلة فى المجالس النيابية ، وفى الحكومة المركزية . وإن كانت لهم الكثرة فى بعض الحكومات المحلية ، وحتى إذا اقتصر الاستقلال على الهند البريطانية دون الامارات فسيكون مجموع المسلمين فى الولايات أقل من ثمانين مليوناً يقابلهم أكثر من مائتى مليون من غير المسلمين [1] ؛ وفى ذلك ما يهدد كيانهم ، ويبدلهم من استبداد الطغاة من الانجليز تحكم الكثرة الساحقة من الهنادك . لذلك كله لاح الخلاف بين الرابطة الاسلامية وحزب المؤتمر منذ عام ١٩٣٥ ؛ ثم ازدادت فى عام ١٩٣٧ عندما شرع فى تطبيق قانون استقلال ولايات الهند البريطانية . ثم جاءت الحرب فاختفى الخلاف ، ولكن ليعود فيظهر ويتجدد فى عام ١٩٤٠ ، عندما أعلنت الرابطة الاسلامية فى مؤتمر لاهور عزمها على الاستمساك إلى النهاية بميثاق باكستان ، على أن تشمل المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين فى شمال الهند الغربى وشمالها الشرقى . وما زالت الرابطة بزعامة رئيسها محمد على

(١) كان مقدراً أن يكون للمسلمين ٨٠ نائباً فى الجمعية التأسيسية الأخيرة من مجموع أعضائها ويبلغون ٣٨٩ عضواً . ولذلك قاطعت الرابطة الاسلامية تلك الجمعية .

جنة تكافح وتناضل حتى فازت باقرار ميثاقها ، وتقسيم الهند البريطانية إلى باكستان واتحاد الهند أو هندستان على نحو ما هو معروف . وتم ذلك رسميا عندما تخلت بريطانيا عن سلطاتها المحلية إلى الدولتين الجديدتين فى ١٥ أغسطس من هذا العام .

وينبغى أن يكون ملحوظاً أن مشروع التقسيم الجديد (راجع الخريطة) لا يشمل الهند كلها ؛ وإنما يشمل ما يعرف باسم الهند البريطانية ، وهى الخاضعة للحكم البريطانى المباشر . أما « إمارات » الهند (ولكل منها أمير يتمتع بالحكم الاسمى على الأقل) فقد تركتها بريطانيا عن قصد حرة تختار بين



خريطة تبين تقسيم الهنـد على النحو الآتى :

(١) باكستان [بما فيها إمارة كشمير] . — (٢) ولايات اتحاد الهند أو هندستان [وينتظر أن تنضم إليها بعض الامارات] . — (٣) الامارات الهندية ذات الاستقلال الاسمى ، ولها الحق فى الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها .

الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها والارتباط ببريطانيا بمعاهدة إن هى أرادت ذلك . . . وعدد الامارات فى الهند كبير ، ولكن من بينها عدد قليل من الامارات الكبرى ذات الشأن ؛ ومنها إمارة كشمير وهى قد اتحدت مع باكستان ، وإمارة حيدر آباد وقد اختار حاكمها المسلم أن يبقى على الحياد فيحتفظ باستقلاله ، ثم ولايات كبيرة أخرى مثل ترافنكور وغيرها ، مما لا ينتظر أن يبت فى أمره إلا بعد حين .

وباكستان فى صورتها الجديدة تشمل منطقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى . تقع الأولى فى شمال الهند الغربى ؛ وتقع الثانية فى شمالها الشرقى . وتأتلف الأولى من ولايات بنجاب وسكانها نحو ٢٨ مليوناً (ما عدا ستة ملايين فى بعض الامارات الملحقة بها) ، والسند وسكانها ٤½ ملايين ، والحدود الشمالية الغربية وسكانها ٣ ملايين ، وبلوخستان وسكانها مليون واحد ، ثم إمارة كشمير وسكانها ٤ ملايين ؛ فمجموع السكان أكثر من أربعين مليوناً تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٧٠٪ على وجه التقريب . ولكن هذه النسبة تختلف من مكان إلى مكان ؛ فهى تبلغ ٩٠٪ فى ولاية الحدود الشمالية الغربية . وتكاد تبلغ ذلك فى بعض جهات كشمير وبلوخستان ؛ ولكنها تقل فى البنجاب ذاتها إلى ٥٧٪ (يقابلهم ٢٧٪ من الهنادك فى تلك الولاية) . على أن هذه النسب كلها عرضة للتغيير لا سيما مقاطعة البنجاب ، حيث يحتمل أن تؤدى هجرة السكان وتبادلهم ، أو اقتطاع بعض أطراف تلك المقاطعة الشرقية إلى تغيير فى نسب طوائف السكان بعضهم إلى بعض .

أما باكستان الشرقية فتأتلف من بنغالة وأسام ؛ ولكنها لا تشمل المقاطعتين شمولا تاما . ففى بنغالة الغربية لا توجد كثرة من المسلمين ، فضلا عن أن كثرة سكان كلكتا ذاتها من غير المسلمين . ولذلك تقرر ألا تدخل تلك المدينة العظيمة ضمن باكستان ؛ وإنما اقتصر على المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين . ويقدر سكان باكستان الشرقية بنحو خمسة وأربعين مليوناً ، تناهز نسبة المسلمين بينهم السبعين فى المائة . فاذا ما ضممنا باكستان الشرقية إلى باكستان الغربية أصبحت جملة سكان الدولة الجديدة أكثر من ثمانين مليوناً ، بينهم نحو الستين مليوناً من المسلمين .

فدولة باكستان إذن يمكن اعتبارها — من حيث عدد السكان — دولة

كبرى . وقد كانت حجة المسلمين دائماً أنهم وإن كانوا يمثلون أقلية فى داخل الهند كلها ، فان عددهم الكبير ، وما يحتلونه من مساحة واسعة تبلغ زهاء نصف المليون من الأميال المربعة (هى مساحة شطرى باكستان) ، كل ذلك مما يسوغ قيام دولة قائمة بذاتها . وتلك ولا شك حجة لها قيمتها ووزنها ، لا سيما أننا نجد من تاريخ الاسلام والمسلمين فى الهند ما يسوغ احتفاظهم بكيانهم السياسى والقومى الخاص . وفوق ذلك فان دولة باكستان ستكون بتكوينها الجديد أكبر دولة إسلامية فى الشرق كله . ولا شك أن قيامها سيضيف قوة هائلة إلى ما يمكن أن يكون للعالم الاسلامى من شأن فى المستقبل . ومع ذلك كله فلا ينبغى أن تعمينا هذه الناحية عن استجلاء ما يكتنف قيام الدولة الجديدة من صعوبات ، بعضها طارئ سيزول مع الزمن ، وبعضها أصيل لا بد أن يبقى على الأيام . وخير لنا أن نواجه الحقائق كما هى ، وأن نكشف عن الصعوبات فى وضعها الصحيح من أن نغض الطرف عما هناك من عقبات ونقائص .

وأولى هذه العقبات والنقائص ، وربما كانت أهمها ، أن دولة باكستان تنقسم قسمين منشطرين أحدهما فى الغرب والآخر فى الشرق ، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من أرض هندستان والامارات الهندية المستقلة . وسيترتب على ذلك مشكلات كثيرة ، هى أظهر من أن تحتاج إلى تبيان ، وليس أقلها مشكلات الاتصال الاقتصادى والدفاع العسكرى ضد أخطار ، بعضها خارجى ، وبعضها الآخر ربما أتى يوماً من داخل الهند ذاتها . وستبقى باكستان منشطرة شطرين ليس بينهما « ممر » أو « دهليز » هندى ، ولا اتصال مباشر إلا بالبحر حول الهند كلها . وقد تكون باكستان قوية متماسكة من حيث المبدأ والفكرة والروح والعصبية ، ولكن جيشها وأسطولها سيبقيان على الدوام فى معسكرين متباعدين ، كما أن مواصلاتها ستبقى فى اتجاهين مختلفين ؛ ولن يكون لها مركز اقتصادى موحد ، بل إن تكوينها الاقتصادى ذاته سيكون بعيداً عن الكمال ؛ فهى غنية بمواردها وحاصلاتها الزراعية من القمح فى الغرب والأرز والقنب فى الشرق ، ولكنها أفقر من هندستان فى موارد القوة من الفحم ومساقط المياه وأدوات الصناعة الحديثة ، مما يتركز فى السواحل الغربية عند بمباى أو فى منطقة أوريسا عند جنوب البنغال الغربى . وفضلا عن ذلك فان إقليم بنغالة ذاته قد اقتطعت عاصمته وسوقه الكبرى كلكتا ، فأضيفت إلى اتحاد الهند (هندستان)

على حين بقيت أراضيه الشرقية ومزارعه الواسعة ضمن باكستان . فهذه المشكلات الاقتصادية المتنوعة تضاعف ولا شك من آثار المشكلة العسكرية فى الدفاع عن بلد مشطور كباكستان .

وستواجه باكستان نوعاً ثالثاً من المشكلات (غير المشكلات الاقتصادية والعسكرية) هو مشكل الأقليات . فالمسلمون فى باكستان لا يمثلون أكثر من سبعين فى المائة ، وبقية السكان من الهنادك والسيخ وغيرهم . ولا يمكن أن نتصور أن يكون من الميسور نقل السكان وتبادلهم بين هندستان وباكستان بحيث نخرج من الأخيرة غير المسلمين ، وننقل إليها بقية المسلمين من الهند . فالمصالح الاقتصادية والظروف المادية قد لا تجعل ذلك كله فى حيز الامكان إلا بقدر محدود . بل إننا قد رأينا أن بالهند جهات بها كثرة هندوكية تحكمها طبقة مسلمة ، وجهات أخرى بها كثرة مسلمة تحكمها طبقة من الهنادك . ولقد جربت عملية نقل السكان وتبادلهم فى نطاق ضيق ، فى حدود مئات الآلاف ، فى بعض جهات أوربا (بين اليونان وتركيا مثلا) ؛ ولكن التبادل فى نطاق عشرات الملايين ، كما هو مطلوب فى الهند ، أمر أخطر كثيراً وأصعب كثيراً ، لا سيما فى بلد تسود فيه الحزازات والمشاحنات ، ويصعب فيه الاتصال ويشق التنظيم . وقد لا تطول التجربة باخواننا الهنود فى كل من باكستان وهندستان قبل أن يستبينوا أن تبادل السكان فى الهند ليس مما يمكن تحقيقه إلا فى نطاق محدود ، وأن الصالح المتبادل يقضى بأن تحسن الأغلبية معاملة الأقلية بدلا من أن تحاول التخلص منها . . . والمستقبل وحده ، وما قد يأتى من دروس ، كفيل بأن يبرز لأبناء الهند حكمة التكافل وقيمة التكامل بين الأغلبية والأقلية فى كيان الأمم !

ونستطيع أن ندرك ضرورة التعاون بين الدولتين الحديثتين وما يقع بينهما من إمارات مستقلة إذا ما تذكرنا مرة أخرى (راجع الخريطة) أن مشروع التقسيم الجديد لا يقسم الهند إلى دولتين اثنتين ؛ وإنما يترك المجال أمام عدد كبير من الامارات لتعلن استقلالها إن هى أرادت ذلك ، ولترتبط ببريطانيا ارتباطا اقتصاديا أو عسكرياً قد يهدد من قريب أو بعيد ، ما حصلت عليه الهند من ميزة الاستقلال . وقد يكون خروج الانجليز من الهند أمراً نهائيا ؛ ولكنه قد يكون موقوتاً إلى حين ، أو إلى أن يجد البريطانيون ما يسوغ التدخل ولو على

نحو غير مباشر ، وفى صورة جديدة تختلف عن تدخلهم السابق . ولكننا حتى إن افترضنا أحسن الفروض فلن نستطيع أن نستبعد من الحساب أن باكستان ستشعر دائماً أنها دولة كبيرة فى حد ذاتها ، ولكنها على كل حال أصغر كثيراً من هندستان التى قد يبلغ عدد سكانها فى النهاية ما يقرب من ثلاثة أمثال عدد سكان باكستان . وليس عدد السكان كل شئ فى حياة الأمم بالطبع ، ولكنه قد يكون عامل إغراء بالضعف ؛ وقد تلتمس باكستان أن تستعيض عن ذلك باكتساب شعور بقية المسلمين فى هندستان إلى جانب إخوانهم فى باكستان ؛ إذ قد تحاول الاستعاضة عنه بما يضفى المسلمون فى غرب آسيا وجنوبها الشرقى على الدولة الناشئة من شعور بالعطف . ولكن الخير فى رأينا أن يكون رجال باكستان عمليين إلى القدر الذى تفرضه ظروف دولتهم الجديدة ، وما يكتنف قيامها من صعوبات لا يزالون من معالجتها فى أول الطريق وعند أسفل الدرج . وليس من شك فى أن من الخير للهند بشطريها أو أشطرها العديدة ألا تؤدى القسمة السياسية إلى قسمة فى الميول والاتجاهات الدولية ، ولا إلى إغراق فى المنازعات الطائفية التى تفتح الطريق إلى المنازعات الدولية . بل خير للهند فى مجموعها وللشرق فى جملته أن يحتفظ أبناء الهند جميعاً بنوع من الوحدة فى الغاية السياسية التى ترمى إلى التحرر من الماضى القريب ومن أعقاب الاستعمار ، فيدركوا أن تقسيم الهند إن كان مما يتسق مع مقتضيات البيئة الطبيعية ، ويتفق وتقاليد التاريخ البشرى ، كما يرضى نزعة العصبية الدينية والقومية فى تلك البلاد ، فان مصالح المادة تقتضى أن تحتفظ أجزاء الهند بنوع من الرباط فيما بينها ؛ فيقوم فى الهند على الزمن اتحاد أمم هندية ، قد لا نستطيع أن نرسم معالمه الآن ، ولكنه يكون وقاء لبلاد الهند من أن تتنازعها عوامل التمزق ، فتضيع ريح أهلها من الهنادك والمسلمين ، ولا يفيد من ذلك غير أولئك الذين يعرفون كيف يفيدون من الظروف !

الهند بلاد فسيحة كما ذكرنا فى مطلع مقالنا السابق ، تناهز مساحتها ثلث أوربا ، ويقارب عدد سكانها سكان تلك القارة ، ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ، بدونها لا تكتمل للشرق صورته المعروفة . ولقد كانت رغم انقساماتها الكثيرة مركزاً عظيما من مراكز الثقافة البشرية ، ومهداً عريقاً من مهاد

الفكر الفلسفى ؛ نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، والتى حمل أنصارها رسالتهم إلى العالم الخارجى بالبر والبحر ، كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقل عنها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله تعتبر قلب الشرق الآسيوى إلى يومنا هذا . وإنه لمن خير الانسانية جميعاً أن تحتفظ تلك البلاد العريقة بطابعها الهندى و بمكانتها التاريخية ، فلا تحول الانقسامات والحزازات وما قد تجر إليه من تناحر واضطراب دون أن تبقى الهند وحضارتها على الزمن ، ودون أن يستطيع أبناؤها — على مختلف طوائفهم — أن يساهموا فى حياة البشر وفكرهم فى قابل الأيام بمثل ما ساهم به أسلافهم فى ماضيهم الحافل العتيد .

سليمان حزين

المدينة الخالدة

سلامٌ على روما عروسِ الحواضر — بما وَرِثتْ طولَ القرون الغوابر

طوافى هنا لا فى المكان وانما — بجوف زمانٍ ذاهبِ الغور داهر

هنا حيثما انْساقَتْ خُطاى معالمٌ — تحدّث عن ماضٍ من المجد دابر

خرائبُ تَستَعدى الجلالَ على البلى — وتُزْهى بمطموسٍ من الفن داثر (١)

جواثمُ إلا أنها فى جُثومها — تَنُصّ جبيناً مُشْخَناً غيرَ صاغر (٢)

بقايا أساطينٍ فُرادى مُنيفةٌ — جِلادٌ على الأيام غيرُ خوائر (٣)

تُطل على الأنقاض حول نِصابها — وكل العلا فى نِقْضها المتناثر (٤)

لها روعةٌ فى النفس تُشعر أنها — محاريبُ ربٍّ أو قصورُ قياصر

بيوتُ عباداتٍ ودورُ سيادةٍ — ببابهما ذلت جباهُ الجبابر

لقد دثرتْ ، لم يَسْمُ ربٌّ بناءه — فأهْوى وما لاقى مُقيلاً لعاثر

سوى معبدِ الأرباب جمْعاً كأنما — أفاد القوى من سرّها المتضافر (٥)

عظيمٌ من البنيان كالطود راسخٌ — يَخِفُّ من التَّنْسيق خِفّةَ طائر

له قبّةٌ رَوْحاءُ ينفذ أوْجُها — إلى القبة الكبرى بتدبير ساحر

وثَمّةَ ألطافٌ وآثار نَعْمةٍ — شواهدُ عيشٍ رافهِ الظل ناضر

وأطلالُ حَمّامٍ عفَت عَرَصاته — وكانت عِباقاً بالطيوب العواطر (٦)

وجَفّت حِياضٌ فيه كانت رَوِيَّةً — يُساق إليها الماءُ فوق القناطر (٧)

كم ازدحمتْ أحواضُه وأريكُه — بأبناء روما المترفين السوادر

وثمة بين الرَّبْوَتَيْن بلاقعٌ — هى السُّوق كانت ندوة للتشاور (٨)

ذكرنا عليها رأىَ شيخٍ مُحَنَّكٍ — وقولَ خطيبٍ ذى شَقاشِقَ هادر

وكانت حِمى رأىٍ ومَرْقى بلاغةٍ — ورمزاً لحق الشعب عند الأباطر

وأجداثُ أقيالٍ تهيّبها البلى ... وسَبْيٌ مِسلاّتٍ جلائبَ جائر (٩)
وصِنْوٌ لأهرام الفراعين يقتدى ... بمصر، ولكن فى قوام البحاتر (١٠)
وأسوارُ آطامٍ وشُمٌّ معاقلٍ ... تَدَرَّعُ للعادى بصبرٍ مُصابر
وأعمدةٌ قد كان تمثالُ ربّها ... على رأسها سَحْبان تلك المنابر (١١)
وأقواسُ نصرٍ خلّدت جنباتها ... على الصخر ما أملى رواةُ البشائر (١٢)
لكم مرت الأجنادُ تحت عقودها ... خِفافاً بأعلام النسور الكواسر
كتائبُ جرّارٍ يَصِلُّ سلاحُها ... وترفع بالإنشاد هوج العقائر
مردّدةُ الأبواقِ تُعلن نصرَها ... وثَمَّ هتاف الشعب ملءُ الحناجر
وفى الصدر منها مركَبُ النصر عالياً ... كبرجٍ من الأبريز أفرهَ سائر (١٣)
تجرّه الأفراسُ من كلِّ مُحْضِرٍ ... لدى السبق، هملاجٍ لدى العرض خاطر (١٤)
تجلّى عليه ذو جبينٍ مكلّلٍ ... له فوق عرش العاج جِلسةُ ظافر
يروع بوجهٍ أحمر الصبغ مشرقٍ ... يُخالُ سناه وهج شمس الهواجر
وحُلّتُه من أرجوانٍ وعسجدٍ ... وزينتُه من دُمْلُجٍ وأساور
وبين يديه يَعرض النصرُ سوقَه ... غنائمَ حربٍ فى العجال المَوَاقِر (١٥)
وتمشى حفاةً فى السلاسل رُسَّفاً ... أساراه مثلَ الهَدْى صوب المجازر (١٦)
مواكب تجتاب المدينة كلها ... تطوف نواحيها طواف مُفاخِر
وتفضى — وللشكران عُقبى مطافها — ... إلى معبدٍ فى ذروة الطود كابر (١٧)
وما أنس لا أنس الملاعب شادها ... عواهلُ روما نزهةً للخواطر (١٨)
ونزهتهم فيها صراعُ عبيدهم ... وإعتاق أسراهم بحزّ المناحر
وطرحُ النصارى للسباع تشفياً ... لأرباب روما من تمرّد ثائر
ملاعبُ قد دكّ الزمانُ صروحها ... أوائلها قيد البلى كالأواخر
سوى ملعبٍ أبلى الليالى مناعةً ... وشَقَّ على أرحائهنّ الدوائر (١٩)
تعالى طباقاً آزجٌ فوق آزجٍ ... يزاحمن أبراج النجوم الزواهر (٢٠)
قد انفسحت أقطارُه وتحلّقت ... مقاصيرُه ترعى عرين القساور
إذا بثّت القمراءُ فيه ظلالها ... ورفّت به أنفاسُ هوجٍ زوافر

تخال به أبناء روما وغيدها … مهـللة تلهو بدامى المناظر
ولكن دوراً قد رعى الدهرُ عهدها … وإن عُطّلتْ فيها عتاقُ المشاعر
علتها يدُ الانسان بالمقْت والقِلى … وجبّ اختلافُ الدّين عقْد الأواصر
سباها الألى ارتادوا الدّياميس مفْزعاً … وباتوا وموتاهم ببطن مغاور (٢١)
وغادرها الدينُ الجديدُ لربّه … وبيعاته الكبرى رُكامَ محاجر (٢٢)
كنائسُ قامت للمسيح مقامها … وتاهت بقُبّاتٍ لها ومنائر (٢٣)
وجدّتْ فنونٌ طبّق الأرض صيتها … تجلّى بها فنُّ الثقات العباقر (٢٤)
فيارُبّ حيّ صوّروه تخاله … وأنفاسُه كالحيّ ملء المَساحِر
يُزاد من التّجسيم فضْل ضلاعةٍ … وروعة تأثيرٍ وفتنة فاخر
فأعْجبْ بأطياف الأساطير حيّةً … على سقفِ محرابٍ هنالك غائر (٢٥)
ويومَ عصيبٍ للحساب كأنه … حقيقةُ حسٍّ لاخداع نواظر (٢٦)
وشِبْهٍ لموسى لا محالة ناطق … بتمثاله ، بادى الجلالة آمر (٢٧)
شديدِ القُوى وافى الشّطاطِ مؤرّبٍ … له بأسُ جبّارٍ وبِنْيةُ حادر
وحقّ كليم الله فى الطّور أن يُرى … — بما دُكّ منه الطورُ — صُلْب المكاسر
عجائبُ فنّ قد أتيح لربّه … — على فضل هذى — فضلُ بانٍ وشاعر
لقد جمعوا أطراف كلّ صناعةٍ … وأوتوا على التكوين قدرة قادر
شخوصُ تماثيلٍ وبِدْعُ زخارفٍ … وإعجازُ تصويرٍ وسحرُ عمائر
على كل ميدانٍ وفى كل مفْرقٍ … تقوم الدُّمىَ فى حفْلها المتكاثر
وتنْثر هُولاتُ الفساقىّ ماءها … بتصْنيع مُفْتنّ وصنعة ماهر (٢٨)
أضافوا إلى غُرّ الأعاصر عصرهم … وعصرهم فى الفن زيْنُ الأعاصر
كذا أنت يا روما جماعُ ذخائر … وتاريخُ أكوانٍ وسِفرُ مآثر
كذا أنت أمٌّ للحضارات تنطوى … حضارةُ ماضٍ فى حضارة حاضر (٢٩)
وردتك مشتاقاً إلى الفن ظامئاً … وعدتُ على شوق بنغْبة طائر
سجلّك مسْجورٌ وفنّك باذخٌ … عميقٌ ؛ فما توفيكِ زوْرةُ زائر
تلبّثتُ لو أنى وزوجى هُهنا … ولكن زوجى فى عقالِ المقابر

ضجيعة أرضٍ طاول النجم مجدُها ... وأنت جنينٌ فى غيوب المقادر (٣٠)

لقد طفتُ يا روما ربوعك موحداً ... فياحسنها لو كان زوجى مجاورى

أرانى على الأطلال أطول وقفةً ... وأمعن تسريحاً لفكرى وناظرى

أراعى إلى قدس المعابد أصبحت ... مدارج أقدامٍ ومجرى حوافر

وأربابُها صرعى التماثيل ضيَّعٌ ... وكانت ترجَّى فى الخطوب الكبائر

وأحنو على آى الجمال تناثرت ... حصًى أو بقايا فى ضمان الجبائر

رسومك يا روما القديمة عِبْرةٌ ... لأرمل ملتاع الجوانح عابر

مصارعُ مجدٍ شامخ الشأو نادر ... ومدفنُ حسن معجز الصنع باهر

تأسيتُ يا روما بهذى جميعها ... وإن تك أوثاناً بمحراب كافر

تأسيت بالأرباب لاتت حتوفها ... ولم تنجُ من سهم الردى المتواتر

تأسيت يا روما ولو بعض ساعة ... فلستُ على رغم الهوى بمكابر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) تستعديه : تستعين به وتستنصره .

(٢) تنص : ترفع .

(٣) الأساطين : الأعمدة .

(٤) نصابها : أى قاعدتها التى تقوم عليها .

(٥) معبد الأرباب جمعاً : البانثيون Pantheon ومعناه كما تقدم « معبد جميع الآلهة » . وكان بناؤه بأمر الامبراطور الرومانى أجريبا فى أواخر العهد الوثنى ولا يزال حتى اليوم موفور الكيان قائم الأركان .

(٦) كثرت هذه الحمامات فى عهد الأباطرة وأشهرها حمامات كاراكالا .

(٧) قناطر الماء : قنوات فوق حنايا يساق عليها الماء إلى المدينة من العيون الدافقة فى التلال القريبة . ويبلغ ارتفاع بعض هذه القناطر نحو مائة قدم ويزيد طولها على ستين ألف متر .

(٨) الربوتان هما ربوة البالاتين وربوة الكابتول (من التلال السبعة التى تقوم عليها مدينة روما) وكانت بينهما السوق العامة الرومانية وهى مركز الحياة الاجتماعية والسياسية قديماً . وقد استجد الأباطرة بعدها أسواقاً مثلها ، وكان آخر هذه الأسواق سوق تراجان بين ربوة الكابتول وربوة الكويرينال .

(٩) تذكر من الأجداث ضريح أدريان وهو أسطوانى الشكل على قاعدة مربعة وكان بناؤه بأمر الامبراطور سنة ١٣٥ قبل الميلاد ليكون مدفناً له ولمن يخلفه ، ويعرف الضريح الآن باسم صرح سان أنجلو Castel Sant' Angelo . والمسلات التى سباها الرومان هى المسلات المصرية التى نقلها أباطرتهم إلى روما وهى قطعة واحدة من الصوان ، ومنها المسلة القائمة فى ميدان الشعب وارتفاعها فوق الثلاثة والعشرين متراً . وكذلك المسلة القائمة فى ميدان كنيسة بطرس وارتفاعها أربعة وعشرون متراً . وكانت هذه وتلك قائمتين بمعبد الشمس فى هليوبوليس . وفى روما مسلات أخرى من صنع الرومان محاكاة للمسلة المصرية ولكنها دونها ولا تبلغ فى الارتفاع مبالغها .

(١٠) الهرم المشار إليه هرم كايوس تشتيوس Caius Cestius من الرؤساء الرومان وكانت وفاته سنة ٤٣ قبل الميلاد ولا يزيد ارتفاع هذا الهرم على ٣٧ متراً وهو بناية من الآجر يكسوها الرخام .

(١١) من هذه الأعمدة عمود الامبراطور تراجان وعمود الامبراطور مارك أوريل ، وكلاهما أقيم تذكاراً لما أحرزه هذا وذاك من النصر على الأعداء ، وكان على قمة كل عمود تمثال صاحبه . فلما صارت الغلبة للمسيحية جعل البابا مكان تراجان ومارك أوريل الامبراطورين تمثالى بطرس وبولس القديسين .

(١٢) أشهر أقواس النصر أقواس تيتوس وسيفير وقسطنطين وعليها جميعاً نقوش تمثل انتصاراتهم .

(١٣) الابريز : الذهب الخالص . الأفره : البين الفراهة وهى خفة الحركة .

(١٤) المحضر : الشديد الجرى . الهملاج : الحسن السير فى سرعة وبخترة .

(١٥) عجال : جمع عجلة وهى التى تحمل عليها الأثقال : مواقر : جمع موقر وموقرة أى مثقلة .

١٦) الهدى : ما أهدى إلى الحرم من النعم لنحره . وكان الأسرى يقتلون فى مطبق تحت المعبد عقب انتهاء الموكب .

(١٧) هو معبد على صخرة الكابتول ويعرف بمعبد جوبيتر الكابتولى حامى روما .

(١٨) كثرت هذه الملاعب فى الدولة الرومانية ، وهى أميل إلى الشكل الاهليلجى منها إلى الاستدارة . والملعب ساحة تسمى بالعرين Arena حولها المدرجات . وأهم ما كان يعرض فى العرين صراع المجالدين Gladiator فيما بين بعضهم وبعض أو فيما بينهم وبين السباع .

(١٩) هو الملعب الفلاقى المعروف بالكولوسيوم Colosseum وقد شرع فى بنائه الامبراطور فسبازيان فى سنة ٧٢ ميلادية ، وأتمه خلفه تيتوس وافتتحه عام ٨٠ ويتسع هذا الملعب لنحو خمسين ألف من النظارة ولا تزال معالمه قائمة .

(٢٠) الآزج : جمع أزج وهو البيت يبنى طولا .

(٢١) الديامبس : جمع ديماس وهو الحفير تحت الأرض . والديامبس فى روما كثيرة ، وهى سراديب اتخذها النصارى مدافن لموتاهم ، وكانوا يوغلون فى حفرها أطباقاً تحت أطباق لنلاء الأرض عليهم فى ذلك الحين ، وكانوا يحفرون فى جانبى كل سرداب لحود الموتى . ولما

كان الرومان يرعون حرمة الموتى فقد التجأ النصارى إلى هذه الداميس أثناء اضطهادهم فى القرن الثالث الميلادى لاحياء دينهم فى غياباتها .

(٢٢) الدين الجديد أى النصرانية . البيعات جمع بيعة وهى الكنيسة .

(٢٣) الكنائس فى روما لا يحصيها العد ، ولا غرو فهى كرسى البابوية والعاصمة الكبرى للمسيحية . وأعظم هذه الكنائس كنيسة القديس بطرس ، وتعد قبتها أعظم ما أخرجه فن العمارة فى عهد التجديد وهى من تدبير الفنان الأشهر ميكائيل أنجلو ، ولعل أجمل ما فى الكنيسة تمثال الورع للفنان نفسه .

(٢٤) من هذه الفنون الجديدة التصوير بالزيت ويمتاز بسرعة جفافه . وقد جعلوا فى مبدأ أمرهم يصورون بالزيت على لوحات الخشب (ومن ثمة تسميتهم الصورة باللوحة) ثم عدلوا إلى القماش . وكان التصوير قبل ذلك بالألوان المحلولة فى الماء أو فى مح البيض أو فى الشمع ، ويعرف التصوير القديم بالتصوير الطرى Affresco لأنه لا يكون إلا على سطح مجصص لم يجف طلاؤه بعد . ويضاف إلى ذلك عناية المتأخرين بدراسة نظرية المنظور الهندسى ومراعاتها فى التصوير .

(٢٥) ذلك المحراب أمر ببنائه البابا سستو الرابع Sisto IV ويعرف بالمحراب السستينى Cappella Sistina وعلى سقفه تهاويل لميكائيل أنجلو تمثل روائعها أساطير من التوراة من سفر التكوين .

(٢٦) صورة يوم الحساب الأخير على جدار المذبح فى صدر المحراب من تصوير الفنان نفسه وقد استوحاها من أوصاف دانتى أعظم شعراء الطليان للجحيم فى الكوميديا الالهية .

(٢٧) هذا التمثال من صنع الفنان نفسه وهو موجود بكنيسة القديس بطرس المكبل بالحديد San Pietro in Vincoli .

(٢٨) الهولات جمع هولة : كل ما كان غريب الخلقة . وهى تشير هنا إلى ما يزين الفساق من تماثيل غريبة الخلقة كالجيلان (نصفه إنسان ونصفه سمك) وكأفراس الماء وجراذن الماء وغيرها من الحيوانات الخرافية وآلهة البحر فى الأساطير الوثنية .

(٢٩) كانت لايطاليا زعامة الحضارة مرتين : أولاهما قبل المسيحية فى العهد الرومانى القديم ، والأخرى بعدها فى عصر النهضة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

(٣٠) إشارة إلى مصر وحضارتها أقدم الحضارات .

كليوباترا من أعف نساء عصرها

« إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »

قرآن كريم

بعد وفاة العاهل العظيم الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م. تمزقت أوصال إمبراطوريته ، وقسمت بين عظماء رجال دولته وقواده ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس أحد قواده الذى اشتهر بالقوة وسداد الرأى مما ساعده على تأسيس دولة عظيمة فى مصر أعادت لها بعض مجدها الغابر . وقد سار على نهجه بعض أخلافه المباشرين ، إلى أن قطعت مصر فى فتوحها شوطاً بعيداً حتى أصبحت أقوى دولة فى العالم مدة فترة وجيزة . غير أن فتوة ملوك هذه الأسرة لم تلبث أن تسرب إليها الوهن ، ودبت فيها عوامل الانحلال والترف والخلاعة مما قرب أجل أفول نجمهم وضياع ملكهم جملة على يد فاتحين أقوياء . فلا غرابة إذاً أن نرى عند تولية كليوباترا السادسة وأخيها بطليموس الثانى عشر ملك البلاد عام ٥١ ق.م. أن سلطان هذه الأسرة أصبح على شفا جرف هار ، وأن نهايتها صارت محتومة . وقد كان بطليموس الملقب بالزمار والد كليوباترا يحس بدنو أجل دولته قبل وفاته ؛ لذلك أوصى فى وثيقة مختومة حفظت فى مأمن فى حيازة الجمهورية الرومانية أن يخلفه على عرش البلاد ابنته كليوباترا بالاشتراك مع أكبر أخواتها جرياً على تقاليد هذه الأسرة الموروثة . وقد كان أخوها الذى سمى فيما بعد بطليموس الثانى عشر حدثاً فى العاشرة من عمره . غير أن هذه الوصية لم ترق عندما أعلنت فى نظر كليوباترا ، ولكنها لم تحاول أن تخفى ما يجيش فى صدرها من طموح للاستئثار بعرش البلاد دون شريك لها . بيد أن الأحوال الداخلية لم تكن مهيأة لتحقيق مطمحها ؛ إذ كان لهذا الملك الطفل أنصار

أشداء يرون أن توليته العرش واجبة . ونخص بالذكر منهم الخصى بثنتس الذى كان صاحب القول الفصل فى البلاط ، ويساعده على ذلك قائد الجيش أخلاس . ثم مربى بطليموس نفسه ثيودوتس . فلما أحس هذا الثالوث بأطماع كليوباترا أخذوا يدبرون لكبح جماحها والحد من طموحها حتى نجحوا فى إثارة شعور أهل الاسكندرية بالتألب عليها . ولما لم تجد لنفسها نصيراً قويا أمام هؤلاء الثوار أزمعت الفرار إلى سوريا حيث جندت جيشاً هناك وسارت به لمحاربة جيش أخيها فى مصر ، فاعترضها جيش أخيها على الحدود الشرقية عند بلزيوم وحال دون تقدمها داخل البلاد .

وفى خلال تلك الفترة الرهيبة من تاريخ البلاد كانت الحروب الأهلية فى الجمهورية الرومانية قائمة على قدم وساق بين يليوس قيصر و بمبى . وقد انتهت بهزيمة الأخير فى مصر وقتله بالقرب من بلزيوم على يد أتباع بطليموس الثانى عشر أخى كليوباترا . وفى هذه الفترة كان يليوس قيصر قد حضر إلى الاسكندرية مقتفياً أثر بمبى . ولما كان قيصر يعد نفسه ممثل الجمهورية الرومانية التى وضع بطليموس الزمار فى حيازتها وصيته على اعتلاء عرش مصر ، فانه ادعى لنفسه حق طلب كليوباترا وأخيها للحضور أمامه ، وأجبرهما على تسريح جيشيهما والخضوع لما يقضى به هو فى هذا النزاع القائم على ولاية عرش مصر . فلبى بطليموس نداء قيصر وعاد إلى الاسكندرية دون أن يسرح جيشه الذى تركه مرابطاً فى بلزيوم ليعوق عودة كليوباترا إلى مصر .

أما كليوباترا فكانت على يقين من أنها ستقتل على يد أنصار أخيها إذا هى حضرت جهاراً إلى قيصر ، فعقدت العزم أن تجعل قيصر يصغى إلى روايتها فى ذلك النزاع ؛ لذلك عادت سرا على متن سفينة إلى الاسكندرية لا يرافقها إلا تابع واحد وثقت باخلاصه لها . فلما وصلت إلى مقر الملك احتالت فى الوصول إلى حجرة قيصر فى قصره ، فأمرت أن تلف فى بساط ناعم حمله تابعها الأمين على كتفه ، واقتحم به أبواب القصر موهماً الحراس أنه قد جاء يحمل هدية لقيصر ، وقد أفلح التدبير . ولم تكد عين قيصر تقع عليها حتى أسره جمال تلك الملكة الفتية ، وأعجبته مغامرتها وجرأتها المنقطعة النظير . وقد كان قيصر صاحب شهرة ذائعة فى استهواء النساء ، والميل

اليهن ، فانحاز إلى جانبها وأخذ يناصرها ، ومن ثم بدأت القصة الغرامية المشهورة بين قيصر وكليوباترا. وتدل الآثار المصرية أنه قد تزوج بها على حسب التقاليد الفرعونية . وبعد ولادة ابنهما قيصرون تبعت كليوباترا زوجها قيصر إلى روما حيث مكثت بها إلى أن قتل زوجها عام ٤٤ ق.م. وعندئذ لم تر بدا من العودة إلى مصر على جناح السرعة .

وقد كان موت قيصر سبباً فى قيام حرب أهلية أخرى فى روما ؛ إذ طالب أنطونيو وأكتافيان بدم قيصر من قتلته بروتس وكاسيوس ومن اشترك معهما . ومن الغريب أن كليوباترا قد لزمت الحياد خلال هذا الشجار الذى نشب فى روما فلم تمد يد المساعدة لأحد الفريقين . ولكن أنطونيو عندما تغلب على أعدائه وأصبح المسيطر على كل الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، لم يغفر لكليوباترا حيادها . ولذلك دعاها للحضور بين يديه فى طرسوس لتسوغ موقف الحياد الذى التزمته أثناء حروبه انتقاماً لزوجها قيصر .

على أنه كان فى مقدور كليوباترا أن تعصى أمره ، وبذلك كان عليها أن تتحمل ما سيحيق ببلادها من خراب ، وما ينالها هى نفسها من مذلة وهوان ، فآثرت أن تذهب إليه بجيش أعظم خطراً وأشد بأساً من جحافله يجعله يضع سلاحه أمامها صاغراً مستضعناً مهزوماً ، فسارت إليه وفى وجهها ولسانها وعقلها تلك الأسلحة الفتاكة التى وهبتها لها الطبيعة . وكأن الشاعر العربى قد عناهما بقوله :

وغزانا بقامة وبعـــين فذى سيافة وذى طعانه

امتطت كليوباترا متن سفينة زينتها بأفخم أثاث ، وحلتها بأبهى الرياش ، وجلست فى وسطها على عرش فى صورة أفروديت ربة الجمال تحيط بها الجوارى الكنس فى صور ملائكة البحر ، وسارت بها السفينة حتى وصلت إلى طرسوس. وقد كانت أول أحبولة نصبتها لأنطونيو وأول سهم رمت به فى صميمه أن دعته إلى وليمة على ظهر سفينتها ، فكان انتصارها فى هذا الحفل مبيناً حاسما ، وأصبحت منذ تلك اللحظة معبودة أنطونيو وهدف حياته ومعقد آماله . ولم يلبث بعد هذه المقابلة إلا قليلا حتى أصبح لها زوجاً شرعيا . وبذلك نجحت كليوباترا فى درء الخطر عن الكنانة . وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة أنطونيو وكليوباترا تلك

القصة العالمية التي غطت على قصتها مع قيصر ، وقد ختمت بموتهما فى أحضان الحب الزوجى الطاهر عام ٣٠ ق.م ، بعد هزيمتهما فى موقعة اكتيوم . ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية التي عثرنا عليها حتى الآن أن اسم كليوباترا قد قرن باسم أى رجل آخر غير اسمى قيصر وأنطونيو ، وقد تزوجت بهما على التوالى كما وضحنا .

والواقع أنها قد عاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها .

والآن نسائل : كيف حدث أن سميت باسم المومس الملكية والخليعة الشرقية التي عاشت عيشة الفسق والفجور؟

مطاعن كيلوباترا فى التاريخ

اعتاد الكتاب القدامى والمحدثون على السواء أن يصوروا لنا كليوباترا بصورة امرأة شرقية فاتنة نزاعة للشهوات ، ذات سمرة جميلة تفوق النمر فى قسوتها ، وتختال فى حلل ملكية مصرية ذات بهاء ونضرة . وكذلك مثلوها فى صورة امرأة تحكمت فيها شهوتها البهيمية ، لا تؤثر أحداً على نفسها ، تتخطف الرجال وتودى بحياتهم بعد أن تقضى منهم وطرها . وقصوا علينا أنها لوثت شرف رجلين شريفين من أعلام رجال روما وقادتهما للهلاك ، وهما قيصر وأنطونيو .

والواقع أننا عندما ننخل البراهين التاريخية التي ادعاها أولئك الكتاب فان هذه الصورة المزعجة التي مثلت لنا فيها كليوباترا لا تلبث أن تتضاءل وتتلاشى وتذهب جفاء ، ولا يمكث لنا منها إلا صورة أخرى تختلف اختلافاً بيناً عن التي رسمها أولئك الكتاب ذوو الأهواء .

فأول افتراء على كليوباترا أنها كانت امرأة مصرية لحماً ودماً . والواقع أنه لم تجر فى عروقها نقطة واحدة من الدم المصرى ، بل هى من نسل أسرة شريفة من مقدونيا ؛ فهى إذاً مقدونية المنبت ، إغريقية الأصل .

وليس لدينا وصف مفصل عن منظرها ، ولكن إذا قسناها بأترابها من بنات جنسها فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء ، ويحتمل أنها كانت زرقاء

العينين ، ذهبية الشعر . ويستنبط من ملامح الرأس الموجود بالمتحف البريطانى — إذا كان حقيقة هو رأسها كما يقال — أنها كانت ذات شخصية تمتاز بالرقة والتهذيب ، لا تنم عن جمال فاتن ولكنها وديعة خلابة . ويقص علينا بلوتارخ الذى استقى معلوماته عنها من طبيبها الخاص أولمبياس أن جمالها فى ذاته لم يكن خارقاً للمألوف إلى حد أن يجتذب نظر من يشاهدها . وفى اعتقاده أن أوكتافيا زوج أنطونيو التى أصبحت فيما بعد منافسة لكليوباترا كانت أجمل المرأتين . والواقع أن هذا كان رأى كل من شاهدها ؛ فقد قال عنها ديو كاسيوس : « لقد كان من أسباب المتعة والنعيم أن تراها أو تستمع إلى حديثها ، فقد كان لها سحر تغزو به القلوب التى غالبت نفوذ كل حب بقوة وبأس شديد حتى تلك القلوب التى أطفأت فيها الشيخوخة نار الحب وحولتها ثلجاً . »

قلنا إنها قد حملت إلى قيصر ملفوفة فى بساط على كتف مخلص من خلصائها . ولا شك أن ذلك يشعر بأنها كانت امرأة صغيرة الجسم رشيقته ، وهذا ما ينم عنه رأسها الذى سبق أن أشرنا إليه إن كان ينسب إليها حقيقة .

ويقال إن موسيقى صوتها الخلاب كان أمضى أسلحتها فتكاً وإغراء . ويروى لنا بلوتارخ : « أن من نادمها كان يفتنه سحرها الذى لا يقاوم ، وأن صورتها وحديثها يأخذان بمجامع القلوب ، وأن شخصيتها الفذة كانت تنبعث فى كل تصرفاتها ، وكل تلك الميزات كانت تحدث فى نفس جليسها حرارة لاذعة لا تنبعث من سواها . » ويقول عنها ديو كاسيوس : « إن سحر حديثها كان يستعبد كل من استمع إليها . »

أما عن مزاجها فالظاهر أنها كانت ميالة إلى المرح سريعة الاندفاع ، مغرمة بالمجتمع البهج ، هذا إلى ميلها إلى الفكاهة والمداعبة البريئة . غير أنها عند ما يدعو داعى الجد تظهر مظهر الملك يكسوها جلاله وتحفها عظمته . وقد ذكر عنها كل من المؤرخين بلينى وكسيوس أنها كانت مستخفة بالناس متكبرة ، ولكن هذا رأى عدوين ؛ إذ قد تفسر هذه الكبرياء من جانب كليوباترا بأنها عند ما كانت فى روما كان لزاماً عليها أن تحفظ كرامتها فى بلد تحس من أهله العداء لها ، فتظهر من الكبرياء ما يحفظ قيمتها وشخصيتها . والأمر الذى يسترعى النظر فى حياة كليوباترا أنها قبل أن تتصل بقيصر الذى كان سبباً فى عداوة الرومان لها لم تسمع عنها كلمة سوء تمس شرفها رغم

ما كان لها من أعداء ألداء فى ميدانى المجتمع والسياسة . وقد كانت تعيش فى الاسكندرية ذلك البلد الذى كان غوغاؤه مغرمين بهجاء الشخصيات البارزة فيه عندما كان يظهر فى خلقهم أى مغمز للنقد والتجريح .

وأخيراً كانت كليوباترا تعد بالنسبة إلى عصرها امرأة نالت من الثقافة حظا وافراً . والواقع أن معظم أسلافها من البطالمة كان من هواة الفنون والمشجعين لها ، وقد سارت كليوباترا على نهج أسلافها . هذا فضلا عن أنها قد وصلت بذكائها إلى حذق عدة لغات ؛ لذا لم تكن فى غالب الأحيان فى حاجة إلى مترجم عند مخاطبتها الأجانب . يضاف إلى ذلك أنها كانت الوحيدة بين أفراد أسرتها التى تعلمت اللغة المصرية القديمة ، كما كانت مولعة بالسياسة وفنون الحكم . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان حلم حياتها ومعقد آمالها أن يمتد سلطان بلدها الضيق وتصبح إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف .

والشائع عن كليوباترا أنها قد دبرت إيقاع يليوس قيصر العظيم فى أحابيلها ، وهو الذى يقول عنه أعداؤها إنه بطل شريف ، وإنه لم يكن له حول ولا طول أمام سحرها الخبيث . بيد أننا إذا نظرنا فى الأمر بالعين المجردة من العاطفة والتحيز وجدنا أن قيصراً هذا كان له فى صباه سمعة تخدش الآذان إلى حد بعيد ؛ فقد كان وهو أمرد يلقب فى عاصمة ملكه بلقب ملكة روما . ولما اكتهل انقلب إلى زير نساء ، وناهض الملك الضليل فى اصطياد النساء وإغرائهن ، حتى لقد كان جنوده أنفسهم يتغنون علانية بأغان خلقية شائنة عن فتوح قائدهم فى مضمار الحب . ولا نزاع فى أن شهرته كانت معروفة تمام المعرفة لكليوباترا الفتية التى كان يحتمل جدا أنها كانت طوال شبابها بريئة طاهرة الذيل ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت لا تجهل الحياة وما تنطوى عليها من مغامرات قد تفلح وقد تخيب . ولهذا اعتمدت كليوباترا على صدق كل ما قيل عن قيصر ، وجازفت لاجتذاب هذا الدكتاتور العظيم إلى جانبها ليكون لها معيناً ونصيراً للوصول إلى مآربها ، فاستعملت الحيلة الجريئة التى ذكرناها لتصل إلى حجرته الخاصة . ولقد أفلحت كل تدابيرها ؛ إذ نرى قيصر بعد مقابلتها قد انضم إلى جانبها ، ومن ثم أصبحت كليوباترا فى أعين الرومان حظية قيصر وحسب ، ولكن فى مصر التى كانت تجرى فيها كل الحوادث كان الأمر على العكس من ذلك ؛ لأنه منذ

العهد الفرعونى كان من الجائز أن يتزوج رجل عظيم لا يجرى فى عروقه الدم الملكى بوريثة الملك المصرية ، وبذلك يصبح ملكاً شرعيا على البلاد يرثه أولاده من بعده . وهذا نفس ما حدث مع قيصر وكليوباترا ؛ فقد تزوجا ، وأصبح ابنهما قيصرون الوريث لعرش رع الذى كان يعتبر أول ملك حكم مصر فى العهود السحيقة . ولذلك كان يعد زواج كليوباترا من قيصر فى عين الشعب المصرى وفى عينها زواجاً شرعيا ، وأن ابنهما قيصرون هو وارث عرش مصر بعدهما . ولكن الأمر فى روما حيث تبعت كليوباترا قيصراً كان على نقيض ذلك ، إذ كانت تعتبر حظية قيصر وأن ابنها ابن سفاح . وقد كان الشعب الرومانى بما جبل عليه من كبرياء وغطرسة يحتقر كليوباترا لأنها شرقية مع أنها ليست شرقية المنبت كما أسلفنا .

ولما كان هذا الشعب يخشى أن يتخذها قيصر زوجته الشرعية لم يأل جهداً فى نشر كل رذيلة وفرية عنها بما يلطخ سمعتها ، كما كانوا يقذفونها بكل ما يجرح شرفها ويدنس عرضها .

على أن الرومان أنفسهم فى ذلك العهد كانوا أكثر الناس خلاعة وفسقاً ومجوناً وعصياناً ؛ فكان نساؤهم ورجالهم يتورطون فى مناكب الفجور وينغمسون فى ضلال الفسق ، تلك الأمور كانت تعتبر شعارهم السائد . ولهذا كان قواد الرومان من علية القوم فى الواقع آخر من يشير بأصبع الاحتقار إلى كليوباترا. ومع كل هذه الضجة وهذا الصياح ضد هذه الملكة لم يكن هناك مثقال ذرة من الحق يبرهن أن كليوباترا خلال حياتها مع قيصر قد انحرفت عن الصراط السوى فى معاملتها له ، بل كانت مثال المرأة المخلصة لزوجها ، الرءوم على طفلها . والمرجح أن قيصراً لو امتد به الأجل لتزوج من كليوباترا وفقاً للشريعة الرومانية ، وذلك ليوطد بهذه الرابطة التى كان ينتظر من ورائها فى المستقبل فرصة الاستفادة من زوجة مطيعة طموح ، ومن مصر السلسة القياد ليثب إلى تكوين إمبراطورية شرقية تكون الهند آخر حدودها . ولانزاع أن كليوباترا التى كانت تتقد فى نفسها نار أطماع زوجها رأت من جانبها ما تخيلته من الامبراطورية الموحدة الشاسعة الأرجاء تحت سلطان مصر وروما معاً ، وأن تلك الامبراطورية ستصير إرثاً عظيما لولدها المحبوب .

والواقع أنه حتى على أثر مأساة قيصر وفرار كليوباترا إلى مصر على عجل

لم تجد ألسنة الهجاء كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة التى انقضت بين هربها ومقابلتها لأنطونيو . على أنه لابد من الاعتراف هنا أن كليوباترا قد دبرت نصب أحابيلها لصيد أنطونيو ؛ ومع كل ذلك فان مقاصدها لم تكن مقاصد امرأة تقودها شهوتها ؛ إذ كانت ترقب عن كثب سير الحروب الداخلية التى نشبت بين أنطونيو وأكتافيان ، وبين بروتس وكاسيس . ولكنها على غير المنتظر لازمت خطة الحياد أثناء هذا الشجار الذى لم يكن لمصر فيه علاقة مباشرة ، وكانت كليوباترا تعلم ما عليه روما من قوة وبطش ، وتحس بالعواقب الوخيمة التى ربما أصابت بلادها إذا هى انحازت إلى جانب الفريق الذى تدور الدائرة عليه . هذا مع علمها أن الحرب قامت من أجل زوجها المقتول .

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب إليها أنطونيو أن تبرز أمامه موقفها الذى اتخذته حياله فى هذه الحروب . ولما كانت هى تعلم وقتئذ أن مصر ضعيفة الشوكة لا تجرؤ على مقابلة العدوان بمثله لجأت إلى استعمال الحيلة لتخلص مصر من هذا المأزق الحرج ، وبخاصة بعد أن عرفت الكثير من مزاج أنطونيو وطباعه ، وما اشتهر به من معاقرته الخمر ، وغرامه بالنساء ، وحبه الغناء . هذا فضلا عن أنها كانت فى الوقت نفسه قد حاكت فى خيالها من جديد مشروع إمبراطورية شرقية تتحكم فى العالم أجمع . ولا بد أن نلحظ من جهة أخرى أن روما كانت تنتظر الفرصة المواتية لوجود سبب أو وسيلة لاعلان الحرب على مصر للاستيلاء عليها وضمها لممتلكاتها ، وبخاصة أن مصر كانت تعد فى تلك الآونة مخزن غلال العالم ، كما كانت كليوباترا لكل تلك العوامل تعد نجاحها فى الاستيلاء على قلب أنطونيو خلاصاً لبلادها مما يضمره لها الغيب .

وكان أنطونيو رجلا يختلف اختلافاً بيناً عن قيصر فى مشاربه وأخلاقه ؛ إذ كان ألين منه مغمزاً ، ولكن ربما كان أكثر منه عاطفة فى حبه . والظاهر أنه كان رغم اكتهاله طفلا فى خلاقه . حقا أنه كان شجاعاً جسوراً موالياً لأصدقائه ، سهل القياد إلى حد أنه كان معبوداً من شعبه وجنده على السواء ، ولكن كان ينقصه مضاء عزيمة قيصر .

وحين وقفت كليوباترا على حقيقة أخلاقه دبرت أول مقابلة له فى طرسوس الواقعة على آسيا الصغرى ، فكانت موقعة فاصلة فى تاريخ حياتها . وتمت

المقابلة على ما رسمت ووقع أنطونيو فى أسر غرامها . وتدل شواهد الأحوال أن كليوباترا من جانبها قد ولهت بحب هذا الرجل الرومانى المشرق الطلعة؛ فكانت نتيجة تلك المقابلة انتصاراً عظيما لمآربها وهزيمة ساحقة لقلبها .

تبع أنطونيو كليوباترا فى عودتها إلى مصر، وحدثت أحداث ، لم تزوج منها على الشريعة المصرية ؛ غير أن هذا الزواج لم تعترف به روما إذ كان له زوج شرعيــة بها ، وهى أخت أكتــافيان وقد بقى أنطونيو مع كليوباترا فى مصر . ولا نزاع فى أن حياة الزوجين فى الاسكندرية كانت حياة ملؤها البهجة والسرور ، وشعارها المآدب الفخمة والنزه المرحــة . ومع هذه الحياة الطافحة بأنواع المسرات لم تسمع كلمة سوء فاه بها أحد تخدش سمعتها أو تثلم شرفها ، ولم يقرن اسمها بشخص آخر . وفى الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رءوماً لأطفالها الأربع الذين أنجبتهم من أنطونيو . وفى الوقت الذى أعلن فيه رسميا قيصرون بن قيصر وريثاً لعرش مصر كان أطفالها الأربعة الآخرون قد نصب كل منهم ملكاً على إقليم من أملاك روما المترامية الأطراف . أما كليوباترا نفسها فقد لقبت ملكة الملوك .

وعلى الرغم من ذكاء أنطونيو وحب الشعب له فانه لم يكن بالرجل الذى فى مقدوره أن يؤسس إمبراطورية تشمل العالم كله ؛ إذ كان على ما يظهر كلما تقدمت به السن فقد من إقدامه وجرأته . وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رجلا مخموراً لا يفيق من سكره . وفى نهاية الأمر اتسع خرق العداوة بينه وبين روما ، وبخاصة عندما طلق أخت أكتافيان مما أدى إلى حروب داخلية ، ومن ثم أخذ نجم أنطونيو يأفل . ولا بد أن تكون كليوباترا قد أحست وقتئذ بالخطر الداهم ، وشعرت أن الدائرة لا محالة ستدور عليها فى نهاية الأمر ، لا سيما أن أنطونيو قد أصبح مثله كمثل يراعة هشة لا يمكن الاعتماد عليه ، ولو كانت كليوباترا حقيقة من طراز المرأة المراوغة الخداعة ، كما وصفها أعداؤها ، لنبذت أنطونيو وتركته فريسة أعدائه عندما أحست بأول إشارة تنذر بسوء المنقلب ، ولنصبت حبائلها لتوقع فيها أوكتافيان الذى أخذ نجمه يتلألأ ويلمع . والواقع أننا نجدها وقتئذ تابعة مخلصة وفية لأنطونيو إلى أن لفظ النفس الأخير ثم إنها بعد ذلك أظهرت عليه الحزن والجزع بقلب كسير ملؤه الوفاء إلى أن لحقت به فى مثواها الأخير بعد موته بفترة وجيزة .

ويعتبر المؤرخون اغتيالها نفسها ، الذى كان على ما يرجح بنهشة ثعبان ، نهاية مشرفة نالت الاعجاب التام حتى من أوكتافيان نفسه ألد أعدائها ، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصيـة أوصت بها ، فشيعها بكل مراسيم الملك إلى جوار زوجها الوفى أنطونيو .

ومما سبق نرى أنه حينما ندرس حقائق التاريخ عن حياة هذه الملكة درساً محايداً فانها تظهر أمامنا فى صورة الزوج الطاهرة الذيل لكل من زوجيها على التوالى ، وأنها كانت أمًّا حنوناً لأبنائها الخمسة . على أن القليل الذى كتب مدحاً فيها قد سطرته أقلام كتاب محايدين ، أما ما كيل عليها من ذم وتجريح فقد خطه يراع أعدائها السياسيين المنافسين لها ، ولا سيما أهل روما الذين كانوا يمقتونها كل المقت لما كان لها من نفوذ على أعاظم حكامهم ، وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يخضع كبرياؤهم وتعصبهم حتى لتصور أنهم يحكمون بملكة شرقية .

ولم يبق أمامنا من التهم التى وصمت بها «كليوباترا» إلا تهمة القسوة والغلظة .

حقا أنها كانت ذات إقدام ، ولكن أين البراهين التى يدلى بها على أنها كانت قاسية القلب غليظة الطبع ؟

وأول تهمة شنعاء لصقت بها هى قتل أختها أرسنوى بتحريضها ؛ ولكن أرسنوى هذه كانت أول من أعلن العصيان وشق عصا الطاعة على كليوباترا وقيصر . ولما أخمد هذا العصيان وقبض على أرسنوى ، استعرضت فى شوارع روما مكبلة بالسلاسل والأغلال فى ركاب قيصر عندما دخل عاصمة الملك مظفراً . ولقد كان المتبع عند الرومان أن أمثال أرسنوى من الأسرى الملكيين ينفذ حكم القتل فيهم بعد احتفال عرض الفاتح الظفر ، غير أنه قد عفى عن هذه الأميرة وصرح لها أن تعود وتلازم إحدى المعابد المصرية . ولكن لم تنقطع عن تدبير الثورات والمكايد ضد الملك ، فقتلت بأمر من أنطونيو وبتحريض من كليوباترا .

وكذلك اتهمت بأنها دست السم لأخيها الاصغر وشريكها الأسمى الذى كان يحمل لقب بطليموس الرابع عشر ، وهو الذى رافقها فى زيارتها المنكودة إلى روما ، ويقال إنها دست السم له بعد عودتها من روما بقليل ؛ غير أنه ليس

لدينا شعاع من الحقيقة يثبت ذلك ، بل المظنون أن هنا الصبى قد وافاه أجله دون اغتيال .

حقا أن كليوباترا قد أمرت بقتل بعض من أودعوا السجن لأنهم تآمروا على اغتيالها وأثاروا الفتن والقلاقل فى ملكها . وإذا فرضنا أنها أمرت حقيقة بقتل أرسنوى التى كانت تسعى لاغتيالها وانتزاع ملكها ، فانها لم تكن أسوأ أخلاقاً من الملكة اليصابات الطيبة عاهلة انجلترا التى سجنت أختها مارى ثم قتلتها . ومع ذلك فانها لم تتهم مطلقا بحب سفك الدماء لذاته بسبب هذا الحادث .

وكذلك سجل عليها التاريخ ، كذباً كان أو صدقاً ، أنها عند ما كانت تبحث عن سم ناجع يقضى على حياتها دون آلام قد أجرت تجارب تلك السموم على مجرمين حكم عليهم بالقتل . والواقع أن هذه الطريقة لا تتفق مع المبادئ الخلقية الحديثة التى تفضل إجراء التجارب الطبية على الحيوان الضعيف الذى لم يجن إثماً ولم يقترف ذنباً ، ولكن العصر الذى عاشت فيه كليوباترا كان ينظر إلى هذه الأشياء بنظر مختلف ؛ إذ كان لا بد للمجرم المحكوم عليه بالقتل أن يموت بحال من الأحوال . لهذا كانت طريقة هذا القتل فى نظر عصرها ليست بذات بال ، ولكنها كانت على أعظم جانب من الأهمية لكليوباترا التى كانت تبحث عن طريقة تخلصها من الحياة التى أصبحت لا تحتمل بعد موت زوجها بطريقة لا تعانى بها آلاماً . هذا ولم يعز إليها ارتكاب جرائم قسوة غير ما ذكرنا إذا كان ذلك صحيحاً . على أنه من جهة أخرى كانت كليوباترا تعيش فى عصر يتشدق فيه الجم الغفير من المتعلمين بعدم وجود آلهة ، أما هى فكانت على جانب عظيم من التقى ، تعتقد اعتقاداً راسخاً بتوحيد الألوهية والملكية ؛ إذ يقال عنها إنها كانت فى مناسبات عدة ترتدى ملابس الالاهة إزيس لتمثلها على الأرض ؛ فكانت بذلك تمثل الحقوق الالهية الموروثة ، ولكنها لم تقتصد مطلقا أن تمثل القوة الالهية ؛ لأن الفراعنة القدامى كانوا يعتقدون دائماً أنهم يتقمصون صورة رع إله الشمس على الأرض ، ولذلك ظهرت كليوباترا عندما مثلت هذا الدور المصرى القديم فى نظر شعبها أنها تمثل على مسرح أو تلعب دوراً خارقاً للمعتاد .

ويمكن أن نقرر هنا أنه من المحتمل جدا أن كليوباترا لم تكن ترتدى

الملابس المصرية الحقيقية إلا فى مثل هذه المناسبات ؛ لأن اللباس الاغريقى كان الزى المتبع بين الطبقات العليا من المجتمع . وأخيراً يجب على المؤرخ عندما يفحص أخلاق أشخاص عاشوا فى الماضى أن يزنهم بميزان العصر الذى عاشوا فيه ، وأن يحكم عليهم بحسب المستوى الاجتماعى الذى عاشوا فيه لا بمستوى عصره . فاذا وضعنا كليوباترا فى كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فانها تظهر أمامنا المثل الأعلى فى الطهر والعفاف ، فلم تعدُ أن كانت زوجاً مخلصة وأمًّا رءوماً ، وإذا قسناها بغيرها ممن سبقوها ، وهم أولئك الأشخاص الذين قست قلوبهم ، وتحجرت ضمائرهم ، وارتكبوا من الآثام ما يدمى القلوب دون أن يوجه إليهم لوم أو تجريح ، فانها تعد ملكا طاهراً بريئة من كل قسوة . على أننا لو حكمنا عليها بميزان عصرنا ، وإن كان حكماً خاطئاً من الوجهة التاريخية ونجحنا من الوجهة الخلقية ، فانا سنجدها امرأة ألقى بها القدر وسط فتن عاصفة وأعاصير مهلكة ، ولم تعد أن شقت طريق الخلاص لنفسها بحزم وضبط نفس واحتشام ، وفى نهاية المطاف لاقت حتفها تحفها أبهة الملك وجلاله مما أرغمنا على الاعجاب بها كما أرغم ألد أعدائها أكتافيان الرومانى على إجلالها حتى نفذ آخر وصية أوصت بها .

هذه هى كليوباترا ملكة الملوك فى كفة الميزان كما حدثنا التاريخ المنصف لا كما تحدث عنها أعداؤها الذين خبثوا ووضعوا ، فكان حكمهم زيفاً وضلالا . « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . »

سليم حسن

فى الرحلة إلى النجف الأشرف

كنت خلال إقامتى ببغداد أتردد على دار معالى رضا الشبيبى ، فألتقى هناك أحياناً بسيد من سادات النجف هو السيد صالح شمسة وهو من أهل بيت من أقدم البيوتات وأعرقها فى النجف ، وبه ينزل سمو الوصى المعظم عند زيارته لذلك المقر الشريف . فكان يصف لى ما يمتاز به النجفيون من القدرة على ارتجال الشعر والكلف بالأدب والرواية ، وحرصهم على تخريج أولادهم بالاطلاع والقراءة ، وإغرائهم بالمطارحة وتحصيل العلوم العربية . ثم أخبرنى بمثل ذلك صديقى السيد حسين بستانة وأكد لى أنه لا بد من زيارة النجف وكربلاء والتفرج بمطالعة ما فى تلك المشاهد المقدسة من الآثار والنفائس والتيمن بقضاء الواجب من زيارة على والحسين عليهما السلام . وبعد ظهر يوم من أيام الخميس جاءنى ذلك الصديق وقال اليوم نفاجئ أهل النجف بالزيارة . ولا يسعنى أن أنسى ما ناطه ذلك الصديق الوفى بعنقى من الفضل ؛ فقد فرض حولى نطاقاً من عنايته لم يدعنى أفلت من مكرمة يسديها دائماً إلىّ بطيب نفس ووفاء لم أر مثله إلا له . وهو أحد طائفة من مثقفى البغداديين الذى تخرجوا فى دار العلوم العالية ، وما يزالون يحتفظون بهذه الذكريات الغالية لتلك الأيام التى أقاموها بمصر . ومما يستحق الذكر أنهم جميعاً ينهضون اليوم بأعباء جسام فى المصالح المختلفة بالحكومة العراقية .

خرجت مع ذلك الصديق فى طريقنا إلى النجف ، فمررنا بعد قليل ببعض روافد الفرات وهو يتدفق بالماء وعلى جانبيه زروع وبساتين ونخيل وبقاع أخرى جرداء بلاقع ، فذكرنى ذلك بما يرى فى مصر أيام فيضان النيل وما يذهب من مائه فى البحر ، وفى واديه صحارى قاحلة لا يعد ما يزرع بجانبها شيئاً يذكر . وذلك بالضرورة دليل على عجز العراق ومصر إلى الآن عن اتخاذ سياسة مائية يحتفظان معها على الأقل بنصيب مما يذهب من هذا

الغدق السائح هباء . ثم انتهينا بعد قليل إلى مدينة الحلة ، وهى من المدن القديمة فى حواضر العراق ، وإن كانت لا تزيد فى عمرانها عن بعض مراكز القطر المصرى ، فنزلنا بدار السيد خير الهنداوى ، وهو من رجال الحلة وهو شاعر أديب من الشعراء الذين لايفشون أشعارهم ، فقضينا فى ضيافته ليلة خصنا منه ومن بنيه الغرانيق الثلاثة مالا قبل لنا بشكرهم عليه من التكرمة والحفاوة . وفى صباح اليوم التالى تفرجنا بأطلال بابل ورأينا بقايا القصر الملكى القديم لبخت نصر ، ثم عدنا فتغدينا على مائدة السيد الهنداوى مع جماعة من كرام الحليين . وبعد انقضاء فترة من الحديث والمؤانسة خرجنا إلى النجف فبلغناها بعد نحو ساعتين تقريباً ، ونزلنا بدار السيد غياث بحر العلوم ، وهو شاب مهذب من رجال المحاماة يتمتع بجانب وافر من الدماثة ورقة الحاشية . ثم دعينا لزيارة جماعة الرابطة الأدبية ، وهى تشبه عندنا هذه الجماعة الناشئة التى تسمى بجماعة أدباء العروبة . غير أن الرابطة النجفية تمتاز بالجد فى العمل على تنمية المواهب المطبوعة التى لا يبعد أن تكون أثراً من آثار الوراثة المنحدرة من أصلاب بعيدة العهد لأولئك الأوائل من الشعراء المتقدمين ؛ فهم ينظمون الشعر على مناهج القدماء ويتشبهون بهم فى إحياء الديباجة العربية والعبارات المختارة . وإذا كان شاعر العراق اليوم ،وهو السيد مهدى الجواهرى كما علمت ، نجفى الأصل ، فقد حق لأهل هذه المدينة أن يتطاولوا على الناس فانه على ما أعتقد يستحق أن يدعى أشعر شعراء العربية فى هذا الوقت غير مدافع . وقد استمعنا فى هذه الرابطة إلى عدة من الخطب والأشعار تدور كلها حول الاعجاب بمصر والمباهاة بما بلغته من التقدم والمدنية ، وتتضمن مع ذلك شيئاً كثيراً من الحفاوة بنا ووصفنا بما لا نبلغه من التقدير والتكرمة تفضلا منهم وحسن ضيافة . وسنذكر من هذه القصائد والخطب ها هنا قصيدة واحدة مراعاة للاختصار ، وهى للشاعر الكبير السيد الحبوبى . قال حفظه الله فى مطلعها :

فتى النيل والنيل زاكى الثمر أذقنا الجنى أدباً مبتكر
وأنشد هنا شعرك العبقرى وخذ بمعانيه تلك الزمر
وروِّقه خمراً كما يرتجى وأرسله نثراً كما ينتظر

وما شئت فاسحر به السامعين فما كل من قال شعراً سحر
فتى النيل طف ساعة بالفرا ت تجد في مطافك أسمى العبر
تأمل مليا وسل ما ترى لتلك المعالي هنا من أثر
,تى ردت الفتح والفاتحين أكف الليالي وأيدي الغير
وكيف استباحت عرين الأسود ذئاب ولله حكم القدر

ثم يقول :

فتى النيل أحبب بها ليلة يلذ وإياك فيها السمر
تحدث وعطر فضاء الندى بأطيب مما تذيع الزهر
وخبر أنبلغ ما نشتهي فقد ينعش السامعين الخبر
أتصدق في مصر أحلامنا بضم العروبة في مؤتمر

وهي قصيدة طويلة مفرغة في مثل هذه السلاسة والرقة . وبعد انتهاء هذه الحفلة الأدبية عدنا إلى دار مضيفنا ، وهناك أقبل مشايخ النجف ولفيف من أدباء الرابطة وغيرهم ، فقضينا جانباً من الليل في سمر ومجاذبة طيبة . وفي الصباح زرنا دار منتدى النشر ، وهي جماعة أدبية أخرى تعنى مع نزعتها الأدبية بالبحوث العلمية المختلفة وتعمل لدراسة الكتب القديمة ، ويتخرج في أروقتها الطلاب بتحصيل معظم العلوم الاسلامية . وهذه الجماعات الأدبية على تعدد أسمائها تتعاون جميعاً على حماية اللغة الفصيحة والأدب المهذب من أن تنال منهما عجمة المتشاعرين والمتعاطين للأدب من غير أهله ممن لا يخلو منهم قطر من الأقطار العربية . ويتفاءل المخلصون لهذه الجماعات الأدبية أن تكون نواة صالحة لبناء جامعة كبرى في النجف الأشرف تقوم بتنظيم الدراسات الأدبية وتزويد مدارس الفلسفة الاسلامية ومذاهب الفقهاء بالمباحث الصحيحة من خلاصة العرفان المأثور للأئمة المجتهدين من أهل هذه المدينة وغيرهم من علماء العراق .

ولأدباء النجف طابع تغلب فيه النزعة الدينية . ولهم صحف ومجلات يعد في طليعتها مجلتا « الاعتدال » و « البيان » لصاحبيهما الأستاذ البلاغي و الخاقاني وكلاهما من الكتاب البارزين ، وهما يخدمان النهضة الأدبية والعلمية ويضحيان في سبيلها بالقلم والمال .

ولقد كان يرافقنا فى كل انتقالاتنا السيد هاشم رزين حاكم النجف، وهو رجل كريم الخلق جهير ضاحك الثغر صحبنا فى الصباح الثانى إلى روضة الامام أبى الحسن على بن أبى طالب . وبعد أن طفنا بهذه الحضرة العلوية وقضينا نسكنا منها عدنا إلى خزائن النفائس والجوهرات الخاصة بهذه السدة الشريفة، فرأينا ما يبهر الأبصار ويحير العقول من الستائر المنسوجة باللؤلؤ والجوهر وغيرها من نفائس الأحجار ، وهن أربع ستائر لا أظن أن أحداً ولا هيئة من الناس تستطيع تقويمها بالمال الآن ، ثم رأينا غيرها من الستائر المنسوجة بالماس على شكل الكمثراة والقنديل الضخم المصنوع من صفائح الذهب المحلاة بألوان من الأحجار الكريمة . وبعد أن قضينا من ذلك وطراً عدنا فطفنا حول هذه الأضرحة المتزينة بالقباب الموشاة بالذهب . ثم قضينا سائر اليوم فى تزاور ومطالعة ، وخرجنا مودعين من أهل النجف إلى كربلاء ، بعد أن تغدينا ومعنا جماعة الرابطة والأساتذة المصريون وغيرهم فى دار السيد صالح شمسة ولقينا من حفاوته ما أعجزنا عن الكلام . فبتنا ليلتنا بدار السيد حسين سادن مقام العباس بن على رضى الله عنهما ، ثم تناولنا طعام الغداء على مائدة سعادة المتصرف السيد طاهر القيس الذى حشد للقائنا وأفاض فى الحفاوة بنا بما لا يحيط به الوصف ، واستمعنا عنده إلى أناشيد الشاعر اليعقوبى وهو يترنم بشعره وأشعار غيره بأنغام وإيقاع مطرب شجى كما كان يفعل حافظ ابراهيم رحمه الله . ثم عرجنا فى طريقنا على مدينة الكوفة ، فتشرفنا بزيارة جماعة من أئمة الشيعة ومجتهديهم ، نذكر منهم السيد الزنجانى والإمام كاشف الغطاء والجزائرى وغيرهم . ثم عدنا بعد ذلك إلى بغداد . وقد تركت هذه الرحلة فى نفسى من الأثر ما حفزنى إلى أن أنوه بها على صفحات « الكاتب المصرى » الذى رأيت له بالعراق عشاقاً كثيرين من كرام القراء . ويجمل بى أن أختم هذه الكلمة بذكر قصيدتى التى ألقيتها فى دار الرابطة الأدبية بالنجف إتماماً للفائدة . وهذه هى القصيدة :

أمن بغداد أزمعت الركابا	وخليت المنازل والصحابا
وأنت بغيدها كلف تمنى	لو انك قد لبست بها الشبابا
وأنك كنت لا تقنى حياء	ولا تخشى على فند عتابا
لأبكار زهاها الحسن حتى	خلعن له من الدل النقابا

يرحن موائسا ويفحن عطراً   وما ضمخن من عطر ثيابا
يساقطن الحديث كأن سلكاً   نثرن به لآلئه الرطابا
وإنك إذ ترجيها لوعد   لكاظمآن إذ يرجو السرابا
وإن لبست عباءتها وأرخت   مآزرها وآثرت الحجابا
تريك إذا انثنت للحين كفاً   تزين من أناملها الخضابا
وجيداً حاليا ورضاب ثغر   تذم لطعمه الشهد المذابا
وصدراً فيه رمان صغار   يطلن بمهجة الصب العذابا
تسائلنى وأنت بها عليم   كأنك لست معموداً مصابا
أجِدّك هل بعثت لها رسولا   فصدّق عن دخيلتها الجوابا
وهل أخفيت شجوك عن مليم   تهانف حينما شهدت وغابا
وهل أرسلت من زفرات قلب   تعلقها على مقة ... وثابا
وأقصر عنه باطله ... وماذا   يرجى المرء إن فوداه شابا
وليس له على الستين عذر   إذا قالوا : تغازل أو تصابى
فعدّ عن الصبا والغيد واطلب   إلى الأشياخ فى النجف الرغابا
ففى النجف الأغر أروم صدق   تربعت الأباطح ... والهضابا
عشقت لهم ولم أرهم خلالا   حلا صفو الزمان بها وطابا
متى ما تأت منتجعاً حماهم   تر الأحساب والكرم اللبابا
لقيت لديهم أهلى وساغت   إلى قلبى مودتهم شرابا
وهل أنا إن أكن أنمى لمصر   لغير نجارهم أرضى انتسابا
عجبت لمادح لهم بشعر   ولا يخشى لقائلهم معابا
وإن ينظم وليدهم قريضا   أراك السحر والعجب العجابا
غرائب منهم يطلعن نجدا   ويزحمن الكواكب والسحابا
أولئك هم حماة الضاد تعزى   عروقهم لأكرمها نصابا
وأصلبها على الضراء عودا   وأثقبها إذا قدحت شهابا
وأوفاها إذا حلفت بعهد   وأطولها إذا انتسبت رقابا
وكيف وفيهم مثوى علىّ   بنوا من فوق مرقده قبابا
وقدماً كان للبطحاء شيخا   وكان لقبة الاسلام بابا
نجىُّ رسالة ... وخدين وحى   إذا ضلت حلومهم أصابا

وإن شهد القبائل نار حرب ... مجلجة فوارسها غضابا
أخاض غمارها جرداً عتاقا ... وأشعل نارها أسلا وغابا
فما كأبي الحسين شهاب حرب ... إذا الأستار أبرزت الكعابا
وليس كمثله إن شئت هدياً ... ولا إن شئت في الأخرى ثوابا
ولا كبنيه للدنيا حليّا ... ومرحمة إذا الحدثان نابا
متى تحلل بساحتهم تجدها ... فسيحات جوانبها رحابا
وإن شيمت بوارقهم لغيث ... تحدّر من سحائبه وصابا
همو خير الأئمة من قريش ... وأزكاهم وأطهرهم إهابا
حباهم ربهم حلماً وعلما ... ونزّل في مديحهم الكتابا
وحببهم إلى الثقلين طرا ... وزادهم لسدته اقترابا
فمن يك سائلا عنهم فإني ... أنبئه إذا احتكم الصوابا
فلن تلقى لهم أبداً ضريبا ... إذا الداعي لمكرمة أهابا
مصابيح على الأفواه تتلى ... مدائحهم مرتلة عذابا
وما دعى الإله بهم لأمر ... تعذر نيله ... إلا استجابا

محمد هاشم عطيه

الفردوس المفقود

نعيمكِ لو تعلمين امّحى كما يمحى الطلل الدارس
سَفته الرياح لدى عصفها وداس معالمه الدائسُ
أطوف بأرجاء هذا الخراب أقبّل أنقاضه الخالده
وأسجد فوق مهيل التراب لأندب جنتيَ البائده

ترسّمت أمس بقايا خطاكِ على ضفة النّهر ، هل تذكرين ؟
هناك التقينا وكان الربيعُ وكنت كأزهاره تبسمين
هناك رأيتك عارية . . . وقد غار من طهرك الياسمين
فمجدت فى عريك العبقرى جمالَ السماء ، جمالَ الفنون
هناك عرفتُك حالمة ويا لجمالك إذ تحلمين ! . . .
تذوب السّموات فى مقلتيكِ سَناً غافياً بين ظل الجفون
وتَعْشَى الفراشات حول البهاء يرفُّ على طهر ذاك الجبين
هناك رأيتُك راقصةً . . . ويا روعة الفنّ إذ ترقصين
تميسُ الغصون ويمشى الحَمَامُ يقلّد خطوكِ إذ تخطرين
يجُنُّ جنون طيور المروجِ فتعزف نشوى ، بديعَ اللحون

ترسمت أمس بقايا خطاكِ ولكن عفتْ تحت خطو السّنين
فماذا رأيت ؟ بقايا هشيمٍ بقايا جذوع ، وصلصال طين
وماذا سمعتُ ؟ . . . صفير الريا حِ تعوى وراء الرُّبى والحزون
وفتشت عن حالماتِ الضفاف رواها من النهر ماء مَعين
فلا النهر ينساب حلماً وديعاً ويحكى فتونك إذ تنظرين
يقبّل فى خلسةٍ قدميكِ وفتنة عريك إذ تسبحين
ولا العشب خضراء تكسو الضفاف ولا الظّل ينشرُهُ الزيزفون . . .
ولا النور يرقص فوق الأُجينِ لجُنِ الحياض ، لجين العيون . . .

وناديتُ باسمك ذات الشمالِ وناديتُ باسمك ذات اليمين
فرجّع صوتى هذا العراء . . . وعاد إلىَّ صداه الحزين
فأيقَنتُ أنك لا تسمعين وأيقنت أنك لا تذكرين
وأيقنت أنكِ يا جنَّتى مضيت إلى حيث لا ترجعين
وأغمضت عينى فى غفوةٍ كما كنتِ يا جنَّتى تفعلين
فأبصرتُ طيفكِ فى عالمٍ بعيد . . . بعيد . . . تحدَّى الظنون
وراء الشعور ، وراء الخيال ، وراء الحياة ، وراء المنون
وسَاءلْتُه عنك هل تذكرين ربيع السَّعادة جمَّ الفتون
إذِ الخلد قيثارة فى يديك وأنت بأوتارها تلعبين
إذِ الكون مملكة للجمالِ . . . وأنت على عرشها تحكمين
وعرس الطبيعة ما ينقضى وعيد الوجود إلى غير حين

ولكنَّ طيفك فى صمتهِ . . . تلاشى وطار إلى عليين
فأيقنتُ أنك لا تسمعين وأيقنت أنك لا تذكرين
وأجْهَشْتُ مختنقاً بالنحيب وبالصَّمتِ من بعد طول الأنين

نعيمك لو تعلمين ، امَّحى كما يمَّحى الطَّللُ الدّارسُ
سفته الرياح لدى عصفِها وداس مَعَالمَهُ الدائسُ
أطوف بأرجاء هذا الخراب أقبِّل أنقاضه الخالدَهْ . . .
وأسجد فوق مهيل التراب لأندب جنتىَ البائده . . .

هناك فى الغاب فى مسْ رَحِ الهوى والتصابى
هناك حيث قضينا — معاً — ربيع الشباب
وقفتُ حيرانَ أشكو إلى الجنادل ما بى
سألتُ عنك صخور الْ وَادى وشم الهضاب
سألت عنك بقايا الْ جذوع والأعشاب
فكان عصفُ الرياح الْ هوجاء كلَّ جوابى
عَفَتْ رُسُوم هوانا والذكرياتِ العذابِ

لم يبق من كوثر الحب غير لمع السراب
لم يبق من سامق الدوح غير قفر يباب
لم يبق من وارف الظل غير ظل السحاب
لم يبق من باغم الطير غير طير الخراب
وقفتُ حيرانَ أشكو إلى الجنادل ما بى
وقلت : يا نفس شتّا نَ بين غابٍ وغاب

ترسمتُ أمسِ بقايا خطاكِ إلى الغاب ، مسرح حلمى الجميل
هناك التقينا — ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ ، وكان الأصيل
وكنّا وحيدين بين الظلال نميل مع الحب حيث يميل
طليقين لولا رباط الهوى وسدُّ العفاف تحدى السيول
هناك على العشب ، بين الزنا بق ، تحت الخمائل خلفَ الحقول
غفَوْنا على نغمات الهزار وهبّ النسيم ، النسيمِ العليل
وساد الظلام ، وساد الهدوء ولفّك جُنح الدُّجى والذهول
قبّلت فى لهفة شفتيكِ لأرشف ترياقك السلسبيل
فما أطفأت شفتاك الغليل بل اشتدّ من شفتيك الغليل
وهأنذا أتقفّى خطاكِ ولكن أضل سَوَاءَ السبيل

ترسمتُ أمس ، بقايا خطاكِ إلى الغاب مسرح حبّى العجيبْ
هناكَ التقينا ، ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ وكان المغيب
وكنا وحيدين بين الظلالِ وقد نام فى وكْره العندليب

حدانى القلب ، أوّاهُ ! إلى مسرح أحلامى
إلى الغاب الذى قضّيـ ـتُ فيه ربيع أيامى

هناك عرفت معنى الحب معنى وحيه السامى
هنالك كنتِ يا فردو س ينبوعاً لالهامى

هناك ضفرتِ إكليلاً من النسْرين والوردِ
وتوَّجتِ جنون الشهـ وة الحمراء من وجدى

هناك شربتُ من أنفا سكِ الحرَّى ومن ثغركْ
رحيقَ الحب من شفتيكِ واللوعةَ من صدركْ

وقبَّلتُ على نهديكِ رمز الشهوة الحمرا
وينبوع الحياة الحق والمعجزة الكبرى

هناك سجدت منشدوها لروعة جسمك العارى
وغنَّيتُ فنون الحبِّ صدَّاحاً بمزمارى

هنالك عَرْبَدَ القلب هناك تألَّه الحبُّ
هناك تعانقَ المشهودُ فى جسمك ، والغيبُ
هناك نسيتُ ما الرضوانُ ما اللَّعنات تنصبُّ
وما الفردوس ، ما نعماه ، ما كوثره العذبُ

وقلت كفانى جنَّةً جسْمك العارى
إذا كنتِ ناراً فلا كُنْ حطبَ النارِ
وإن لم تكونى آيةَ المبدع البارى
فما تحت هذى الشَّمس آىٌ لمحتار !

نعيمك ، لو تعلمين ، امَّحى كما يمَّحى الطَّلل الدَّارسُ
سفته الرياح لدى عصفها وداسَ معالمَهُ الدَّائسُ
أطوفُ بأرجاء هذا الخرابِ أقبِّل أنقاضه الخالدهْ
وأسجد فوق مهيل الترابِ لأندب جنَّتىَ البائدهْ

[باريز]

ادريس الجائى

LA CRISE ACTUELLE DE L'ART

HILDE ZALOSCER

الأزمة الراهنة للفن*

من الحقائق المؤكدة أن حضارتنا اليوم فى منعطف من التطور شبيه بذلك الذى كانت فيه عند انهيار الحضارة القديمة وقيام المسيحية . وإذا نظرنا من بعيد إلى ذلك المنعطف ، بدا لنا كأنه قطع فاصل بين الماضى والحاضر ، فاذا اقتربنا منه وأنعمنا النظر ألفيناه تدرجاً بطيئاً ولكنه على كل حال واضح بين .

وهذا المنعطف يعنى تجديداً من كل النواحى ، وقيام مقاييس وقيم جديدة لم تعهد من قبل . فكل نواحى الحياة ، مادية كانت أو روحية ، تتبدل وتتكيف أو تختفى فتمهد السبيل لحضارة جديدة وتعمل على خلق نوع جديد من البشر هو ما نسميه الرجل الحديث . وهذه الولادة مؤلمة ككل ولادة .

فنحن نحيا إذن فى أزمة . وكنا سمعنا هذه الكلمة تكرر فى السنوات الأخيرة حتى انمحى ما تعيه من عمق وألم ، ذلك لأن المقصود بالحياة فى أزمة هو أننا نعيش فى عصر يضحى فيه بالفرد فى سبيل الأجيال القادمة .

وقد حطمت تلك الأزمة حياتنا الاقتصادية والسياسية والعلمية والفنية ؛ فأمست القيم القديمة محل تغيير وإعادة فى كل مكان ، وأخذ الفهم الجديد يرتسم أمامنا فى كل مكان . غير أنه يخيل إلينا أن الأزمة فى نطاق الفن أحد وأبرز ، وربما أعاننا تحليلها على التنبؤ بشئ مما يخبئه الغد ذلك إذا كان التاريخ معلماً وهادياً كما قيل لنا مراراً وتكراراً .

وأزمة الفن مزدوجة ، فهى ملموسة من ناحية فى الفن نفسه ، وهى واضحة

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

من ناحية أخرى فى علاقته بالجمهور ، فنحن نعرف بتجاربنا الشخصية أو بالملاحظة موقف الجمهور من الفن الحديث ؛ ففى أول الأمر عدم فهم للفن ، ثم رفض بات له ، ثم احتجاج يشوبه السخط ، وأخيراً عداء ظاهر[1]. غير أنه يبدو لنا أن موقف الجمهور هذا لا يختلف عما فعلته الجماهير فيما مضى . فلم يحدث قط أن فهمت الجماهير عملا أدبياً ما فهماً تاماً عميقاً ، فالجماهير بعيدة عن تعمق الأعمال الفكرية ، ولكن النزاع يبدو فى أيامنا أحدّ والاحتجاج من جانب الجماهير أشد ؛ وذلك راجع إلى أسباب عميقة .

ولكن ، لِمَ إتسعت الهوة فى أيامنا بين الفنان والجمهور ؟ وما هى تلك الأسباب العميقة التى لم تدع بين الجمهور والفنان أية وشيجة واضحة بحيث فرض الفنانون على أنفسهم أن ينشئوا أعمالهم لصفوة من الناس محدودة العدد حتى تفهم أعمالهم ؟

يبدو لنا أن ذلك راجع من بعض الوجوه إلى أن الفنان ، وهو تلك الآلة الحساسة الدقيقة ، يسبق أغلبية الجماهير . أو بالأصح أنه يبحث فى حماسة عن الغد الجديد على حين تحيا الجماهير سعيدة فى يومها ، وهو ليس فى الحق إلا أمس الدابر . ونستطيع أن نقول أكثر من ذلك : فالجماهير لا تبقى فى أمسها فحسب ، وإنما تتعلق به وتريد أن تحفظه سليما ، ولا ترضى به بديلا . فالروح المحافظ فى أى عصر هو ذلك الذى يخشى كل تجديد ، ذلك الذى يرضى بما هو كائن ، فهو يفضل الحقيقة المؤكدة العادية على أى مخاطر جديدة فكرية ، فالجمهور إذن هو جمهور الأمس ، فهو حينما يقترب اليوم من عمل خلقته اليوم عقلية مفكرة مجددة ، عقلية فى الطليعة ، ويحكم على ذلك العمل بذوق تكوَّن فى جو عقلى آخر ، ويقيسه بمقاييس غير صالحة ، فكأنه يحاول قياس ارتفاع برج ما مستعملا فى ذلك عدداً من الكيلومترات .

ولكن كيف كان ذلك الأمس ، وما هى تلك المقاييس غير الصالحة التى يطبقها جمهور متأخر على الفن فى أيامنا ؟

---

(١) كان معرض بيكاسو ـ ماتيس Picasso-Matisse الذى اقيم عام ١٩٤٦ فى لندن كاشفا للحقيقة . وقد قامت الجرائد بمناسبته بنوع من الاستفتاءات فطلبت من الجمهور رأيه فكان الجمهور بالاجماع معاديا إذ اعتبر الأعمال المعروضة ، كأنها دعابات سمجة .

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، يجدر بنا أن ننظر إلى سؤال آخر أعظم عمقاً ، سؤال له علاقة بصميم الفن ذاته ؛ ذلك لأننا نحسب أن الأزمة الراهنة ، وذلك الموقف الذى يقفه الجمهور أو ذلك العداء الذى خلقه عدم الفهم — إنما يعود إلى أزمة كائنة فيما يقصد بالفن فى أيامنا، وهو فى الواقع يعود إلى طبيعة الفن ذاته و إلى جذوره الخفية . فقد نسينا بتقادم العهد أن أصل الفن وسبب وجوده لا يعودان إلى مسألة تتعلق بالجمال ، و إنما يرجعان إلى أصل أعمق من ذلك . فلقد تفرع الفن من الدين أو بالأصح كان الفن والدين فى أول الأمر وحدة لا تنفصم عراها ، فلم يكن السحر والرقص والفن التمثيلى والنحت والنقش إلا تعبيراً عن الشعور الدينى للانسان،وكانت تلك الفنون متحدة فى مظهر مقدس واحد . وأثناء تطور الفن أخذ ينفصل عن الدين حتى تحرر تماماً من وصايته وانفصلت فروعه المختلفة . بيد أنه رغم انفصالها بقى الفن والدين متصلين اتصالا وثيقاً ، وبقى الفن الأوربى حتى آخر القرن الثامن عشر فى خدمة الكنيسة . و إننا نعبر فى لغتنا الحديثة عن ذلك فنقول : إن الفن كان ملتزماً engagé . فالكنيسة هى التى تملك الزمام وتعين الموضوع بل تحدد أحياناً الانشاء والألوان [١] ولم يكن لفكرة حرية الفنان وجود حينذاك . ولكن لم يكن لتقدير الجمهور وجود كذلك ! فلم يكن يطلب من الجمهور رأيه ولا تقديره ، بل كان العمل الفنى الذى يعمل من أجل مكان مقدس ككنيسة أو معبد ، إنما يستخدم ليقدسه الجمهور لا ليثير سروره أو متعته ؛ فالعمل الفنى باعتباره عملا فنياً ليس إلا فكرة حديثة؛ وعلم الجمال ليس إلا نتيجة استقلال الفن . وفى اللحظات القصار التى انفصل فيها التصوير مثلا عن الدين ، كما حدث فى العصر الكلاسيكى للفن الاغريقى ، أو كما حدث فى هولندا البروتستانتية ، نرى أنه قد قام من المشاكل ما يشبه مشاكل اليوم ، ولكن تلك الأشياء ليست إلا أحوالا شاذة سرعان ما زالت ، فلم يفقد الفن عمده الطبيعية والأساسية إلا عندما انهارت الكنيسة بصفتها قوة روحية وسياسية ؛ فمنذ ذلك الحين أمسى وجود الفن

---

(١) وجد فى كتاب أتوس *Livre saint d'Athos* الذى عثر عليه منذ مدة وصفات دقيقة لصناع الفسيفساء يبين لهم كيف يؤلفون ويكونون ألوانهم .

—وبصفة خاصة الفنون التشكيلية Arts Plastiques — معضلة كبيرة ، وقد كان من المحتمل أن يختفي الفن أيضاً عندما اضمحل الدين بصفته قوة روحية أو سياسية ، إذ لم يعد هناك مسوغ لوجوده .

بيد أن الفن كالدين لم يختف ولكنه تطور وتكيف وفقاً للظروف الجديدة . فبعد أن كان الدين قوة رسمية صار مسألة شخصية ، ولكنه ما برح قوة يحسب حسابها . وهكذا صار أمر الفن . ومما يثير الاهتمام حقاً أن ندرس كيف تم ذلك التحول والتكيف فى الفن ، وأن نعرف دور الفن والفنان فى الجماعة خلال القرن التاسع عشر ، فان كل الأفكار قد نضت عنها ثوبها القديم فبدت جديدة .

كان الفنان قبل ذلك مرتبطاً بالجماعة التى يعيش فيها أشد ارتباط ، فاذا به يرى تلك الوشائج قد انقطعت مرة واحدة ؛ كان الفنان فيما مضى عاملا يخضع لتقاليد خاصة وعضواً فى نقابة تعين له الطريق وتصعد به نحو الكمال ، فاذا به يمسى فجأة المثل الفريد لصفوة من الناس هم الأرستقراطية الجديدة التى تمتاز وتتميز بانعزالها فى برجها العاجى ؛ ذلك لأن العصر هو الذى رأى الفنان يبدأ فى بناء برجه العاجى ، بناه أول الأمر ليرضى كبرياءه ، ثم بناه تعبيراً عن غضبه وسخطه . وقد آن الأوان لنهدم هذا البرج العاجى .

فالفنان فى القرن التاسع عشر هو رجل وحيد غير مفهوم . وهو يملك بين يديه كل التطور الفنى خلال العصور ، وكل المعارف والأسرار التى أورثها المعلمون تلاميذهم ؛ ولديه كل الوسائل الفنية ، ولكنه قد فقد وعيه الروحى ، فقد العقيدة المشتركة التى كان يتقاسمها هو وإخوانه ويعبر عنها تعبيراً واضحاً ملموساً .

ففى بدء القرن التاسع عشر ، كان الجماد الروحى يعوز الفنون التشكيلية ، فهل معنى ذلك أن الفن قد انتهى ، وأننا نشهد احتضار الفن كما قال إيلى فور ؟ (١) بيد أن الفن قد وجد قوة جديدة قادرة على إحيائه .

والواقع أن القرن التاسع عشر — خلافاً لما كان يظن — قد رأى ازدهاراً فنياً عظيما ، وبلغ التصوير فيه قمة لا يمكن الارتقاء إليها ، فأزال بذلك المخاوف التى تنبأ بها البعض .

(١) إيلى فور ، احتضار الفن ، وحب الفن *L'agonie de l'art, amour de l'art*, Juin 1931.

ومن الطريف والمفيد أن نرى تلك القوة الروحية الجديدة التى حلت محل العقيدة الدينية والتى بقيت حتى أيامنا تلهم الفن وتغذيه .

للثقافة فى القرن التاسع عشر طابع خاص ؛ ففى خلال هذا القرن بدا مظهر عقلى جديد وأخذ يبرز ويزداد وضوحاً ، ذلك هو ثقافة الطبقة الشعبية التى تقدمت وخلقت فلسفة لنفسها واتجاهاً خاصاً بها وفناً لها ؛ وهذه الفلسفة هى الفلسفة المادية التى تؤمن بالتطور وتصطبغ بالرومانطيقية ؛ ذلك أن الاختراعات الكبرى والمكتشفات العلمية قد ساعدت على وجود تلك المادية التى اتجهت اتجاهاً يلائم مطالب طبقة بورجوازية سليمة غنية راغبة أشد الرغبة فى الحياة وفى التمتع بما فيها ؛ وهذه الرغبة فى التمتع لا يشوبها أىّ تشكك ، وهى مختلفة أشد الاختلاف عن تلك الحاجة إلى التمتع التى نجدها فى آخر القرن Fin du siècle والتى يشوبها شعور عميق بالمصير المؤلم للانسان .

وكان على الفن أن يجلب المتعة لهذا الجمهور ، الذى لم يكن قد أصيب بعد بالتفكير المؤلم . وهكذا سينشئ الفنان لأول مرة أعمالا لجمهور تحدد ذوقه ؛ ذلك لأنه حتى لو كانت فكرة الجمهور غائبة عن ضمير الفنان حين ينشئ عمله ، فان هذا العمل نفسه قد أنشئ للجمهور ؛ أضف إلى ذلك أن الفنان قد بقى متصلا بعصره ومتأثراً به مهما بلغت عبقريته . وهكذا كان الفن فى القرن التاسع عشر المثل الحى لتلك الثقافة المادية العقلية . ولا يصح أن ننسى أننا نجد أساساً علمياً خالصاً فى المذهب الانطباعى L'impressionnisme . فالفنون التشكيلية فى القرن التاسع عشر بما تعيه من مذهب طبيعى وعلمى ، تمثل اللحظة الوحيدة (فى تاريخ الثقافة الأوربية) التى تجرد فيها الفن من كل مؤثر دينى أو روحى ، مكتفياً بأن ينقل بأمانة بعض جوانب الحياة . ونستطيع أن نقول إنه إذا كان المذهب الانطباعى قد وصل إلى تلك القمة التى ارتقاها سيزان Cézanne فان ذلك لا يرجع إلى آرائه وإنما على العكس قد بلغ ذلك الاتقان رغم تلك الآراء بفضل عدد من أعاظم المصورين . ولكن ذلك لا ينفى أن المذهب الانطباعى فى أساسه مذهب غير روحى ، مثله كمثل مذهب الفوفزم Fauvisme الذى سيدع هو أيضاً القيم الروحية للعمل الفنى حين يعلن أن ما كان يدعوه الانطباعيون « جانبا من الحياة » يجب أن يكون فى الواقع « متعة للعيون ! » . وإذا كان الفن

الانطباعى ذا جانبين هما التفكير العلمى من ناحية ، وإرضاء الحواس من ناحية أخرى ، فان مذهب الفوفزم Fauvisme يحاول جهد ما يستطيع أن يرضى طبقة قد أصابها الانحلال فعلا . ومثل هذا المذهب لا يمكن أن يعيش فهو ينطفئ بذهاب منشئيه ؛ حتى بين ذلك الجيل نجد خوارج على هذا الفن من بينهم ثلاثة يسيرون باحثين عن عقيدة جديدة ؛ فقد هرب جوجان Gauguin من هذه الجماعة العقيمة يحذوه الأمل فى أن يجد لدى البدائيين المنابع الحقيقية للالهام الفنى ؛ واستوحى فان جوج Van Gogh المشاعر الدينية فى تصاويره ، فحبه لله وخشوعه نحو الحياة ينبعان من منابع المسيحية الأولى ؛ وإننا لواجدون لدى فان جوج ما يشعرنا شعوراً ملموساً بتلك العلاقة العميقة الخفية بين الشعور الدينى والعمل الفنى ؛ فالضرورة الدينية لديه هى التى تولد الضرورة الفنية . والفنان رسول قبل أن يكون فناناً .

وثالث هؤلاء الخوارج هو سيزان Cézanne . وإن مأساة الفن فى القرن التاسع عشر — كما قد وصفناها — تبلغ لديه أحدّ أطوارها ؛ ولكن سيزان قد استطاع بمجهود فوق طاقة البشر أن ينقذ التصوير مستخدماً طرائقه الخاصة ومستعيناً بالوسائل التصويرية دون أن يلجأ إلى العواطف البدائية ، ولا إلى الحماسة الدينية .

ولقد استطاع هذا الفنان الفريد ، بمجهوداته الخارقة أن ينفخ الروح فى الوسائل التصويرية ، وأن يجعل من المذهب الانطباعى شيئاً متيناً ثابتاً ؛ وهكذا استبعد من التصوير الناحية التى ترمى إلى المتعة ، ولن تجد لوحة أشد خشونة وأشد عرياً من لوحاته ! واختفى كذلك كل ما يذكر بالانسان وجوه وحياته وحرارته الحيوانية ، واختفت المميزات التى أحبها الانطباعيون واستبدل بها سيزان عالماً لا تضيئه الشمس ، وجوًّا خارجا عن نطاق الانسان ، تجد فيه الأشياء تسبح من عالم لا زمن فيه . عالم رجع إلى عناصره وعبر عنه رجل لم يعد يذكر حاله كانسان . وهكذا سار سيزان فى طريق إنشاء عالم جديد اشتقت قواعده من صميم القواعد التصويرية ، ودفع تلك القواعد إلى أقصى ما يستطيعه فخلق عالماً مجرداً .

وهذا العمل العظيم — بما بذل فيه من جهد وما أدى إليه من نجاح —

قد مهد إحدى الطرق ، التي سيسير فيها البـاحثون عن فن جديد ، وعن تعبير فني جديد ؛ ذلك لأن الطرق ستتشعب ابتداء من هذه اللحظة ؛ويجب أن نذكر هنا أن العمل الفنى يتبع من حيث قيمه عالمين : العالم الحسى والعالم العاطفى .

والقيم الشكلية هى اللون والسخط والخط والفراغ والتكوين ، وهى التى تستشعرها حواسنا . والقيم الروحية والتجريدية هى : الشئ الذى يعيه العمل الفنى ، والموضوع والمعنى والعاطفة ، التى يحملها وينقلها إلينا .

ولكن الانطباعيين يذهبون — كما سبق أن قلنا — باحثين وراء القيم الحسية ، وتحليل الأساليب الانطبـاعية المختلفة قد أبان لنا أنها تشمل عناصر ما قد أتى بعدها من أساليب ، وهذه العناصر وإن كانت قد حدثت مصادفة تحمل معنى جديدا وتصبح عاملا مهماً فى الأسلوب الجديد [1] وإن الفن الانطباعى ، وهو فن طبيعى ، قد بالغ فى إبراز ألوان الضوء حتى أدى ذلك إلى إلغاء الحجم ، ثم إلى فناء الحقيقة الموضوعية ، وسيحل محل الحقيقة الموضوعية الرؤية المؤقتة التى يقيدها الضوء فى لحظة معينة فيحيل صورة الشئ إلى مجموعة من البقع الملونة تراها عيوننا ، وسيكون لتحطيم الحقيقة الموضوعية نتائج خطيرة . الحق أن فناء الحجم فى الفن الانطباعى يرمى إلى أن يكون التصوير أقرب إلى الطبيعة ، وهذا التحطيم لا يبدو واضحاً ؛ ذلك لأننا نستطيع بفضل تجاربنا أن نعيد بناء الشئ — دون وعى منا — مستعينين بهذه البقع الملونة ، غير أنه ما أسرع أن يتطور الفن فيهمل إعادة بناء صورة الشئ ولا يبقى إلا تحطيم الحجم . وقام سيزان بخطوة أخرى ؛ ذلك أنه إذا أهملت فكرة أداء جانب من الحياة كما يبدو فى لحظة معينة خاصة ، وقصر الاهتمام على خلق عالم جديد ، فانه يسمح فى هذه الحالة بالسير إلى أبعد من ذلك وابتكار أنواع جديدة يتطلبها الفن الطبيعى المقلد ، فكما أن الشئ ذاته قد صار أمراً ثانوياً ، فان الفراغ المحيط به — والذى كان يرسم على أساس قواعد المنظور — قد أصابه هو أيضاً تغيير فى الوضع . فاختفى نهائياً من التصوير تقليد حجم الشئ . ومن العبث معاودة الكلام عن تشويه شكل

(١) وهكذا كان الطور الأخير للفن القوطى ممهدا لمذهب التوافق الذى ظهر فى عصر النهضة l'Horizontalisme de la Renaissance وهذا المذهب بدوره قد مهد فى أخريات أيامه لظهور الاتجاه الزخرفى فى المذهب الشاذ Baroque .

المنظور لدى سيزان ، فان عدة دراسات وافية [١] قد أوصلت تلك الأبحاث إلى درجة بعيدة من العمق ، وقورن فى تلك الدراسات بين الدافع الحقيقى وبين ما أداه الفنان ، وقورن بين المنظر الطبيعى الواحد لدى سيزلى Sisley ولدى سيزان ليكتشف الغرض الذى رمى إليه الفنان بهذا التشويه المقصود . وعرفنا أخيراً تلك الضرورة القاهرة التى يضحى الفنان فى سبيلها بحقيقة المظاهر التى تبدو لعيوننا .

وإن معجزة سيزان لتبدو فى بحثه بعناد وإصرار عن قيم تصويرية جديدة انتهت بأن كونت نظاماً تجريدياً . وهكذا نرى فى الفن الانطباعى هذه الصفة الخاصة التى أصبحت أساس الفن الحديث ؛ ذلك لأن تحطيم الحجم وإهمال المنظور هو التمهيد لرفض الفن الطبيعى كلية ، أى هو التمهيد للنظرية الجديدة فى الفن اليوم ؛ فكل محاولات الفن الحديث تتركز فى خلق عالم جديد تحل فيه رؤية نفاذة داخلية ، وحقيقة عليا محل الحقيقة المادية الملموسة . وهكذا كان تحطيم الحجم الخطوة الأولى فى تحطيم النظرة الفنية القديمة تحطيما كلياً ؛ ذلك لأنه مهما اختلفت اتجاهات الفن الحديث وتعددت مظاهره ، فان هناك عاملا مشتركاً لم يهمل فيه قط ، ألا وهو إهمال المذهب الطبيعى ورفض تقليد الحقيقة الخارجية رفضاً باتاً .

ويجب أن نعترف بأن مثل هذا الاتجاه المحدد الواضح لا بد أن يكون استجابة لضرورات العصر، وإلا فكيف يمكن تفسير أن كل الحركات الفنية فى عصرنا تتجه نحو فن تكون الأشياء فيه نقط بدء تتحول إلى عناصر مجردة .

بيد أنه يجدر بنا أن نعود إلى دراسة الموقف الفنى فى آخر القرن التاسع عشر، فقد رأينا إحدى المدارس تتخذ من أبحاث سيزان نقطة بدء وتحاول جاهدة أن تصل إلى تأدية الشكل الخالص . وقد كان السطح التصويرى la surface picturale هو الشئ الأساسى لديها ، أما القيم الشكلية فتوجد وفقاً لذلك السطح . (وسيهاجم أتباع مذهب الفوفزم Fauvisme اللون والخط ، فى حين سيحطم أتباع المذهب التكعيبى Cubisme الحجم والفراغ) . وقد حاولت جماعة أخرى من

(١) Fritz Novotny, *Cezanne und das Ende der wissenschaftlichen Perspective,* Vienne. Erle Loron, *Cezanne's Composition,* New-York.

الفنانين الشبان الذين يميلون إلى مذهب فان جوج Van Gogh أن تنهض بالتصوير من ناحيته الروحية ، أدخلت فيه الأبحاث النفسية وتحليل النفس والأبحاث الدينية بل والسياسية . وهكذا اتصل الفن بعوامل خارجة عن نطاق الفن وأخذ يعبر عنها ، واستبدل بعالم المظاهر عالم النفس وعالم الانسانية ، وحاول أن يجد فى النفس الانسانية ما يربطها بالجماعة البشرية ؛ وهكذا يعود الفن إلى منابع الالهام الأولى . وإذا كانت الآلام الغامضة لدى الانسان الأول قد خلقت الفن حين أبرزت الرؤى الداخلية والظلام الداخلى الكامن فى أعماق النفس البشرية دون وعى من الفنان ، فان الفنان الحديث حين ينطوى على نفسه ، وحين ينظر فى حنايا ضميره فانه يعود إلى نفس المنابع الأولى الغامضة . وتحليل عقله الكامن وأحلامه وأفعاله غير الارادية ونواحى نشاطه المتعددة تكشف له عالماً مجهولا لم يكتشف بعد .

فالمذاهب الحديثة كالمذهب التعبيرى Expressionnisme والسوريالزم والأورفزم Orphisme ترمى كلها إلى غرض واحد — وإن اختلفت طرائقها — ذلك هو التعبير المباشر عن العواطف ، والسير مع الملهمات دون إخضاعها لأى إشراف ، وتصوير الأحلام التى تكشف عن رغبات ومخاوف غامضة . فليس الأمر إذن فى الفن الحديث أمر تصوير العالم الخارجى وتملق الحواس وإمتاع الأعصاب . والتصوير الحديث فى المذهبين التعبيرى Expressionniste والسوريالست Surréaliste هو بحث مؤلم عن سر الحياة وسر الانسان . وربما اتهم هذا الفن بأنه وثيقة واعتراف أكثر مما هو عمل فنى . ولكن ذلك لا ينفى أنه تعبير صادق عن عاطفة عنيفة .

وهكذا نعود إلى مشكلتنا الأولى : الخلاف بين الفنان والجمهور فى أيامنا . فلنذكر أن الفن الذى نشأ فى عصرنا هو فن مختلف تماماً عن فن الأمس ، وأن الجمهور الذى لم يتثقف بعد ما زال مخلصاً لتعاليم الفن الذى انقضى عهده ، فتراه يريد أن يرى فى اللوحة صورة صادقة لعالم يستطيع معرفته ، وهو يريد من ناحية أخرى أن يجد فى الفن راحة من العناء ، وهو يبحث فيه عما يروق له ويمتعه .

فالقول بأن الفن الحديث فن مغلق منطو على نفسه ، وأنه فى مجموعه غير مفهوم ، هو قول صحيح إلى حد ما ؛ فالعمل الفنى الحديث يقوم على أساس مبدأ اعتنقه الفنان ، ولذلك فهو موجه إلى صفوة من المفكرين ، وغالباً ما يكون

العمل الفنى نتيجة مذهب فلسفى ، أو توضيحاً لذلك المذهب .لقد دخلت الآداب المعاصرة فى دور اتصال وثيق مع الفلسفة ، ومع عدد آخر من العلوم . وأعمال سارتر Sartre الأدبية دليل على ذلك . ولا يمكننا إذن أن نأخذ على كتب كافكا Kafka وجويس Joyce وفولكنر Faoulkner وتوماس مان T. Mann أنها سهلة الفهم ، وهى جميعاً مشبعة برسالة فلسفية ، وما العمل الأدبى إلا تصوير فنى لتلك الفلسفة ، وهكذا سيكون هذا الاتحاد بين الفن والفلسفة بديلا من ذلك الاتحاد فى الماضى بين الفن والدين .

ولم تعد فكرة الفن للفن التى نشأت من اتجاه خاص نحو الحياة فى القرن التاسع عشر تلائم المطالب الروحية فى زمننا . ومهما اتهم الفن المعاصر بأنه فن منطو على نفسه ، فلا يجدر أن ننسى أنه قد نزل من برجه العاجى وامتزج بمشاكل الحياة ومطالبها واختلط بالناس ؛ والطرق عديدة منها السياسى والدينى ولكن الفنان فى كل عمل من أعماله يحمل رسالة ما ، وسواء أكان كاتباً أو مصوراً فانه فنان ملتزم engagé ،وأمامنا مثل مالرو Malraux وبيكاسو Picasso وهكذا يشتغل الفن بأنواع من النشاط مستقرة فى صميم الحياة .

وإننا نحسب أن الفن إذا أراد أن يعيش ، وإذا كان للفن فى جماعة الغد وظيفة يؤديها وحاجة يستجيب لها ، فان عليه أن يجد عقيدة له ، عقيدة يشترك فيها الجمهور والفنان كما كان الحال فى بدء الأمر ؛ وسيلتقى عندئذ الجمهور والفنان وتسد الهوة التى تفرق اليوم بينهما . وإذا كان إيلى فور Elie Faure مخطئاً، وإذا كان التصوير المعاصر ما زال حياً لم يبلغ دور الاحتضار ، وإذا كان هذا الفرع من فروع الفن لن يسقط كما تنبأ هذا الناقد القدير — فان هذا سيعود إلى صميم الفن نفسه ، وإلى ما يعيدك إلى المباحث الأسلوبية أو الجمالية كائنة ما تكون تلك المباحث . إذا أراد الفن ألا يفنى فلا بد له من أن يمتزج بالفكر وبالحياة ، وهكذا تستطيع الفنون التشكيلية أن تستعيد قوتها خالقة بذلك نظرية فنية جديدة ، ولو أننا نأسف على الفن الخالص الذى عرفته الانسانية بالأمس .

هيلمير ذالوشر

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

من هنا وهنالك

الكنانة فى الأدب الحضرمى

أوشكت الأيام أن تتلاحق بثقل عبئها على كاهل السيد ابن شهاب كضريبة يجب أن يؤديها للزعامة الاصلاحية التى نهض بالدعوة إليها فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

ومناهضة المصلحين أمر طبيعى ما فتئ التاريخ يحدثنا بذلك طيلة العصور الماضية . ولم تقف هذه المناهضة يوما ما فى سبيل مجرى حرارة الدعوة الاصلاحية ما دام أنها صادرة عن عقيدة متأصلة فى النفس وإيمان بسمو المبدأ والغاية . وبمقدار احتمال الأذى فى حدود الطاقة الانسانية تركز الزعامة تثبيتها فى التاريخ فيتحدث عنها حديث من يستحق الخلود . وهكذا كان شأن التاريخ الحضرمى ليكتب صفحة الخلود عن ابن شهاب .

ومهما قيل من اعتذار فى حق المناوئين من ضعف فى الفكر ، أو ثقل على النفوس لانتهاج منهج لا يتمشى مع ما ورثوه من تقاليد وعادات وميول ومشارب ، وإن تكن فى حد ذاتها بعيدة عن سماحة الشريعة الاسلامية بمقدار اقترابها من الجبت والطاغوت ، أو كانت مناوءتهم للاصلاح ناشئة عن حسد متأصل فى النفوس حيث أتيح للسيد ابن شهاب ما لم يتح لأحد منهم من سمو الفكرة التى كان يدعو إليها بحرارة الوجدان الصادق وقوة اليقين مع معرفة بانتهاج السبل الداعمة للاصلاح القومى وتشييد بنيانه .

ليكن هذا أو ذاك فان المناهضة للاصلاح القومى هى التى طوحت بابن شهاب للهجرة عن حضرموت فى سنة ١٣٠٢ هـ. وهو فى عهد اقتراب من الكهولة ونضوج تفكيرها . ولا غرو فقد ساءت العلاقات الودية ما بينه وبين مناوئيه ، وهم من ذوى الحل والابرام والنقض ، وأصبحت الاقامة فى الوطن العزيز غير مستساغة ولا محتملة . فقد كادت الأحوال تتطور إلى ما لا يرتضيه ذوو الشهامة والنخوة ، ولا يجدر بمثله أن يلوذ بالصبر والاحتمال إلا إذا فرضنا عليه احتمال نير العبودية والذل والخنوع مما لا يتفق مع سمو مكانته وسمو مبادئه

وهي في غاية من الكمال والرفعة . قال :

يأبى الأبى الذل لو عين الحيا
ة بدارها لم يلف من روادها

إذاً فلم يبق أمامه غير سبيل إلى اقتحام الهجرة . ولا نخال قوله :

لكن بلوغ المرء أقصى غاية
في العز مقصور على إبعادها

أو :

تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها

ألا تعلة نفس شديدة الاهتمام بالوطن العزيز متفانية في محبته أشد التفاني ، ولكنها في يقظة الثورة الفكرية والنفسية [1] :

رحمك الله ابن شهاب ! لقد عهدناك من سراوة الخلق بمكان عظيم ، وما زلت كذلك رغم قولك :

. . . .
فدع الربوع وعادها

وإن تناءيت بهذا القول عن مكانة الزعامة التي تسمو بالسماحة وبسعة الصدر إلى ثورة النفس الجامحة التي لا تفكر في العواقب بمقدار ما تجيش به مما يخفف لوعتها المتأججة ، ولعل لها في ذلك بعض التعلة .

وإذا تجردنا من العاطفة التاريخية السياسية رغم النكبة التي حلت بالوطن من جراء مناوءة المصلحين المتناهية للسيد ابن شهاب وغيره فيما بعد ، فان هذه النكبة من الناحية الأدبية كانت سبب فتح عظيم لتجلى عبقرية ابن شهاب الشعرية ، واستفاضة أدبه في اتساع أفق عظيم لم نعهده في أدبه من قبل .

فقد جاشت نفسه بالشعر في أفق أسمى وخصوبة فياضة ، وما كاد يغادر حضرموت حتى ودعها بقصيدة غراء مطلعها [2] :

ودع سعاد وألق حبل قيادها
واصدر على ظمأ لدى ميرادها
واربأ بنفسك أن تغازلها وإن
منحتك حبا من صميم فؤادها
أنهاك لا لقلى ولا لسآمة
أو تسأم الحسناء في أبرادها
لكن بلوغ المرء أقصى غاية
في العز مقصور على إبعادها
وقبل أن تنأى به الأيام بعداً

---

(١) أنظر من كتابنا «الشهاب العلوى» أثر الهجرة فى نفس ابن شهاب .
(٢) أنظر ديوانه صفحة ١٣٠ .

عن الوطن فاضت قريحته بقصيدة أخرى أجاب بها على رسالة بعثها إليه ابن عمه السيد محمد بن عيدروس بن شهاب من تريم ، وهو إذ ذاك فى المكّد (١) نجتزىء منها بهذه الأبيات. قال :

ولكن نفتنى عن حماها يد النوى
لأرض بها مثلى يطول اغترابه
إذا ما سرت عن ذلك الحى نسمة
يهيج بقلبى وجـده وغرامه
ولم يرق بعد البين عن بانة النقا
جعلت فداها مدمعى وانسجامه
فيا نفس صبراً هكذا يصنع الهوى
بمن كان فى أيدى الحسان زمامه
ولا تقنطى مهما تمادى بك الجفا
فجور الهوى حال محال دوامه
وها أنا قد آنست من جانب الحمى
وميض بروق لايزال ابتسامه
رموزاً بذكر العامرية من أخ
أديب صفا عما يشين رغامه
أعز ذوى القربى علىّ قرابة
وخير أخ يرعى لدىّ ذمامه

فان ما فى هذه الأبيات من معان لا تتفق مع الروح الوثابة التى تتجلى فى قوله من القصيدة الأولى :

أنى تنال لغير أروع ماجد
متبدل عن غيهـا برشادها
ماضى العزيمة غير هياب صبو
ر النفس بيات على مرصادها
يسدى ويلحم فى مناسج فكره
أبرادها ويجيد قدح زنادها
تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
عجلا وطأ فى السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد فى آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
وجب المشارق والمغارب واسع فى
أغوارها واركب صها أنجادها
فنفائس الياقوت تؤخذ من معا
دنها وتشرى من يدى نقادها

هذه الروح الوثابة التى صور فيها ابن شهاب روح الأروع الماجد ، الذى يجيد قدح زناد الفكر وهو غير هياب ولا وجل شأن ذوى الصرامة والشجاعة الباسلة على حد قول الشاعر :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

(١) المكد : أشهر موانى حضرموت اليوم .

لا تتفق مع هذه الأبيات التى تصور خمود النفس، والضعف الشديد فى ظاهر الأمر، ولكنها فى حقيقة التمثيل الروحى من صميم روح ابن شهاب الوادعة. فقد كانت روحه الطاهرة بمكان عظيم من الوداعة والطيبة ولكن فى يقظة، ومن سعة الصدر وأريحية القلب فى غير مذلة ولا لؤم.

هكذا كانت نفسية ابن شهاب جياشة بالشعر فى كل مرحلة تطؤها قدماه، وبلغت منه الخصوبة مبلغاً عظيما حينما استضاء بنور الكنانة فتغنى بالشعر غناء يفيدنا من الناحية التاريخية الأدبية بمقدار ما يفئ لنا السبيل فى أثر الهجرة فى نفس ابن شهاب.

كيف كان الادب فى مصر ؟

وما دمنا بصدد استجلاء أدب ابن شهاب حين زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ ه، فلا مناص إذاً من القول: إن الأدب فى مصر فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى لم يكن يتبوأ المكانة التى تتدفق بها ينابيعه الآن، وإنما كان فى عهد طلائع النهضة الأدبية، وما زالت عقابيل الماضى تحد من نشاطه؛ إذ ليس من السهل الاجتياز بمؤثرات القرون الوسطى الأدبية من غير أن يصاب الأدب ولو برذاذ منها يحد من نشاطه دون المضى به إلى الارتواء من المنبع الأعلى الذى ازدهرت به الحضارة الاسلامية فى عصورها الأولى.

وهذا شئ واضح لا يكلفنا سوى ارتياد أدب أعلام النهضة المصرية. وكان من أعلامها يومئذ عبد الله فكرى المتوفى سنة ١٨٨٩ م، وعبد الله نديم المتوفى سنة ١٨٩٦ م، وعلى الليثى المتوفى سنة ١٨٩٦م، ومحمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨م، والبارودى المتوفى سنة ١٩٠٤ م.

ولا نخال ان ابن شهاب وهو من المكانة العلمية العظيمة بله الشاعرية إلا توثقت به المعرفة بهؤلاء الأعلام الكبار وغيرهم معرفة الاتصال المباشر أو على الأقل استعراض أدبهم، رغم أن مقدمة ديوانه لم تشر إلا إلى زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ ه فقط. وقد كنا نود أن نفهم كيف كان مقامه بمصر.

فمن غير المعقول أن يتسنى له الاتصال بالخديوى توفيق باشا من غير أن يتهيأ له الاندماج والاتصال بصفوة الطبقة الممتازة من رجال عصره فى حين يقول:

فسنام أى الأرض أذهب منزلى
ولى الندامى الغر من أمجادها

وليس هذا القول بكثير على ابن شهاب ؛ فمقامه العلمى يخول له ذلك ، وما الأدب إلا إحدى السمات التى يتصف بها . وتاريخ حياته شاهد بذلك ، وفى مضامين كتاب « الشهاب العلوى » ما يجلو الحقيقة ويقيم البرهان على صدق قوله .

ونعود إلى النشاط الأدبى بمصر . فلئن أخذت النهضة الأدبية تنزع بالحياة الشعرية نحو التجديد ، واستضاء الأدب بقوة الأسر والجاذبية وحسن الصياغة والفحولة كما نراه فى شعر البارودى وغيره ، فان هذه النزعة لم تتخل عن آثار الماضى القريب أو البعيد أصلا . وقد بقيت لها منه بعض الوشائج التى تمتّ إليها بصلة وثيقة أو غير وثيقة .

بل لم تزل الكثرة من مواضيع الشعر كما كانت من قبل إلا عند بعض ذوى الشاعرية الكبيرة فقد تأثرت نوعاً ما بحياة العصر .

أما النسيب فما زال يحتل المكانة العالية لدى الشعراء كأنه الجسر الذى يوطد الصلات بالمديح . وهيهات أن ينكر ما للنسيب من مكانة فى الشعر . وإنما النسيب الذى تلتهب به العواطف وتجيش به النفوس بعد أن تحفزها دواعيه الخاصة .

وفوق هذا فقد كان الأدب أرستقراطى النزعة أو على الأقل فان أدب ابن شهاب من هذا القبيل .

فان هواء مصر نفحه بسبع عشرة قصيدة ، منها ستة عشرة قصيدة قالها مدحاً فى الخديوى توفيق باشا . وقال القصيدة السابعة عشرة مرثية فى زوجته المتوفاة بحضرموت وقد بلغه نعيها وهو بمصر .

ولعل فى المضى إلى استعراض أدبه وهو بمصر ما يضئ لنا السبيل إلى التعرف عليه ، رغم أننا لا نعرف شيئاً عن الأسباب التى جعلته يحجم عن تقديم قصائده للخديوى توفيق كما نص على ذلك ديوانه . وما نخال إلا أنه وقد عارض بها الأرتقيات كان يؤمل أن تتاح له الفرصة فيكملها ٢٨ قصيدة حسب الحروف الهجائية ، ثم يقدمها دفعة واحدة ، وبهذا تظهر قوة معجزته الشعرية لأنه فى وسط شاعر عظيم :

ماذا فى معارضة الارتقيات من صفاتها الشاعرية ؟

ناهيك بأدب يسمو به قائله لاقتعاد الذروة العليا بين أعلام الأدب والشعر أن يكون حرا طليقاً من كل قيد أورثته لنا عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ما عدا ما لا يستقيم

الأدب بدون التمسك به من حسن الصياغة وقوة الأسر والديباجة العربية المتينة ، إلى ما يتصل بذلك من المعانى التى تجيش بها النفس بعد اكتمال اختمارها كما هو شأن كثير من الشعراء المبرزين .

ولئن تم لابن شهاب فى معارضة الأرتقيات حسن الصياغة والديباجة العربية كما أسلست له الشاعرية قيادها حيناً وأفاضت عليه بعض معانيها العظيمة ووافاه القريض بما يعد من آيات الوصف ، فان لالتزامه طريقة العسف الشائعة فى عصره ما حد من شاعريته كثيراً .

ولو تغنى بالشعر كما تقتضيه الطبيعة والسجية كما تغنى به فى قصيدتيه (١) :

لذى سلم والبان لولاك لم أهوى
ولاازددت من سلع وجيرانه شجوى

والتى يقول فيها :

يصبحهم من صحبه بفوارس
يرون مذاق الموت إن جالدوا حلوى
يخوضون لج الهول علماً بأن من
نجا من حتوف الحرب تقتله الأدوا

أو (٢) :

دعتك ـ لك البشرى ـ إلى عرشها أسما

. . . .

وكلا القصيدتين من يقظة الشاعرية بعد الهجرة من حضرموت ، لكان لنا من أدبه منبع لا يغيض ، ولوافته المعانى الفياضة بما لا دعته إليه الضرورة القاهرة .

وعلى كل فان وظيفتنا دراسة أدبه لا التحكم عليه فى الاختيار . قال :

جد بالمعتقة التى لم تمزج
واجل الدجى بشعاعها المتأجج
جنى بها صهباء صب عصيرها
فى الكوب آدم قبل يوم المخرج
جرت الارادة أنها من ذلك الـ
ـعهد القديم تصان عن متزوج
جريالا احترقت بحدة طبعها
فكأنها لم تغل أو لم تنضج
جاء الأوان فقم لفض ختامها
واشف النفوس بنفحها المتأرج
جدد بها الأفراح إن سميرنا
لتناول الأقداح ذات الهودج
جام يدور ومزهر نسلو به
وزهور ورد غضة وبنفسج

---

(١) ديوانه صفحة ١٨ .
(٢) ديوانه صفحة ٦٥ وسنعرض لدراستهما فى موضع آخر .

جمعت لدينا اللذتان بمجلس
صهباء صافية وربة دملج

جن الدجى فجلا ضياء جبينها
وسنا الطلى جنح الظلام المدلج

جمحت إليها النفس لما عاينت
منها مشوب فكاهة بتغنج

جنحت إلىّ وكأسها فى كفها
ورنت مسلمة بطرف أدعج

جاذبتها ملح الهوى وبثثتها
شكوى الغرام وحره المتوهج

جزعت لما علمت به من حالتى
وتأوهت لنحول جسم مزعج

جذبت لتجبر صدع قلبى نفسها
نحوى فبت بطول ليلتها شجى

جادت بما أهوى وجاد الدهر من
لقيا العزيز بما أروم وأرتجى

جم المفاخر صاحب السيف المهـ
ـند واليراع وخير كل متوج

جلت مكارم نجل اسماعيل عن
تشبيه خالص تبرها بالبهرج

جالى قتام المعضلات إذا دهت
بثواقب الرأى السديد الأبلج

جز حول ساحته الفسيحة تغن عن
كل الملوك وباب رأفته لج

جود الملوك بمقتضى شهواتهم
ولجوده الباب الذى لم يرتج

جهراً يقال لمن يحاول منهم
علياه هذا غير عشك فادرج

جاءت به الأيام فردا كاملا
وبمثله أم العلا لم تنتج

جاز السماك ترقيا وعلى سرى
فلك اقتناء المجد غير معرج

جرّت به مصر ذيول فخارها
وغدت مدائنها ملاذ الملتجى

جور النوائب آيس ممن غدا
فى سوحها المأنوس يذهب أو يجى

جلبابه زرد الحديد لدى الوغى
والمستقر صها بنات الأعوج(١)

جمعت لنصرته الجيوش فهم له
كالأوس فى غزواته والخزرج

جولان خيلهم يذكرنا إذا
زفرت لظى حرب فوارس مذحج

جزمت عواملهم رقاب عدوهم
حتى ينيب إلى قويم المنهج

على عبود العلوى

---

(١) فى هامش الديوان ما نصه :
الزرد : الدرع . والصها بضم أوله جمع صهوة : مقعد الراكب ، وبنات الأعوج : خيل من نسل الأعوج فرس مشهور .

٤

البـــحيرة

من سار فى الأرض مهلا تحدثت إليه الأرض بشئ من أسرارها . ومن مشى فى الأرض قويا فتيا جاوبتـه منازل فى الأرض بأجمل ما يرى وما يسمع ، ويشهد فى يقظة الصحو ما تأتى به الأحلام من صور عابرة خاطفة ، وأخرى تمر به متمهلة كمر السحاب ، وهى تلازمه وتتجرد عنه كلما تجاوزها من سفر إلى سفر . وفى حياة الانسان خاصة أن تمر به الحياة فلا تأتى بجديد ، وإن سار فى الأرض جاءته كل لفتة بجديد . وفى بعض ما يشهد صور لم يترقبها فتأتى بما لم تسر إليـه أحلامه من صور الحياة .

وهو يتزود بظلال فى الضحى ونسيم فى الآصال ، وسلام فى العشى ، وهو يمضى « أخاً سفر جواب أرض ، تقاذفت به فلوات »، وتتلطف آثار حياته فيفنى فى بعض الأرض بلفتة مطرقة إلى نبع أو نور ، ويصغى لأبعد مايرسل فى الليل نبح كلابها ، ويتزود « من شميم عرار نجد ، فما بعـد العشية من عرار » . وتتلطف آثار حياته حين تقلع به سـفينة من الأرض التى يحب فيملأ عينيه بآخر ما يبصر من لونها قبل أن تتوارى فى حجاب الفضاء ، ويصغى إلى ما يتجاوب بينه وبينها من فـكرة ، وتتلطف آثار حياته فتتجرد من كل غشاوة وترتد إلى نبعها الأصيل الذى نبعت منه آمالها وعزماتها ، ويهز قلبه طرب حين تنفذ آثار الطرب إلى أصول حياته ، ويمضى فلا يكون إلا فـكرة ، والفكرة أشد نفاذاً من النسيم وأبعد بصيرة من كل شئ .

ولا يبلغ شئ جمال الفـكرة التى تلقاك حيث تـكون بآثار الذين زودوا حياتك بالحياة وبالخير . . . فى جانب من باطن الوادى قرية مصرية تحمل منها الفكرة كلما جاء ضياء النهار . وحيـاة الآمنين من شيوخهـا وهم يغدون إلى الصلاة بما بقى فى نفوسهم من قوة ، ومنهم من آمن بالخير إيماناً مطلقاً حتى يستطيع أن يعطى بيمينه ما تجهله شماله ، وأن يعيش بينه وبين الله بارا تقيا ، ويعيش بينـه وبين الناس « أباً لمن لا أب له وأما لمن لا أم له » . ويفشى السلام بين الناس.

ويعيش هذا الشيخ فى طيات الفكرة ثم يمضى فلا يكون إلا ظلا ، وتأتى الفـكرة بالظل حين لا يكون إلا أثراً نبيلا عزيزاً من آثار الانسانية

التى رعت نباتنا صغيراً ووقته بنفسها أن تأتى عليه عادية من العوادى .

وتسمع الفكرة تحية الرائحات والغاديات من النساء وكثير منهن قد أمسى ظلالا فى طى الفكرة ، وكثير منهن يستطيع أن يلقى الله بمثل ما لقيته المصرية الأولى « رب إنى لم أبرح سبيلك منذ ولدت إلى أن عرضت عليك ؛ فقد عشت بارة بوالدى وفية لرجلى ، محبوبة من الناس أجمعين ، لم أعط عن رياء وإنما كسوت العارى وأطعمت الجائع فى عام الجدب وواسيت الناس جميعاً بقلبى » .

وتأتى الفكرة بأقران يغدون وراء دوابهم إلى زروعهم ، ويروح آحادهم وفى أيمانهم نبات تتبعه صغار أنعامهم ، وإن سنح عن هذه القرية ويل ، فليس يشغلها إلا صلاة وزرع . . .

ثم يصح نهار وتطيب نفس ويقبل صحو بحياة وقوة ، فتتبع الفكرة آثار الأحلام التى تزين آفاق حياتنا حتى تكون لزوماً وتنشر هذه الآفاق ثم تزول ، ولا تكون الصحراء فاتنة حتى تشرف من آفاق الرمال على ماء . وما بال الناس إذا التقوا فى ركب ، سأل كل صاحبه عن محط رحاله ، فكأنما يريدون أن يشهدوا آفاق الأحلام التى شدوا إليها رحالهم . . .

هنالك أفق من وراء ليل ونهار يجمع ما يجمع ثم نسرى إليه .

وكذلك ثبتت الفكرة السعيدة من آثار الانسانية العزيزة النبيلة وتشرف فى آفاق أحلامها على ما تشتهى من آثار الانسانية النبيلة العزيزة وكأنها لا ترى غاية للخير أجمل من أن ترد لنفوس محبوبة أجمل آثار حياتها . وما نشهد فى الأرض من آيات الجمال أبعد أثراً فى إظهار نفوسنا من المرآة التى لا تكشف إلا ظاهراً ، وتبصر فى جانب البحيرة عالماً من الذكر والأحلام لا تكشفه المرآة وهو أشد أثراً فى حياتنا من أى شئ ، وهو أعز أثراً على حياتنا من أى شئ .

وأجمل آثار الجبال أن يستثير ما سكن من جمال الذكر ويرسل ما عز من جمال الأحلام . وترى الشمس إذا غربت رقت سطوتها عن مروج الجبل ، وانبعث من رقتها نسيم عليل ينطلق فى كل شئ انطلاق الطفل الذى ينهض فرحاً ثم يتعثر فى نهوضه .

وتتماوج فى الأبصار طبقات ممتزجة من خضرة المرعى وبياض الضياء ، وتتمهل الشمس عند أقصى قمة ليبلغ كل قصى مأمنه . ونجد فى حياة النسيم ما يجد الفتى القوى الذى يشب سعيداً

إلى حياة الذين سعدوا به وبحياته ، وحينئذ تقبل الفكرة بآثار عزيزة من من آثار الانسانية وكأنما تتهافت عليك وتحف بك وتنهض بنهوضك وتصحبك سعيدة حتى تبلغ مأمنك . وتسارع إليك هذه الآثار لتعصمك من زلل وترعاك من أذى ، وتبدل حرجك فتجعله يسيراً ، وتعز وحدتك فتجعلك كثيراً ، وهى التى تترقب ثمار آمالك وجمال حياتك وما تشتهى أعماق نفسك من رجاء . . . وحيثما أقامت هذه الآثار ارتد كل شئ سعيداً ، وسمت إنسانيتها حتى صغر بجانبها كل جمال فى الأرض ، وصخور إيتاك — كما يقول شاتو بريان — كانت أعز على تلياك من كل جنة فى الأرض .

وتمضى وحيداً فى وهاد يتدفق فى أعماقها نهر وتتلوى سبلها وتتقارب جوانبها العاتية . . . ويخترق ظلها الكثيف ما تيسر من بياض الشمس . . . حتى تكون وسط النهار فى أعلى الوادى ، فتتسع رحابه وتمتلئ أحضانه بدافق حياة الشمس ، فيلقى ضياء الشمس الناعم الرحيم مروج خضر لينة ، يسارع فيها نهر كالقناة بماء قد تلون بخضرة الجبال وزرقة السماء فتراه حيا مزهراً . . . وتميل إليك الغاديات والرائحات بمرح الحياة والشباب ، ويسرى فى كل نسمة نعيم ورضا فتتلفت من بين يديك ثم ترتد فتتلفت من ورائك لتمسك عليك ما أدركت من جمال ، ثم تبلغ بنشوة الحياة ثلاث بحيرات عند قرية سانت موريتز قد تغنى بها نيتشه حتى سميت إحداها باسمه . ويكسو صحاف هذه البحيرات الوادعة الخضر سلام عميق وحياة . فإن نشرت قلاع فوقها أيقنت أنها جمعت قلبين حبيبين أقبلا من أقصى الأرض ؛ لأن للحب معابد حيث تجلو الطبيعة جمال الحياة وحينئذ لا تكون الحياة زماناً وكفى ، وحينئذ تنهض الفكرة فلا تكون إلا حلماً جميلا عزيزاً من أحلام الحياة .

وبحيرة لوكارنو ذات جمال وجلال ، وهى تمتد بين سويسرا وإيطاليا بسلام وأمن . . . وكأن الطبيعة والانسان قد صارا شريكين فى آثار الحياة ، كلاهما ذو قلب جميل وتسرى فيهما نسمات من الانسانية والفن ، فلا يعجلان لشئ ولا يفزعهما الزمان فى شئ ، ولا يشرق القمر من رأس الجبل حتى تسبقه رسل من ضياء تبدد ما تستطيع من ظلام الليل ، وتسمع فى سكون الليل من طرف البحيرة كلاباً تنبح نبحاً غير مضطرب فيتماوج

نبحها فى فضاء البحيرة ثم يتلاشى ، ويقبل على جفنيك نوم ناعم فتسمع بين النوم واليقظة فتى خرج بقاربه فى ضياء القمر ليجاوب الطبيعة بغناء يطرب له كل سمع .

وأجمل من كل ما أبدعت الطبيعة من جمال أن ترى حول هذه البحيرات والجبال أمة من الناس قد حققت صورا رائعة من صور العدل .

وقد يبلغ جمال العدل إشراق النهار وميل الأصيل كما يقول أرسطو ، فلا ترى فيهم سائلا ولا محروماً ولا أميا ولا مريضاً يجرر تعاسته فى الطريق العام . وهم أول أمة سنت قانوناً لحماية اليتيم ورعاية الكهول ، ولا تخاف بينهم من سارق أو معتد ، ولا تستشعر احتقاراً ولا علوا ، ويسرت للانسان عزته وكرامته ، فحيثما تجد سائلا أو محروماً فاعلم أن من وراء ما ترى سارقين ومجرمين . وليس ينهض العدل نصيراً وظهيراً للضعفاء وحدهم ولكنه يحمى الأقوياء بأعز ما يحمى به الضعفاء . فالانسانية جزء متماسك متكامل يشد بعضه بعضاً . ومن يجهر بسعادته بين الاستياء وبقوته بين المرضى فقد تجرد من كل شعور بالمروءة والانسانية . ومن أصدق حديثاً عن العدالة من سولون مشرع أثينا :

« إن مدينتنا لن تبيد بقضاء من قضاء الله ولا بحكم من أحكام الآلهة السعيدة الخالدة ؛ فان الله حرسها « بيلاس أثينيه » التى تبسط من فوقها يديها من كبد السماء . . . وهى إلاهة من أب ذى بأس ، ولها قلب كبير عال . . . وإنما يريد أن يهلك المدينة المجيدة أبناؤها أنفسهم حين يذهب رشدهم ويستمعون لغواية المال . . . ويريد أن يذهب بها أيضاً قادتها حين يستهويهم البغى ، فلا يلقون من طغيانهم وشططهم سوى عذاب أليم . . . فلا هم يعلمون أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة الكبرياء ، ولا هم يجعلون سعادتهم فى سلام ما قسم لهم ، وهم يمسون أولى مال بما يسارعون إليه من آثام وظلم ، ولا يعفون عن مال المعابد ولا يتنزهون عن مال الدولة ، وهم يستبقون أيهم أكبر نهباً وسلباً . ولا هم ينظرون إلى عرش العدالة السامى التى تمهل ساكنة وهى تطلع على ما كان وما هو كائن ثم تنزل ساعة لتضرب على أيدى الظالمين . فيمس المدينة جميعاً بعدها قرح لا نجاة منه ، فتقع تحت أقدام العبودية الظالمة ، وتوقظ فيها فتنة التحزب وتسعر فيها نار الحرب بين العشيرة والأهل

وتأكل الفتنة والحرب شباباً كثيراً فى زهرة الحياة المحبوبة ، ويسارع أعداء هذه المدينة العزيزة فينهكون قوتها فى مواقع غالية على الذين ظلموا .

وتدور هذه الشرور على أبناء الأمة فيفر من وجهها طوائف من الفقراء إلى بلاد غريبة ليسقطوا فيها فى أكبال العار والخزى .

وهكذا يلج بلاء الوطن على كل امرئ فى داره ، فتأبى حتى أبواب الدار الداخلة أن ترده ، ويثب إلى البروج الشاهقة ، ويدرك كل امرئ ولو هرب فى أعماق حجرته .

« وذلك الذى دعتنى نفسى أن أعلمه الآثينيين — كلما ساء العدل فى المدينة جاءها بلاء كبير وشر . والعدل يزين كل شئ بجمال ووئام ، ويغل المظالم بأغلال وأكبال ، ويذلل كل وعر ، و يمحو الجشع ويقضى على البغى ، ويوبس زهور الشطط النابتة ، ويقوم عوج الأحكام ويمحو آثار الكبرياء والتعالى ، ويذهب بريح الشقاق ، وينزع أحقاد الخصام الأليم ، ويعيش فى ظلاله كل امرئ فى وئام ووفاء . »

على حافظ

CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

شهرية الفلسفة*

لا يمكنك أن تتصور أو تدرك موقف الفلسفة المعاصرة الا على صورة أزمة من الأزمات . فالفيلسوف لم يعد يعرف ما هو عليه بل ما هو فاعله ، وقد طغى الوجود عنده على الفكر . ويجتاز العالم بأسره اليوم تجربة ديكارت ؛ فقد مل قراءة جميع الكتب وارتياد كل البلاد ، وأخذ يشك فى الآراء جميعها والمعارف كلها ، وزعزع الفروق الاجتماعية ، وانطلق يبحث فى صفاء ذهن مجرد من الأمل عن نقطة ثابتة يستطيع أن يحول منها مجرى الكون ، وأن يخضع لها نظام أفكاره .

إن الفلسفة تجتاز أزمة محكمة ؛ فأسس المنطق بدأت أزمتها على أثر تقدم العلوم واستكشاف نظريات الهندسة غير الاقليدية ونظرية إلشتين . أما أسس الجمال فقد عرفت الأزمة منذ تسرب مذهب السيريالزم إلى الفنون . وأخيراً أدى التحليل الذى قام به ماركس وفرويد على التوالى لعمليات الحياة الجماعية والفردية اللاشعورية ، إلى فقد علم الأخلاق آخر أركانه الثابتة . وقد أفزعت هذه الأزمة الأخيرة التى تولى نيتشه الحديث عنها قلوب الفلاسفة ، حتى إنهم لزموا الصمت حيالها ؛ ونجدهم فى فرنسا قد تواروا خلف ثلاثة من الأدباء هم : أندريه جيد ، وأندريه مالرو ، والبير كامو .

بل إن هناك ما يهدد وجود الفلسفة نفسه . وهل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك ؟ فكل مرة يكون الانسان فيها موضوع سؤال ، تكون الفلسفة هى أيضاً موضوع سؤال . ما مصيرها ؟ وما مصيره ؟ إنها مشكلة واحدة . والفلسفة كثيراً ما استشهدت بالناس ، أما الآن فالانسان هو الذى يستشهد بالفلسفة . إن هذا الاستعراض الفلسفى يرمى إلى تقديم الأدلة والاستشهادات . وقد روعى فى اختيار موضوعاته أن تكون متصلة بهذا الموضوع المركزى : استمرار الانسان أو تحوله ؟

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

بيان حالة علم النفس المعاصر

كان طالب الفلسفة قبل الحرب شديد الكلف بعلم ما بعد الطبيعة . وكان يعتبر مسألة طبيعة الأفكار وطبيعة الحكم مسألة جوهرية . وكان يدعى أيضاً أنه يرى العالم على صورة خاصة يريد أن ينقلها إلى غيره . وكان أستاذه فى ذلك أحد اثنين برنشفيج أو برجسون . وكان يرى أن فضيلة التنزه عن الغرض تتفق خير الاتفاق مع المجادلات الفلسفية وحدها ، حتى لقد كان يفخر عند ما يصبح أستاذا بأنه لم يعلم أحداً شيئاً كان ذا فائدة فى الحياة العملية .

وعلى أثر نشوب الحرب وما ينجم عنها بلا شك من عودة إلى كل ما هو إنسانى ، ظهر مثل أعلى آخر للفيلسوف ألا وهو السيكولوجى العملى ، Le psychologue concret ، فنجد عدداً متزايدا من الشبان يقبلون على دراسة الطب والفلسفة معاً ، أو هم يريدون على الأقل أن يتلقوا ثقافة سيكولوجية تربوية . فهم يشعرون فعلا بحاجتهم أولا إلى الطرق الفنية التى تضمن لهم النجاح فى ممارسة مهنتهم ، وبحاجتهم ثانياً إلى الدقة العقلية التى تجعل من الفلسفة علما صحيحاً . وأساتذتهم فى ذلك هم الأطباء النفسانيون وعلماء التحليل النفسانى أمثال جانيه وفالون ولافورج ولاجاش وجوليت بوتونييه ويياجيه ولاكان . فتراهم ينظمون الاجتماعات مع أطباء الامتياز فى المستشفيات السيكياتريه ، ويطلعون على طرق التوجيه المهنى .

ما معنى مثل هذا التطور ؟ إن الفلسفة آخذة شيئاً فشيئاً فى الابتعاد عن دراسة الكون والروح أو الله ، واتجهت إلى دراسة الانسان أى إلى الانتروبولوجيا . لقد ورثنا بدون شك عن الحكمة القديمة القاعدة الذهبية القائلة : « اعرف نفسك بنفسك » . ولكن هذه القاعدة التى أملتها أغراض خلقية ، بقيت نظرية مجردة . والقاعدة الجديدة لعلم النفس الحديث هى معرفة الغير معرفة محسوسة Concrete وقد دلت البحوث الأخيرة على أن الطفل الصغير يشعر بوجود الغير قبل أن يشعر بوجوده هو نفسه . والظاهرة الأساسية فى الحياة البشرية هى أن وجودنا حادث بين أشخاص آخرين ، ومن ثم نشأت النظرية الوجودية لجان بول سارتر .

كانت الفلسفات السابقة جميعها فلسفات عزلة تقريبا ، وكانت دراسة الميتافيزيقا مقصورة على طبقة خاصة . أما علم النفس الحديث فيريد أن يكون كالحضارة الصناعية ووسائل النقل فيها ، فى متناول الجميع . فهو يهتم بالطفل وبالرجل البدائى ، وبالمصاب بمرض عقلى وبالعاقل ، وهو ينفذ إلى كل البيئات وكل الأعمار وكل الأجناس . أليست معرفة الغير خير وسيلة للفرد لكى يندمج فى أسرته ومصنعه ووطنه ؟ فالفيلسوف الحديث لا يحلم فى أن يكون عالماً فى المنطق أو شاعراً ، بل فى أن يصبح طبيباً ، طبيب العقول والجماعات .

إن أزمة علم النفس الحالية تطغى على كل ما عداها من أزمات ! إن تعلما خلقيا صحيحاً لا يكون مثلا مستطاعاً إلا إذا درست طبيعة الانسان. وقد بدأت هذه الأزمة منذ عشرين عاماً على أثر ظهور كتاب بوليتزر Politzer « نقد أسس علم النفس » *Critique des fondements de la psychologie* الذى لم يظهر منه إلا جزء واحد من ثلاثة الأجزاء التى أعلن عنها . وكانت فكرة علم النفس العملى تسيطر على بوليتزر بقوة إلى درجة أنه عدل عن بحوثه التى كانت لا تزال نظرية ليناضل وسط الحزب الشيوعى . وقد نشبت منازعات مذهبية بينه وبين ذلك الحزب قبل الحرب مباشرة ، وأخيراً قتله الألمان لنشاطه فى المقاومة السرية أثناء الاحتلال . وكان بوليتزر أول من كشف وسط فيض طرق علم النفس الجديدة ، عن الطرق الثلاث التى تعتبر أكثر الطرق إدراكا للحقيقة وأعظمها مستقبلا ألا وهى : التحليل النفسانى ، وعلم النفس الشكلى ، وعلم النفس السلوكى .

ومنذ ذلك الوقت صادف علم النفس الشكلى (ويسمى بالألمانية Gestalttheorie) أعظم نجاح ، وأدى إلى ظهور سلسلة من أهم المؤلفات للاستاذ بول جيوم ، حتى أصبحت كراسى الكليات ومعامل البحوث مقصورة عليه . فبفضل فكرة « الشكل » أى الكل أو المجموع أدت هذه الطريقة خدمة جليلة وذلك باقصاء علم النفس الميتافيزيقى التقليدى الذى كان ينسب حياة العقل إلى ذرات ذهنية تشبه فى تركيبها وتجمعها المركبات الكيميائية . إن « الكل » يحتوى على أكثر مما يحتوى عليه أى جزء من الأجزاء ، ذلك هو جوهر نظرية Gestalttheorie . إن القطعة

الموسيقية شئ ونغماتها المتعاقبة شئ آخر، وكل نغمة داخلة فى القطعة أكثر منها لو كانت وحدها؛ فالنغمة تتغير بتأثير النغمات التى تسبقها والتى تعقبها، فهى تساهم فى مجموع القطعة الموسيقية. والادراك كذلك هو نظرة إجمالية كلية، لا نظرة إلى التفاصيل متراصة تحت المجال البصرى. ولاتدرك أول ما تدرك العناصر غير المنتظمة بل الصور الشبيهة بالأشكال الهندسية الأولية. ويقوى الادراك وينمو بنظم الأشكال الأولية داخل بناء Structuation تزيد دقته شيئاً فشيئاً. كذلك الغريزة والعادة والذاكرة والتفكير واللغة كلها منظات إجمالية لأفعال وذكريات وأفكار، تتميز بالتحامها وتداخلها، إنها إطارات تكيف ما تحيط به. وعلى ذلك يكون الذكاء هو القدرة على الترتيب والتصنيف. فالكل يسبق دائما الأجزاء.

والصعوبات التى تلقاها تلك النظرية خاصة بطبيعة هذه «الأشكال» هل هى منشآت Structures طبيعية ناتجة عن الأشياء ذاتها، أم هى بالعكس نتيجة نشاط العقل ويجب اعتبارها قوى توازنية؟ إن المشكلة على جانب كبير من الأهمية. فالاتجاه فى الحالة الأولى اتجاه مادى ويكفى أن تطبق على الانسان نتائج الاختبارات التى تجرى على القرود والجرذان. وفى الحالة الثانية يكون الاتجاه روحياً وتقف نظرية Gestalttheorie عند حد الأوتوماتسم أى الآلية الذاتية. وعلم النفس الحديث لا يخرج عن إحدى اثنتين: المادية أو الروحية.

وميزة علم النفس السلوكى Behaviorism أنه ينتصر من غير ما تردد للحل الأول. وقد عرَّف الأمريكى واتسون قاعدة هذا الحل، وهى أن النشاط الانسانى كله ناتج عن الخصائص العامة للخلية الحية. وهو يحدد دراسة هذا النشاط بدراسة أنواع السلوك التى تظهره، متجاهلا النظرية القائلة بأن هناك ظواهر خفية عن الشعور تتفق مع أنواع السلوك هذه. وقد استنتج الروسى بافلوف من ذلك منهجا عاما يفسر به السلوك ابتداء من الفعل المنعكس المكيف Reflexe conditionné، فهو يرى أن حياة العقل تتكون من مقاومة الأفعال المنعكسة البدائية وصدها أو تحويلها إلى موضوعات جديدة. وما نمو الحياة العقلية إلا تجمع وتنوع هذه الأفعال المنعكسة.

إن هذه النظرية تتضمن منهجا ممتازا وتشمل فرضا فيه مجازفة: أما

المنهج فهو أن تراقب الغير وهو يعمل بدلا من أن تحلل ذاتك ، إن فى ذلك خير وسيلة لمعرفة الانسان . أما الغرض فهو أن تشبه أرق وجوه النشاط العقلى بطرق تربوية dressage أولية . ألم يُجر بافلوف اختباراته كلها تقريبا على الكلاب ؟

لهذا السبب نرى أن التحليل النفسانى هو وحده بين الطرق الثلاث لعلم النفس الحديث الذى يقربنا حقيقة من عالم المحسوس . وقد أفرد له بوليتزر الجزء الأول والوحيد من مؤلفه . ومنذ فرويد أخذ التحليل النفسانى ينمو نموا مطردا سريعاً جعل منه علما قائما بذاته يضم عددا كبيرا من المذاهب ومجموعة من المناهج . إنه علم لأنه يدرس عادة بتحليل تعليمى didactique ، ولأنه استكشف مجموعة من الحقائق المتماسكة كالميل الجنسى عند الأطفال وعقدة أوديب ورمزية الأحلام والعادات الشعبية folklores ومنشأ الأمراض étiolgie وعلاج الأمراض العصبية névroses . غير أن الناحية المشتركة بين هذا العلم والعلوم الأخرى هى صحة نتائجه فقط . إن الروح التى يتطلبها من العالم تختلف كل الاختلاف عن غيرها . فبدلا من أن تتلاشى شخصية المحلل خلف الحقيقة نجده يخوض بشخصيته كلها فى سبيل الكشف عن هذه الحقيقة . وهو أبعد من يقيم بينه وبين الأشياء حاجزاً من الاغفال وعدم الاكتراث ، بل يكون الاتصال مع الغير وجها لوجه ، فنجد الاثنين الطبيب والمريض يكونان مجموعة من القوى الفاقدة الاتزان ، ومجموعة من الاتصالات الخفية يحاول الطبيب بها أن يطهر المريض من شياطينه الداخلية ومن خطاياه محملا نفسه وزرها بطريقة رمزية ، ويجد المريض فيها قوة المثل العليا التى كان يتصورها ، فيعكسها على الطبيب .

فالمحلل والمريض أشبه بشخصيتى مأساة يحاول كل منهما فيها أن يقرر مصير الآخر . والعلاج هو نوع من المغامرة تنتهى بأن يكسب المريض الذى خلت مشاكله الخاصة صداقة معالجه وأن يحتفظ بها ؛ أما المريض الذى يفضل على مجهود العلاج التواطؤ مع دائه ذاته ، فهو يحول على الطبيب البغض الذى يشعر به نحو نفسه . فمن هذه الوجهة يعتبر التحليل النفسانى أثراً فنيا أكثر منه علما ، وهو بذلك يؤيد كل التأييد رأى القائلين بأن علم النفس الحقيقى كان يشاهد لا فى آثار الفلاسفة بل فى القصص

والتمثيليات وفى ما كان يلهم به قادة الجماهير . وإذا لم يكن علم النفس قد أفاد حتى الآن شيئا ، فقد أتيح له اليوم كسائر العلوم الأخرى مجال التطبيقات العملية ، وقد استطاع بوساطة التحليل النفسى أن يسترد قدرته الخاصة ويحدث أثره المرجو فيسلم للعلم آخر ما امتنع عليه من حصون ، ألا وهو القلب البشرى .

وأول نقطة ملحوظة فى هذا التقدم الأخير للتحليل النفسى هو التوسيع الذى أدخله فرويد نفسه على نظريات أيام الشباب . والكتاب الذى ظهر منذ عام لجوليت بوتونيبه وعنوانه «القلق الشديد» *L'Angoisse* يعتبر كشفاً فى هذا الباب بالنسبة لجمهور المثقفين . فهو يتضمن صورة كاملة للغرائز ، رسمها فرويد قبل موته بأيام ولم تكد تنشر . كان فرويد فى أول أمره يرجع حياة العقل اللاشعورية كلها إلى مظاهر الغريزة الجنسية فحسب أو إلى محاولات استخفائها أو التعويض عنها ، بل قد اكتشف أيضاً أن هذه الغريزة تستقر فى الفم ثم فى الشرج قبل أن تتركز فى الأعضاء التناسلية . والانحرافات الجنسية التى يروى التاريخ والأدب أمثلة شهيرة عنها ترجع إلى نمو الغريزة الجنسية نمواً ناقصاً وتثبيتها عند مرحلة الطفولة . وقد حملت دراسة حالات النرجسية — أو عشق الذات — فرويد على التفكير فى الناحية الأخرى من الغريزة الجنسية ، وهى ليست سوى غريزة حب البقاء . كما اتضح أخيراً أن القلق الشديد وفقدان التوازن ، والمغالاة فى التهجم أو فى النكوص ، هى إحساسات لا يمكن أن يخلو منها الحب érotisme . فكان لا بد أن يهتدى فرويد إلى الحقيقة الواقعة وهى أن الانسان يحمل فى نفسه من الحقد بمقدار ما يحمل من الحب ، وأن روح التدمير مستقرة فيه . إن غريزة الموت وغريزة الحياة لتسكنانه وكلتاهما مزدوجة التأثير ، فتارة تتجهان نحو الغير وطوراً تنحصران فى الشخص ذاته . فغريزة الحياة هى حب بالنسبة للغير وبقاء بالنسبة للذات . وغريزة الموت تتحول من البغض إلى القتل فى الحالة الأولى، ومن سأم الحياة إلى الانتحار فى الحالة الثانية . وتفسر الشخصية عندئذ بالنزاع بين الاتجاهين . ألا تنحصر قصة أى إنسان فى حياته وموته ؟ أو ليست قصة الانسانية كما رآها الفيلسوف اليونانى ديمقريط منذ خمسة وعشرين قرنا هى قصة النزاع بين الصداقة والعداوة ؟ إن اختلال

التوازن النفسى لا يكون حتما نتيجة انحراف جنسى . فالعنف ضرورى لتكوين الرجل ، غير أن الحب يجب أن يتغلب على العنف . إن الغرائز لا تمحوها تربية صالحة ؛ فبعضها تظل كامنة إلى أن يأتى يوم تنفجر فيه ، غير أن التربية تخضع تلك الغرائز لغرائز أخرى . ونحن نجد فرويد يفعل كما فعل أفلاطون فيما مضى ، نراه يحشد القوى ليثير من جديد معركة إيروس وثاناتوس . فالفيلسوف الحق مثل الطبيب الحق ، يريد كلاهما أن يشفى الانسانية من الموت .

إن البغض الآن أهم موضوع يدرسه علماء التحليل النفسانى . وقد أفرغ له باروك مدير المستشفيات النفسانية بمدينة شارنتون كتاباً له ظهر حديثاً عنوانه « انفعالات البغض والاجرام » *Réactions de haine et de culpabilité* ويرمى هذا الكتاب بطريقة غريبة إلى إقامة الدليل التجريبى على وجود الضمير الخلقى Conscience morale وقيمته . فكثير من المرضى يرجع مرضهم إلى غلطة شخصية قد تكون أحياناً وهمية صرفة ، يكفى أن يشعر الضمير أنه خالف نفسه . وإذا كان الذنب لا يتمثل غلطته كما يجب ليجعل منها غلطة غير ذات ضرر ، وإذا كان يحدث نفسه أن ليته لم يرتكب هذه الغلطة مع معرفته بأنه مرتكبها ، وإذا كان يود أن يعمل ألا يكون ماضيه ما كان ، فهو يتحول من مأزق خلقى ليقع فى حصار نفسى obsession ، ويشتد مقته شيئاً فشيئاً وينصبّ إما على نفسه وإما على الآخرين ، وفى الحالة الأولى يعذب نفسه مبالغاً فى تعذيبها ، ويصبح سارقاً أو قاتلا ليعاقب ذاته بهذا التدهور الخلقى ، ثم ينتهى به الأمر إلى الانتحار ، وفى الحالة الثانية يحمل الآخرين تبعة خطئه وحقده ، ويرى العالم كله شريراً ويعتبر نفسه مضطهداً فيعزم على رد الشر بالشر ثم يتردى فى أعنف حالات الجنون . وهكذا يُسبغ الطب النفسانى معنى جديداً على العقيدة القديمة التى كانت تعتبر الجنون عقاباً من الآلهة .

وأعظم ناحية من نواحى التقدم فى التحليل النفسانى تشاهد فى هذه الطريقة . فالطريقة التحليلية تكاد تختفى كلية لتحل محلها الطرق التأليفية synthétiques . فعملا بالطريقة الأولى يكفى المريض أن يستعيد ذكريات طفولته التى كان يحرص أشد الحرص على إخفائها ، وأن يلاحظ أن اختلاله

النفسى مرتبط بواحدة منها . غير أن الوقوف على أسباب المرض قلما يساعد المريض على التخلص من عادات تأصلت فيه مدة طويلة . إن مجرد استيقاظ الوعى لا يغير حياة شخص ولا يرده إلى الحالة الطبيعية . لابد أولا أن يعطى المقدرة على الحياة . إن التحليل النفسانى داخل غرفة الطبيب لا يساعد المريض على أن يتكيف التكييف الصالح مع بيئته الحقيقية . أما الطرق التأليفية فهى ترمى بالعكس إلى إعادة تكيف المريض Réadaptation مع بيئته ، مستغنية فى حالة الضرورة عن اطلاع المريض على أسباب مرضه . إذا كانت الصحة العقلية أو المرض العقلى نوعاً من توازن قوى واختلالها ، فواجب الطبيب أن يقر النظام بين هذه القوى . وخير وسيلة ناجعة هى التأثير بوساطة أحلام اليقظة الموجهة على الصور العقلية images mentales التى تعتبر رموزاً لتلك القوى : صورة الأب والأم ، صورة جسد المريض نفسه ، صورة الرجل الأمثل والمرأة المثلى ، صورة الطاغية ، صورة زوج الأب الخ . . . وقد أطلق ديزواى Desoille على هذه الطريقة اسم حلم اليقظة rêve éveillé وعرضها فى مؤلفاته . وهو يحقق بذلك آراء عالمى الطب النفسانى السويسريين يونج وبودوان اللذين كانا يقولان بأن الصور مراكز نشاط وأنها توجد على النمط نفسه عند كل البشر . فمن يملك زمام مخيلته يملك زمام إرادته . وكان ذلك فاتحة عهد جديد للنقد الأدبى فيما هو خاص بالشعراء . بدأه باشلار Bachelard بكتابه عن اوترياسون Lautréamont ومارى بونابارت بكتابها عن بو ، وبودوان بكتابه عن هوجو .

ليس فى الفلسفة إلا أزمة واحدة وإن تعددت مظاهرها ، ولكنها أزمة من نوع جديد ؛ فليس الأمر كما ألفنا أمر حضارة تنهار وأخرى تقوم على أنقاضها بل حضارة واحدة تسود العالم اليوم . والمشكلة أن نعرف هل شكل هذه الحضارة الذى لا مفر منه كفيل بالبقاء . والمشكلة الخاصة التى يواجهها علم النفس هى أن يهيئ الانسان للتكيف مع الآلات ووسائل الانتقال وأدوات التعامل بالأوراق المالية instruments fiduciaires ، ونظام الحياة وكل ما أبدعه هو نفسه. إن الانسان يحيا الآن حياة صبى الساحر الذى فتح على نفسه ثغرة لم يستطع أن يسدها ، وأصبح لا سلطان له على الأشياء . وإن الضرورة لتدعو الانسان اليوم إلى استعادة زمام الحضارة

والاتيان بما يحقق تقدماً جديداً .

يدرس البير كامو فى قصته الأخيرة نفسية سكان مدينة اجتاحها الطاعون ، ثم يسائل نفسه عن خير موقف يجب اتخاذه . من السهل أن يكون المرء تقيا فى عصور الرخاء والرفاهية ، أما الصعوبة فتنشأ عند ما يحاول المرء أن يقيم على ورعه وتقواه فى النوائب والشدائد . فالحل الوحيد هو مقاومة البلاء أشد مقاومة ولو كان هذا البلاء عقابا من السماء أو فترة محتومة من سير الأمور . وإذا كان العالم مصابا كما هو اليوم ، فلا بد للفيلسوف أن يضل إذا ابتعد عن علم النفس المحسوس ؛ فمن حقه أن يكون الطبيب المعالج لهذا المرض .

انقلاب داخل المسيحية : فلسفة الأب تيلار دى شاردان

لم تعد المسيحية تلك الفلسفة الصوفية التى كانت تفصل الانسان فصلا تاما إلى جزأين غير متجانسين : الروح والجسد ، محملة هذا الأخير عبء كل الخطايا واللعنات ، مبشرة الأول بالخلاص والنعمة والمجد . لم يعد الانسان هذا الإله المغضوب عليه الذى سقط من السماء ليعيش منفيا على أرض غريبة . ولم يعد المسيحى يقف نفسه على حياة التأمل ، بل أصبح له وباسم الدين نفسه أن يجارى العصر فى حركته واضطرابه ، وأن يكون فى طليعة التقدم المادى والنهوض السياسى . إنه يشعر بتمسكه بالأرض التى خرج منها شيئاً فشيئا . فهو يعد العدة ليتيح للانسانية أن تجتاز مرحلة جديدة من مراحل التطور البيولوجى ، ويجعل من الممكن La parousie أو عودة السيد المسيح إلى ملكه ثانية ، كما تنبأت بذلك الكتب المقدسة .

والأب تيلار هو الذى يريد أن يحقق هذا التكيف الضرورى للمسيحية مع العالم الحديث . وهو فى مراجعه واستشهاداته عالم لا رجل لاهوت . والأب تيلار مدير البحوث فى مركز البحث العلمى القومى Centre Nationale de la Recherche Scientifique وهو مدير المعمل فى مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Hautes Etudes à Paris ، والمستشار الجيولوجى للحكومة الصينية ، وهو غير ذلك أعظم عالم بيولوجى فى فرنسا . إن رحلاته الكشفية فى الصحراء الغربية وفى الحبشة وفى منغوليا —

حيث استكشف بقايا الانسان الذى عاش قبل التاريخ فى الصين — ساعدته على تكوين نظرية متينة بعد أن جمع كل الوثائق الخاصة بأصل الانسان ، ثم وسع هذه النظرية شأن كل عالم واستخرج منها نظاماً شاملا للكون يتضمن فى الوقت نفسه مستقبل الانسان وماضى النجوم . وهو لم ينشر حتى الآن شيئاً رسميا ؛ فالذين يحيطون بالبابا يكادون يعتبرونه خارجاً على الدين . ومع ذلك فكتاباته المكتوبة بالآلة الكاتبة يقوم على أساسها التعليم فى المدارس الأكليريكية الفرنسية . وهو منذ عام ينشر فى مجلة « بسيشى » *Psyché* سلسلة مقالات عن بحوثه العلمية والفلسفية .

« الاحساس بالأرض » *Le sens de la terre* . إن هذا العنوان العزيز على الأب تيلار يحمل معنى كبيراً . إن للمسيحى بطبيعة الحال مقدرة على إدراك الواقع ، le sens du réel بل إن نفراً متعاقباً من الأنبياء المفكرين يبدأ من أشعياء حتى بسكال ، حاولوا أن يجعلوا الانسان يعرض عن كل ما ليس إدراكا للواقع . غير أن المسيحى مدرك أيضاً للتطور البيولوجى، ومن هنا فقط يستمد قوته .

لقد دخل الانسان فى طور الصناعة والاجتماع socialisation . ولا تدل هذه الظاهرة على جبروت gigantisme الانسان أو رغبته فى أن يحيا حياة طفيلية ، إنما لها معنى بيولوجى بعيد الأثر . إن السير العام للكون يعرف بنمو الحياة أى بارتفاع قوة الوعى montée de la conscience ويؤكد الأب تيلار أنه استكشف القانون البيولوجى الأساسى وهوقانون الاختلاط والوعى Loi de complexité et de conscience . إن الوعى أو الشعور كان دائما موجوداً وهو خاصة عامة ملازمة للأشياء ، غير أنه لا يأخذ فى التأثر إلا عند درجة محدودة . والحياة قد كتب لها أن تعارض المادة ، وهى تنمو بقدر ما تتعقد المادة وتختلط . وانتظام الكائنات الحية انتظاماً آخذاً فى النمو يقابله ظهور الوعى عند الأفراد ونضوجه ، حتى ليمكننا أن نتمثل الكائن الحى مرموزاً إليه باهليج ellipse له بؤرتان إحداها للوعى والأخرى للاختلاط ، وكلاهما ينمو مع الآخر . ذلك هو القانون الأساسى . وهكذا انسلخت الحياة شيئاً فشيئاً عن الأرض وانفصل الوعى عن الحياة .

وقد بلغت البؤرتان أقصاها فى

الانسان . هل فى الامكان أن يكون هناك ما هو أشد تعقيداً من الانسان ؟ نعم الظاهرة الجماعية Le phénomène social.

ليست الانسانية كومة مجمعة agrégat ولكنها وحدة بنائية تختلف عن الأنواع الأخرى بأنها غير مفرقة أو متباعدة . إن الانسانية كلها تحمل صفات الانسان الفرد الذى هو كائن دماغى يدوى cérébro-manuel : فيده هى فى الوقت نفسه الآلة ووسيلة النقل التى تحدث اتصالا على الفور بين ملايين الأدمغة . ودماغه هو النفسية الكونية psychisme cosmique الناتجة عن تلك العملية ، والانسانية هى أيضاً إهليج ، له بؤرة تنظم فنى organisation technique وبؤرة وعى: وكثرة الطرق الفنية الحاضرة أبعد من أن تكون مصطنعة ، إنما هى استطراد للطبيعة ، بل هى أرقى من الطبيعة .

هل وصلت هاتان البؤرتان إلى حدهما ؟ إن القدرة التى يكتسبها الانسان على الطبيعة لا تكاد تكون محدودة ، فهو يعرف كيف يفصل الذرات ؛ ويستطيع أن يؤثر فى الكروموزومات Chromosomes التى تحمل الوراثة ، ثم هو يتعقب خفايا اللاشعور بوساطة التحليل النفسانى . ففى استطاعة الانسانية اليوم أن يحول البؤرة الأولى إلى بؤرة تعقيد واختلاط . فيتدخل عندئذ قانون الارتباط ويحدث ارتفاعا فى النفسية البشرية psychisme humain وهذه الأخيرة على أية حال بدأت تزداد من حيث الكمية والنوع والقوة . وكان التطور قد بلغ مع الانسان أعلى ما يستطيع بلوغه ، فهو الآن يتخذ من الانسان نقطة ابتداء وفى الوقت ذاته ينعكس على نفسه كما لا حظ هكسلى . كانت الحياة حتى اليوم ترتفع متحسسة مترددة ، أما الآن فليس فى إمكانها أن تسير على غير هدى . لابد للانسان أن يضع نصف عينيه هدفا يتجه إليه . ومن هنا تتضح الحاجة إلى مذهب أو فلسفة idéologie وقد سدت الماركسية هذه الحاجة ولكن بطريقة غير وافية ؛ إذ أنها لم تر إلا بؤرة واحدة من الاهليج فهى تعتبر المجموع المنتظم كل شئ وبذلك تظل مادية . أما المذهب الحقيقى فسيكون روحيا ، ومعنى ذلك أن البؤرة الروحية يجب أن تقود التنظيم الآلى . وهذا المذهب هو المذهب المسيحى . ففى سر التجسد incarnation تقدم لنا المسيحية مركزا إلهيا غاص جزء منه فى العالم ، وعلى

البشر أن يعملوا حتى يطفو المسيح تماماً .

تلك هى أهم النقط فى فلسفة الأب تيلار دى شاردان الذى يعتبر المسيحية فلسفة رقى لا فلسفة يأس ، والذى يرى أن حب الله لا يمنع الثقة بالانسان . ويمكننا أن نلخص هذه الفلسفة بقولنا إن الانسان إذا ملك زمام العالم ملك زمام نفسه . ويجب على المسيحية أن تظهر فى موقف المسيطر المتسلط على المادة . فالوسائل الآلية قد تخلص الانسان بمقدار ما يخلصه تواضعه ، ويكفيه أن يشعر أنه سعى وجاهد حتى النهاية .

ماذا نقول عن مدى تأثير هذه النظرية ؟ إنها لم تعرف بعد إلا فى وسط محدود من الأساتذة والعلماء والأطباء ورجال القانون والسياسة ، الذين اطلعوا عليها عن طريق محاضرات الأب تيلار التى كثر عددها هذا الشتاء فى باريس . وقد استقبلت آراؤه استقبالا رائعا إلا من جماعة الوجوديين أمثال جبرييل مارسيل الذين يحبذون التجربة الداخلية expérience intérieure ويلعنون الحضارة ووسائلها الآلية .

يجب أن نذكر أيضاً ثلاث وقائع فى عالم المسيحية ، تؤكد ما كان للأب تيلار دى شاردان من أثر توجيهى . فمنذ عامين أخذت هيئة كاثوليكية تضم رجال الفكر الفرنسيين وتنتمى إلى اتحاد دولى ، تدرس مشاكل الوجودية فى العلم والحضارة ، كما شرع الأطباء الكاثوليكيون ينشرون منذ الوقت نفسه «كراسات لاينك» *Cahiers Laënnec* وقد خصوها بمسائل الفروض الطبية Déontologie médicale كالاجهاض والتلقيح الصناعى l'insémination والتخلص من المصابين بداء عضال l'euthanasie الخ : إن هذه العودة إلى تعليم أخلاقى محسوس Morale concrète من الأهمية بمكان ؛ لأنها حدثت فى الوقت الذى تمتحن فيه أسس الأخلاق بأزمة شديدة . ثم تكونت أخيراً جماعة الشيوعيين المسيحيين وأصدروا نشرة لتكون أداة اتصال ، يديرها مندوز رئيس التحرير السابق «الشهادة المسيحية» *Témoignage chrétien* وتعتبر هذه الجماعة آخر بادرة لانقلاب مسيحى محتمل الوقوع .

ديديه أنزيو

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السينما

حول السينما المصرية

نشرت مجلة « ليكران فرانسيه » *l'Ecran Français* التى تصــدر فى باريس مقالا عن السينما المصرية تحت هذا العنـوان : « الأفلام المصرية : جرائم ، اغتصاب ، رقص ، غناء » . وقد آثرت أن أتحدث عن هذا المقــال لما فيه من حقائق حيناً وأخطاء وتضليل أحيانا . يبدو لمن يقرأ العنوان أن كاتب المقال على إلمام تام بحال السينما المصرية لأنه تمكن أن يميز إنتــاجنا السينمائى بأربع كلمات . فملخص قصص أفلامنا هو حقا : جرائم ، اغتصاب ، رقص ، غناء .

ويبتدئ الكاتب مقــاله بوصف منظر فى أحد ستوديوهات القاهرة : فيحدثنا عن زهور بالية وتماثيل متربة تدل على ذوق غير سليم واضطراب لا حــد له بين الممثلين والمصورين والمخرجين ؛ ثم عن الفتــاة الأولى وقد علت وجهها المساحيق فى مزاج غريب ، وعن الأثاث البالى الذى يشمله المنظر .

وقد يكون كاتب المقال على حق حينما يتحدث عن تماثيل تدل على ذوق غير سليم ، أو عن الممثلة الأولى التى لطخت وجهها بالمساحيق . فالذوق فى أفلامنا إن لم يكن معدوما تماماً ، فهو لا يجد إلى الترف سبيلا . أما عن المــاكيــاج فهو لا يزال بدائيا جــدا . فممثلونا حتى الآن يغـالون فى وضع المسـاحيق حتى لقد تلمس فى الصورة هذه المغالاة ، مع أن فن الماكياج الآن قد أخذ يميل إلى الاعتدال . ويوجد الآن فى أمريكا من يدعو إلى استعمال المســاحيق لابراز ملامح الممثـل فحسب .

ويحدثنا الكاتب بعد ذلك عن أفلامنا فيقول إنها أفلام « سقيمة ذات موضوعات عجيبة تكثر فيها حوادث الاغتصاب والقتل والأغانى والرقص ، وذات حوار زرى ضعيف » . وربما كانت أفلامنا تميل إلى تصوير حوادث الاغتصاب والقتل وخاصة أفلام يوسف وهبى بك الذى يقيس قوة القصة وجودتها بعدد الجثث

التى تجمع بعد انتهاء التمثيل . فليس ثمة مأساة تساق إلينا فى الأفلام إلا مأساة فتاة زلت فلفظها المجتمع ، ثم تقضى العمر دون أن تجد إلى الغفران سبيلا . ولكن هناك قليلاً من أفلامنا تبتعد عن هذه المآسى المضحكة لكثرة ما فيها من العنف ، وتجنح نحو التصوير الخلقى للمجتمع المصرى وعيوبه وطرق إصلاحه ، مثل أفلام نجيب الريحانى الذى يعترف له كاتب المقال بمقدرته فنانا . ولكن حتى هذه الأفلام لا تخلو من الرقص والغناء الذى يدخل على حوادث القصة دون مسوغ . فتجد الفتاة الأولى أو الفتى يغنى كلما احتاج إلى أن يعبر عن شعوره . فيغنى حين يكون سعيداً ، ويغنى حين يكون حزينا ، ويغنى أحيانا حين لا يكون سعيداً ولا حزينا ، وإنما يُدفع إلى الغناء دفعاً بقوة خارجة عن الطبيعة ، مع أن المخرج أو كاتب القصة يعلم ما تفقد المأساة من قوتها وحسنها بهذا الغناء أو هذا الرقص الذى يقف الحوادث ولا يساهم فى تطورها . وإذا كان المونولوج الذى يلجأ إليه كثير من مؤلفى المسرحيات ليتيحوا لشخصياتهم أن تعبر عن شعورها وتحللها يزرى بقوة مسرحياتهم ويحد من تسلسل حوادثها ، فالغناء فى الأفلام يزرى بالقصة أكثر من المونولوج لأنه لا يحلل شيئاً ولا يعبر عن شيء ، وإنما وجد ليستر ضعف القصة والحوار .

أما الجمهور المصرى فيقول عنه الكاتب الفرنسى إنه مكون من الطبقة الموسرة من المسلمين ؛ لأن أسعار الدخول فى قاعات العرض مرتفعة جداً . فطبقة العمال والفلاحين لا يعرفون جريتا جاربو أو كلارك جيبل . أما الموظفون والطلاب والطبقة الموسرة — وهم الذين يكونون الأقلية المثقفة — فلا يعرفون عن السينما الفرنسية إلا سيقان فيفيان رومانس ، وأسنان فرنانديل الناصعة البياض ، ولا يعرفون عن السينما الأمريكية إلا ثديى بيتى جريبل ، وعن السينما الانجليزية إلا ميلودرام « الرجل ذو الرداء الرمادى » . وإذا كان الكاتب على حق فيما قاله عن قصص الأفلام المصرية أو عن فن الماكياج ، فهو فيما يقوله عن الجمهور المصرى مخطئ كل الخطأ . وربما كان هناك ما يدفعه إلى ذلك . فالجمهور المصرى يعد بينه طبقة مثقفة تزدرى بتى جريبل وتنفر من أفلامها وتمثيلها ، وتقدر فيفيان رومانس كلما تيسر لها التمثيل الحسن ، وتسعى لمشاهدة

أفلام فرنندايل للهو والترفيه ، وتمتنع عن مشاهدة أفلام ريتا هيورث التى لا تفرق بين التمثيل والتهتك . نعم إن هناك طبقة أخرى لا تسمح لها ثقافتها أن تميز بين الفن الحقيقى والفن المزيف . فكان على الكاتب أن يظهر هاتين الطبقتين ويفرق بينهما وألا يخلط بين هذه القلة المثقفة وسواد الجمهور الذى تعوزه الثقافة . وهو مخطئ أيضاً حينما يقول إن العامل المصرى لايعرف جريتا جاربو أو كلارك جيبل . فالعامل المصرى يشهد الأفلام الأمريكية كما يشهد الأفلام المصرية . فهو الآن فى مرحلة تطور تجعله يطلب حظا ولو ضئيلا من المعرفة ؛ فهو يميل إلى المطالعة وإلى الذهاب إلى السينما والمسارح والاستماع إلى الراديو .

ويضيف الكاتب بعد ذلك : إن الأفلام المصرية قدمت إلى هذا الجمهور المسلم ذى العقلية الطفلية طعاماً ملائماً له . واقترحت الحكومة أمام الانتاج المصرى الضخم أن تنقص عدد الأفلام الأجنبية التى تخص مصر ، فترتب على ذلك أن ثار مديرو قاعات العرض وقاطع المصريون الأفلام الأجنبية وألقيت قنبلة فى إحدى قاعات العرض الكبرى . ولست أرى ما تؤاخذ به الحكومة المصرية إذا أرادت أن تشجع الانتاج المحلى كى تتيح له النهوض بواجبه .

وجاء فى المقال أيضاً : لقد لاقت الأفلام المصرية رواجاً كبيراً فى الشرق الأوسط ، إلا أن قيمتها الفنية ضئيلة جدا . والمشرفون على شئون السينما بدل أن يحاولوا تثقيف الشعب وتكوين ذوقه ، يقدمون له قصصاً خرافية ، ودرامات معقدة تنتهى بأعجوبة فى نهاية الشريط . والكتاب موقنون أن قيمة الفيلم تقاس بجمال طلعة الفتى الأول فيهملون السيناريو الذى يضعونه ويقدمون لنا صورة خاطئة من مصر كما يفعل وضعاء كتاب السيناريو فى هوليوود .

وقد حلل الكاتب قصة فيلم « ضربة القدر » التى وضعها وكتبها وحققها ومثلها يوسف وهبى بك . وهى قصة ضعيفة لقيت نجاحاً كبيراً . ثم يتحدث عن « السوق السوداء » فيقول عنها إن الفيلم جيد جداً ولكنه لم يرق الجمهور لأن كثرة هذا الجمهور تعيش من تلك السوق . أما عن المخرج التلمسانى فهو يعتبره فناناً جديراً بهذا الاسم يصطنع دقة فى الاخراج تنفر منها الكواكب المصرية . وقد تحدثت

فى غير هذا العدد عن بعض الأفلام المصرية من حيث القصة ، وتكلمت عن الفنانين الذين يعتقدون أنهم قادرون على التأليف والتحقيق والاخراج والتمثيل فى وقت واحد وما لذلك من أثر سيئ فى إنتاج الأفلام . لأنه إذا كان ثمة فنان أو فنانان فى عالم السينما يستطيعان أن يقوما بهذه المهمات كلها فهذا لا يعنى مطلقاً أن أى شخص يمكنه القيام بها . إذا كان شارلى شابلن وأرسون ولز تمكنا من وضع السيناريو و إخراجه وتمثيل دور فيه ، فهذان عبقريان لا يوجدان إلا فى القليل النادر . وأعتقد أن مثل هذه العبقرية لم تتح لمصر إلى الآن وهى حديثة عهد بصناعة السينما .

ثم ينتقل الكاتب بالحديث إلى فن التمثيل نفسه فيقول : إن كواكبنا يغالون فى إيماءاتهم ويغنون ويرقصون فى كل مناسبة وفى غير مناسبة ، ويعبرون عن شعورهم بأصوات مرتعدة . وهنا لا يسعنى إلا أن أنقل ماقيل عن الأفلام المصرية فى مهرجان كان . لقد رأوا أن صناعة الأفلام المصرية ، صناعة بدائية ، وأن الممثلين ينهجون فى تمثيلهم منهجاً مسرحيا محضا . ويؤسفنى أن أعترف هنا أنهم لم يغالوا فى حكمهم هذا ، فأسماء الممثلين السينمائيين لم تتغير منذ عشرين سنة : فمنذ نشأة المسرح ونحن نسمع هذه الأسماء . ورأينا السينما حين أنشئت تعيد علينا الأسماء نفسها . وهذا الاهمال يقع على عاتق المنتجين والمخرجين ؛ إذ هم لايعبأون باكتشاف مواهب جديدة . وإذا حاولوا أن يهيئوا الفرص لاظهار وجوه جديدة ، فهم يؤثرون وسامة الطلعة وأناقة الملبس على المواهب الحقيقية . وقد يحدث أن يكون الفتى الأول الجديد ذا مواهب ، فلا يكلف المخرج نفسه عناء إرشاده وتدريبه حتى يتيح لهذه المواهب أن تصقل .

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أنقل خاتمة هذا المقال الفرنسى وما جاء فيه من نصح مفيد وإرشادات صالحة :

« من المحتمل أن يزداد الانتاج السينمائى المصرى ، ولكن ليستفيد منه سواد الجمهور لا بد أن يزاد عدد قاعات العرض ، وأن يخفض ثمن الدخول فيها ؛ وليتثقف لا بد أن يقدم له أفلام أجود صناعة وأرفع فنا . إن السينما المصرية فى حاجة إلى بعض الفنيين الأجانب وإلى إرسال البعثات إلى أوربا وأمريكا للتخصص فى فن السينما وإلى تغيير آلاتها وعددها ، وإلى أن تستمد من الأدب الشعبى

الغنى موضوعات أكثر طرافة من الموضوعات التى نشاهدها الآن . أما الشركات الأجنبية فعليها ألا تعد الشرق أرضا صالحة لاصدار الأفلام السقيمة . »

ونرى من هذا المقال أننا فى ميدان صناعة السينما متخلفون عن الأمم الأخرى ، وأن هذه الأمم على إلمام تام بحالنا المزرية . ولست أرى مخرجاً لهذا مادام هذا الفن بين أيدى أناس لا يعبأون إلا بأن يزيدوا من أرباحهم ، وممثلين اتخذوا من التمثيل مهنة مربحة ، وكتاب يستغلون سذاجة جمهورنا ، ومخرجين لا يقومون بمهمتهم الفنية .

لقد شهدت أفلام موسمين متتالين فلم ألمس أى تقدم فى تلك الأفلام : قصص مملة ، و إخراج مهمل ، وتمثيل مسرحى مضحك . و إذا استمرت هذه الحال فى مصر مات فيها الفن السابع كما مات المسرح .

وليعلم المشرفون على شئون السينما فى مصر أن هناك أمما عربية — أمم إفريقية الشمالية — جادة فى إخراج أفلام ستجتاح السوق الشرقية وتحد من ميدان توزيع أفلامنا .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

ANDRÉ MALRAUX VICTORIEUX DE LA MORT

ETIEMBLE

أندريه مالرو قاهر الموت*

قال والتر بصوت خفيض : «شد ما كنت أخشى الموت فى طفولتى ، وكل عام أدنانى منه ، أدنانى أيضاً من عدم المبالاة به . . . وأظن أن جوبير هو القائل : حين يأتى مساء الحياة فانه يحمل مصباحه معه . »

لم يجب والدى بشئ . كان واثقاً أن والتر يكذب ، وأحس أن الهلع يطفو .

هكذا يكتب كاتب فرنسى فى كتابه *Les noyers de l'Altenburg* وكانت كتبه السابقة تبدو مركزة حول فكرة الهلع من الموت . وكان ولعه بالتغريب l'exotisme وبالحب المريض وبالبطولة تجارب مر بها تباعاً أو فى وقت واحد ليقهر فى نفسه فكرة الموت . « ما الذى يملك علىّ فكرى ككاتب منذ عشر سنوات غير الانسان ؟ » . وهو على صواب فى أن يضع ذلك السؤال الذى يحمل بين طياته إجابته . ذلك بشرط الانتسى أنه يعرف الانسان بأنه « الحيوان الوحيد الذى يدرى أن لابد من الموت . » .

قد تبدو مثل هذه الفكرة المستولية عليه غريبة لدى الشعوب التى يوائم إيمانها أو حكمتها بينها وبين طبيعة الحياة . وتقول أيضاً الشخصية التى ينطقها مالرو بآرائه الحالية و بما يحسه و بما يعشقه : « أنا آت من آسيا الوسطى .. إن حياة المسلمين هى مجرد مصادفة فى مصير الكون : إنهم لا ينتحرون مطلقا . » وسأذكر عبارة لبرجيه Berger دون أن أبحث إلى أى حد قد تصححها فلسفة الاسلام وعقيدته واجتماعه . المهم فى هذا الصدد هو أن مالرو لا يخفى أمنيته بأن يواجه

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

الخوف من الموت ، كما يفعل الأفغان ، بايمان من يثق أنه مقدر أو مكتوب . ومهما ابتعد مالرو عن المسيحية ، ومهما وجد فى العلم والعمل من تلهية تصرفه عن أفكاره القاسية ، فانه قد بقى من رجال الغرب ، ولم يستطع أن يمحو من نفسه ما تأثر به فى طفولته من صور الجحيم وألوان العذاب الذى يلقاه المرء فيه . لقد بقى متأثراً بالدين فى طفولته كما كان أرتور رمبو A. Rimbaud الذى كان يسخط هو أيضاً على الموت : « لا مسوغ مطلقا لأن تسلب منا الحياة بعد إذ منحناها . »

ولكنا نرى فى آخر كتاب اسمه *Les Noyers de l'Atlenburg* — وهو الجزء الأول من قصة سيكون عنوانها العام « الصراع مع الملك » *La lutte avec l'ange* — أن القاص الذى ما زالت تحيا بين جوانحه آراء والده وشهواته (وهذا الوالد هو الذى تسرد الأبواب السابقة قصة حياته) ، رئيس لدبابة وقعت فى حفرة . وتجرى الدبابات الفرنسية فى سهول الفلاندر حول تلك الدبابة المتردية التى ينتظر رجالها رحمة الله : « الصفير . . . لم نعد نحس برءوسنا . انفجرت قذيفة مدفع على بعد ثلاثين متراً خلفنا ، انطفأ النور . جفت أجسادنا ونحن فى انتظار القذيفة الثانية ، لا ننتظر انفجارها ولا صفيرها ، وإنما ننتظر انطلاقها ، وننتظر سماع صوت الموت نفسه . . . لم أعد أنصت إلى شئ : ستأتى القذيفة وشيكا ، لأن الموت داخل السيارة المصفحة . »

وبعد كثير من الهلع ومن الجهد تخرج السيارة المصفحة من الفخ الذى تردت فيه . وكان التعب قد أخذ من رجالها كل مأخذ فتساقطوا على القش فى أحد البيادرليناموا . وأقبل صباح اليوم التالى : « فى هذا الصباح لا أنظر إلى شئ بعين الغريب . الدجاجات تجول ، كأنها تجهل الحرب . الحيوانات حية على هذه الأرض العجيبة . . . ثم مر قط مروراً مفاجئاً ناعماً ، فاذا بى أستشعر الدهشة لوجود هذا الحيوان . . . فما الذى أصيب بالدهشة فى نفسى ؟ إن شعورى الثابت منذ استيقظت هو شعور الدهشة أن يعيش الكلاب على ظهر هذه الأرض المليئة بالآلات ، فتعمل عمل الكلاب ، وتعيش القطط فتعمل عمل القطط ! »

ومن أعمق أعماق الانسان ، وهو الحيوان الوحيد الذى يدرى أنه فان ، من أعمق أعماق الهلع الانسانى أمام الموت الذى كان بالأمس مؤكداً ، يصبح القاص — وقد أدهشته قوة

الحياة المستمرة كأن لم يحدث شئ من قبل — صيحة خلاصه البطئ : « أيتها الحياة القديمة ما أصلبك وما أعندك ! » وما زال مشفقا من أن ينتصر الفزع ومن أن يسمم ذلك الفرح الذى لم يولد إلا منذ قليل . ولكن كلا : « لست فى هذا الصباح إلا ميلاداً . . . ها هو ذا ضوء النهار يبرز من ظلمات الليل » ، فيرى فلاحين مسنين على مقربة منه لم يهربا من الحرب . إنهما ينظران إلى الموت نظرة تسامح ، « يا له من إغضاء عجيب وانكسار فى طرف العين ينم عن السخرية ! » إن مالرو يدرى الآن « معنى الأساطير القديمة التى تقص قصص المخلوقات التى انتزعت من الموت » ؛ فهو لا يكاد يذكر الهلع .

وما يحمل فى نفسه إلا ما كشفه « من سر بسيط مقدس » . فى ذلك الصباح برئ مالرو من الموت ، وقبل الحياة ، الحياة كلها من الولادة إلى الموت . وربما كان هذا سبب تخلص هذا الجزء الأول من كتابه « صراع مع الملك » مما اعتدنا أن نراه لدى مالرو الثائر على مصير الانسان من فساد فى الأحاسيس والأخيلة التى كان يركزها ، فكأنه كان ينتقم من ذلك المصير . على أن هذا الجزء قد احتفظ بما نعهده فى كتبه السابقة «القاهرون» *Les conquérants* و «المصير الانسانى » *La condition humaine* من توتر وحزن ورومانطيقية عنيفة أحياناً .

حقا إن المرء ليختنق حينما يقرأ الفصل الذى كتبه عن الهجوم بالغاز الخانق . ولكن هذا الفصل قد برئ من التعقيد الذى يلازم الكتابة عن الحب المريض . ولقد عبر روجيه كايوا Caillois عن ذلك خير تعبير إذ قال : « لم يفقد مالرو شيئاً من شدته التى اعتدناها ، ولكن يبدو أنه هو أيضاً قد انضم إلى جانب الحياة وأنه قد سار فى اتجاه الناس . لم يعد ينظر نظرة رضا إلى العنف الفاسد الذى يبدو أنه ضد أبسط نظام فى الكون . لقد أصابه هدوء نبيل ، فأضفى على كتبه عظمة جديرة بالاعجاب لم تصل إليها كتبه السابقة المحمومة الثائرة إلا نادراً . لقد كان يؤمن بفكرة خاطئة انتشرت فى ذلك الزمن ألا وهى أن منابع اللذة الجسدية والقسوة تستمد ماءها من طبقة بعيدة الغور لا شئ بعدها . »

ولقد بقى فى الظاهر متعلقاً بذلك التغريب L'exotisme الذى عده البعض من أهم مميزاته . ولكن أهو تغريب تلك الكتابة عن ثورة تركيا الفتاة واستيلاء الشاب أنور باشا على الحكم

ثم تلك الرحلة السريعة إلى الأفغان ؟ (ومن السهل أن نثبت أن الصينيين فى كتابات مالرو ليسوا صينيين بالمعنى الحقيقى ، وإنما هم صور متعددة لنفس هذا الكاتب .) نعم إن بعض الصفحات تذكرنا بشاتو بريان Chateaubriand مثل : « وعند هبوطه من بامير حيث الابل الضالة تتنادى خلال السحب عند عودتها من رمال الجنوب حيث ترى فى أحراج الشوك الصراصير الضخمة التى ترفع قرونها فوق رءوسها الشبيهة بخوذات الفرسان ، أتى بلداً فى لون رميم العظام . وكان هناك فرسان سهلهلو الثياب ، وكأنهم يحلمون تحت باب من الفخار والخشب . وكانت رءوس الخيل وعظام الأسماك المتحجرة تلمع بين الدور المحجبة كالنساء فى رمال الطريق الذى تكتنفه دور لا نوافذ لها . لا ورقة فى خارجها ولا أثاث فى داخلها ، ليس هناك إلا الجدران والسماء والله . » ولكن مثل هذه الصفحات لا تعتبر بالقياس إلى من يعشق آسيا من الأدب التغريبى exotique .

ولن ندهش إذا استمر مالرو فى بحثه وراء البطولة بعد إذ قهر الخوف المسيحى . فما دام المرء يخشى الموت فان السبيل الأوحد لتقبله هو أن يخلق المرء موته ، وأن يجعله أروع مايمكن وأسهل ما يمكن تجرعه . كانت البطولة حاجة فأصبحت شجاعة بعد أن هزم الهلع .

ومنذ انفصل مالرو رسميا عن أولئك الشيوعيين الذين كانوا يشتبهون فيه دائماً ويتهمونه حيناً بأنه من أتباع تروتسكى ، وحيناً آخر بالفردية الفوضوية أو بأنه من أنصار الفكر ، فان منشوراتهم الرسمية — وكانت قد سكتت عنه حتى ذلك الوقت — أخذت تفسر انفصاله بدوافع كل منها أشد نكراً من الآخر . لقد قال مالرو : إنه يجب ألا نحكم على الناس بما يبدو لنا من جانبهم الخسيس . أما أنا وقد عرفته وأحببته وأعجبت به منذ خمسة عشر عاماً فانى لم أدهش قط حين رأيته يرأس فى سنة ١٩٤٥ الائتلاف الذى كان ينتظم وقتئذ عدة جمعيات يسارية معادية لوسائل الشيوعيين ولمذهبهم الأخلاقى . وكنت أحس دائماً أن لديه عنهم أشياء لا يبديها . وكيف لا يستطيع من عقد الصلح بينه وبين الحياة ألا يتقبل القصد والاعتدال ؟ وإنا لنعرف أنه قد رضى أن يخدم الجنرال دى جول فكان وزيراً للأخبار فى وزارته ، ونعلم أيضاً أنه اليوم وجاك سوستيل

J. Soustelle يمثلان حركة التجمع الشعبى فى فرنسا Rassemblement populaire وأولئك الذين تقلقهم مثل هذه الجماعة السياسية التى لم تنتظم حتى اليوم إلا أعداء طبقة العمال سيترددون رغم ذلك فى اتهام مثل هذه الحركة بالفاشية . ذلك لأن رجلا مثل مالرو قد رضى أن يمنح اسمه وسمعته لها . إنه ليعترف برغبته « القوية فى أن يترك لنفسه أثراً على الأرض » (وهذا دليل على أنه لم يبرأ تماماً من داء الفناء). ولكن أليس مجده الأدبى كافياً ليترك له أثرا على الأرض ! إنه ليؤمن بأن « الوقت متأخر جدا اليوم ليحاول المرء التأثير فى شئ ما » ويؤمن كذلك « بأنه يجب منذ الآن أن يحاول المرء التأثير فى شخص ما » (هل ذلك الشخص هو دى جول؟) ولنذكر — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن مالرو قد كان دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين ، وأنه قد قاتل فرنكو حين تطوع فى الطيران الجمهورى ، وأنه نظم بفرنسا حركة مقاومة مهمة قبل أن يرأس فرقة الألزاس واللورين . وبدلا من أن أتهمه بأنه صنيعة قلم الجاسوسية الانجليزية Intelligence Service أو بأنه متآمر مع جماعة التروتسكيين الفاشيين ، فانى أفضل — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن أعده رجلا قد قبل الحياة وأنه قد قبل أيضاً :

ذلك الجدول القليل الغور الذى أسيئت سمعته ، ألا وهو : الموت . »

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

من وراء البحار

السياسة الخارجية الأمريكية

لعل وصف مستر جو ألسوب لسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، الذى نشره فى عدد أكتوبر من مجلة « هوريزن » ، هو خير تحليل قرأناه عن هذه السياسة فى الأشهر الأخيرة ؛ فهو يقول إن أداة السياسة الأمريكية الخارجية هى أداة معقدة كثيرة التناقضات ، وإن الرجال الذين اعتادوا أساليب السياسة الأوربية يجدون صعوبة كبيرة فى فهم السياسة الأمريكية ، وإذا فتح الله عليهم بفهمها فانهم لا بد أن يشعروا بصدمة للطرق السياسية التى تتخذ منعرجات عجيبة . بل إن الأمريكيين أنفسهم لا يفهمونها إلا إذا كانوا على علم بالعلاقات المتعقدة الكثيرة التعاريج بين البيت الأبيض والبرلمان والرأى العام ؛ وكانوا على علم بالتاريخ الوطنى ، والعوامل الجغرافية ، وسير الحوادث العالمية ، وهى التى تبنى عليها السياسة الأمريكية .

لهذه الأسباب نجد اتجاهاً يكاد يكون عاما للنظر إلى السياسة الأمريكية بعين الماضى ، وتجاهل التغييرات الكبيرة التى طرأت على هذه السياسة فى السنوات الست الأخيرة . ولكن هذه التغييرات هى التى تجعل من المحتمل ، وإن كان من غير المؤكد ، أن تتبع الولايات المتحدة الآن سياسة دولية إيجابية وتامة وتقدمية ، بقدر ما تتطلبه الأحوال الشديدة الملحة التى قامت فى العالم فيما بعد الحرب . ولكى نفهم لماذا كانت مثل هذه السياسة مستحيلة فى الماضى ، ولماذا كان أكبر زعماء أمريكا وهو فرانكلين دلانو روزفلت لا يستطيع قيادة شعبه مطلقاً بل كان دائماً يداور ويلعب دور المحتال فى الفترة السابقة على الحرب ، يجب أن نضرب مثلا بحادث واحد : ففى آخر اجتماع للبرلمان الأمريكى فى دورة سنة ١٩٣٩ ، كان متوقعاً أن يوافق مجلس الشيوخ على إلغاء قانون الحياد على أنه ضرب من الانذار لهتلر ، إذا أمكن إقناع المجلس بأن هنالك خطراً من وقوع حرب . وكانت الجلسة التى

أثير فيها هذا الموضوع خطيرة ، وأذيع فيها عن مستر جاى جيليت ، النائب عن ولاية يوها ، أنه قضى ليلة كاملة وهو راكع ، يسأل الله القدير أن يلهمه الجواب . ومع ذلك طغى على هذا المتعبد نفوذ مستر وليم بوراه عضو الشيوخ عن ولاية إداهو . فان بوراه وحده استطاع أن يقنع مجلس الشيوخ ، بما فيه مستر جيليت ، بأن الحرب لن تقع ، وحاول روزفلت محاولة أخيرة لكى يحمل أعضاء الشيوخ على تأييد وجهة نظره لالغاء قانون الحياد ؛ فدعى مستر بوراه وغيره من الأعضاء البارزين من الحزبين الغالبين إلى اجتماع ليلى فى البيت الأبيض ، وحاول هو وكوردل هل أن يصفا فى تفصيل وفى جد عميق ، الخطر الفظيع الذى كان عندئذ جاثماً فوق العالم بأجمعه .

وعندما انتهى مستر هل وزير الخارجية من تفصيلاته ، أخبره مستر بوراه فى برود بأنه لا يحترم كثيراً آراء وزارة الخارجية ، وأن من عادته أن يجمع معلوماته بنفسه ، وأن المصادر التى يعتمد عليها كل الاعتماد تؤكد أن الحرب لن تقع . وانتهى الاجتماع فى شئ من الاضطراب لأن مستر هل ، الذى كان يسير فى شيخوخته ، عندما رأى هجوم زميله السابق ، بكى حنقاً وأسفاً على خيبة آماله . وحدث بعد ذلك بقليل عندما عرف ما كان فى هذا الاجتماع ، أن جرؤ أحد الكتاب وسأل بوراه عن مصادر أخباره ، فأجاب بوراه فى بساطة متناهية أنه لكى لا يقع فى أحابيل وزارة الخارجية الأمريكية ، اشترك فى مجلة «الأسبوع» الانجليزية ، وقال إن هذا الاشتراك كان مفيداً جدا ، وأنه اقتنع من الجريدة بأن حكومة تشمبرلين تعد تسليما آخر فى مسألة بولونيا ، كما فعلت فى مونيخ ؛ وحين أنبئ بأن هذه المجلة يحررها عضو من الحزب الشيوعى البريطانى لم يبد اهتماماً يذكر.

ومع ذلك لم يكن مستر بوراه تافهاً ولا غبيا ولا شريراً ، ولقد كان نفوذه سيئاً على العلاقات الخارجية الأمريكية ولكنه باعتباره فرداً من الأفراد كان رجلا كبيراً وشجاعاً ووطنيا . وهذا التناقض بين نفوذه السئ وصفاته الكبيرة كان سببه بسيطاً جدا . ذلك أنه يمثل فى نفسه الصفتين البارزتين فى أعضاء البرلمان الأمريكى ، وهما اللتان حالتا دون أن تكون السياسة الأمريكية الخارجية مفهومة إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية . وأولى هاتين الصفتين هى حرص أعضاء البرلمان على المحافظة على استقلالهم من الهيئة التنفيذية . وقد

ذهب الأعضاء فى هذا الحرص إلى حد أنهم يؤثرون أن يظلوا على جهل بالأمور على أن يلتجئوا فى استقصاء معلوماتهم عن الأمور العالمية من مصادر الهيئة التنفيذية . والصفة الثانية هى الحرص على الاحتفاظ بالنظرة الاقليمية . ولقد كان هذا الحرص بارزاً فى حالة مستر بوراه حتى لقد كان يرفض السفر إلى الخارج ، زاعماً أن السفر قد يدنس سلامة أحكامه بصفته الخبير الأول فى الأمور الخارجية بمجلس الشيوخ ! وهاتان الصفتان يفهمهما كل من عرف أمريكا منذ بضع سنوات ؛ فهذه النظرة الاقليمية كانت تمد جذورها فى السعادة والأمن ، اللذين كانا يجدهما الأمريكيون من الطبقة المتوسطة المسيطرة قبل أن حطمت الحرب هذا النوع من التفكير . وكانت الريبة التى يظهرها أعضاء البرلمان فى الهيئة التنفيذية هى نتيجة حتمية للفصل التام فى أمريكا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

ويجب على الذين يبحثون عن مستقبل السياسة الأمريكية الخارجية أن يقدروا أمرين هامين حق قدرهما : الأمر الأول أن الصفتين اللتين ذكرناها من قبل أصبحتا غير متسلطتين . وربما كان كل أمريكى عاقل يشعر بحنين طبيعى إلى الماضى البسيط حين كانت التبعات الوطنية أقل عبئاً وتدخلا فى الحياة ، ولكن الحرب العالمية الثانية قد أقنعت السواد الأعظم بأن التنحى عن التبعة هو أفدح أنواع الجنون ثمناً . ولا يزال كل عضو فى البرلمان يحتفظ بكراهية طبيعية للهيئة التنفيذية بتفرعاتها الواسعة الغامضة . ولكن الحرب العالمية الثانية أحدثت تغييراً دستوريا كبيراً ؛ إذ أقامت جسراً بين السلطتين التشريعية والتنفيذية . ورمز هذا التغيير هو السير على سياسة خارجية يوافق عليها الحزبان المسيطران فى أمريكا . فقد وجد رئيس الجمهورية ووزارة الخارجية وسيلة لذلك، بأن اعتبرا مستر أرثر فاندنبرج عضو الشيوخ عن ميتشيجان ، ومستر توم أو كونالى عضو الشيوخ عن تكساس ممثلين لمجلس الشيوخ ، فتمكنا بذلك من الاتصال بهما سرا واستشارتهما ، وبذلك يمكن الوصول إلى قرارات يقرها أعضاء البرلمان .

أما الأمر الثانى الحيوى فهو بسيط جدا ، وهو أنه بالرغم من اختفاء مظاهر الاقليمية السياسية ومظاهر الريبة فى الحكومة بين أعضاء البرلمان فان هذه المشاعر لم يقض عليها تماماً . وهذان الأمران هما مفتاح ذلك اللغز

الغامض فى السياسة الأمريكية ، وتأثير الظروف العالمية فيها من نهاية الحرب إلى الآن .

بالرغم من الاشاعات الكاذبة التى أذاعها بعض ذوى الأغراض بين الجهلاء عن الرئيس روزفلت قبل نهاية الحرب ، فلقد كان عازماً على اتباع سياسة وطنية كالسياسة التى سار فيها ترومان وبيرنز وفاندنبرج ومارشال . وقد عرف فى البيت الأبيض قبل وفاة الرئيس روزفلت بشهور أنه يفكر فى سياسة « إجارة وإعارة من أجل السلم » ، ومعنى ذلك سياسة تشابه ما يتخذ الآن من معاونة لليونان وتركيا ومقترحات مارشال من أجل أوربا . ولقد قر رأى روزفلت على هذا البرنامج بالرغم من صعوبته وكُلفه وعدم هضم الرأى العام له ؛ لأنه كان يفهم تماماً أن العالم سيشهد صراعاً بين الهيئة الاجتماعية الغربية والهيئة الاجتماعية السوفييتية.

وكانت نقطة التحول الحقيقية لدى روزفلت هى مؤتمر يلتا ، وما أقدم عليه الاتحاد السوفييتى من خرق ظاهر للاتفاقات التى تمت فى ذاك المؤتمر فيما يختص برومانيا . فقد ظل روزفلت حتى تلك اللحظة — ولو أنه كان شاعراً بطبيعة النظام السوفييتى — يقبل العبارة التى شاعت أثناء الحرب ، وهى القول «إن كلمة ستالين يمكن الاعتماد عليها » .

ولكن بعد نقض الاتفاقات صار روزفلت يبدى لأخصائه أن صبره قد نفد ، وأن مفتاح معاملاته فى المستقبل مع رجال الكرملين سيكون استعمال الشدة . وكان يفسر اتفاقات يلتا تفسيراً حرفيا ، ولم يقبل امتداد الامبراطورية السوفييتية فى شرق أوربا ولم يعتبرها حادثاً تم .وكان عازماً على أن يصر على أن يفى ستالين بوعوده نحو استقلال بولونيا ورومانيا وبلغاريا والمجر . وآخر ورقة رسمية كتبها كانت عبارة عن صورة رسالة شديدة إلى الدكتاتور السوفييتى بشأن المسألة البولونية . وقد اطلع ونستون تشرشل على فحواها فوصفها بأنها فصيحة وقوية. وأعرب روزفلت مراراً فى رسائله إلى تشرشل فى الأشهر الأخيرة من حياته عن خيبة أمله فى حكومة السوفييت ، وأوضح أنه راجع سياسته فى ضوء البراهين التى أثبتت أن كلمة ستالين خاضعة لسياسة الواقع بقدر خضوع المسائل الأخرى فى الاتجاه السوفييتى .

وقد يكون من الشائق أن نفكر فيما يحدث لو أن رئيس الجمهورية العظيم لم يقع فريسة للمرض . فقد كان

من جهة على علاقات سيئة للغاية مع البرلمان الأمريكى ، ولم يكن يعرف قط كيف يداريه ، ولا بد أنه كانت تحدث أزمة دستورية حول السياسة الخارجية تبتدئ بمجرد استسلام اليابان . ومن جهة أخرى كانت مكانته فى الخارج عظيمة بحيث كان لا بد أن يحرز النجاح على مائدة المؤتمرات ، حيث أخفق ترومان وبيرنز وفاندنبرج ومارشال . ومن المؤكد أيضاً أنه لو عاش،لعاد الوغد الذى وصفته جريدة برافدا الروسية حين كان هتلر وستالين متفقين .

ومما يدل على ما كان يجده روزفلت من عقبات فى تنفيذ سياسته ، أنه عند وفاته لم يكن نائبه يعلم بأغراضه وما يدور فى خلده . وكانت أول مرة علم بها هارى ترومان بما وصلت إليه الأمور إنما كانت بعد توليه الرياسة ، فى اجتماع عقده بحضور هارى هوبكنز ووزراء الخارجية والدفاع والبحرية ؛ فاتخذ قراراً بأن يتصرف كما يتصرف روزفلت لو كان حيا . وهذا هو الغرض الذى رمى إليه فى تقريعه لمولوتوف بشأن بولونيا ، عندما زار وزير الخارجية السوفييتية البيت الأبيض فى طريقه إلى سان فرانسسكو . ولكن ترومان غير روزفلت ، ولم يكن البرلمان الأمريكى ولا الرأى العام الأمريكى مستعدين لتأييد سياسة قوية ، ولا مستعدين لامداده بالأموال والسلطة التى لا تكون الكلمات القوية بغيرها إلا مجرد صيحة فى الهواء . لذلك كان تولى ترومان لرياسة الجمهورية بدء عصر فى السياسة الخارجية ظهر أثره سريعاً فى خطوة لم يحسن التفكير فيها هى إلغاء الاجارة والاعارة .

كانت المسألة الكبرى التى يجب على ترومان علاجها هى حقيقة السياسة السوفييتية . ومن المحقق أن سياسة الولايات المتحدة منذ تسليم ألمانيا كانت تقرر لمقابلة سياسة السوفييت ؛ وهذا شأن الدول الأخرى ، فالولايات المتحدة وبريطانيا لا ترغبان رغبة صادقة إلا فى الاشتراك على قدم المساواة فى إقامة نظام عالمى . والواقع أن الأمريكيين لقلة تجاربهم كانوا أكثر اعتماداً على هيئة الأمم المتحدة ، كعلاج دائم ، من شعوب بريطانيا والأمم الغربية . ولم تتحول أنظار أمريكا عن واجب التنظيم الدولى إلا بتحدى السوفييت وإصرارها . ولقد كانت أمريكا فى بادئ الأمر ووزارة الخارجية الأمريكية يعتبران محاولة الكرملين القبض على السلطة فى مؤتمرات الصلح

والاعتداء السافر على إيران أنها مجرد سوء تدبير ، ولم تقبل هذا التحدى إلا بتردد كبير وبعد مضى وقت طويل.

ولقد بدت حقيقة السياسة السوفييتية من عالم الخفاء حتى قبل هزيمة اليابان . فقد أخذ السوفييت ينبذ كل الوسائل للتعاون الدولى فيما عدا الاشتراك فى هيئة الأمم المتحدة ، وعمل للقضاء على كل وسيلة جديدة من هذا التعاون . وكان الخبيرون ببواطن الأمور يستطيعون عندئذ أن يتنبأوا بأن رجال السوفييت سوف يستعملون حقهم فى نقض قرارات مجلس الأمن ، وأنهم سيقاومون الجهد الذى يبذله العلماء للسيطرة على أمور الطاقة الذرية . وكان هذا الامتناع عن التعاون مظهراً واحداً من مظاهر السياسة السوفييتية . والمظهر الآخر هو محاولة استغلال الفوضى التى تعقب الحرب باحتلال كل المواضع الاستراتيجية التى فى متناول قواتهم الحربية أو تسربهم السياسى.

ولكى يمكن الحكم على أعمال الرئيس ترومان فى تلك الفترة يجب أن نقدر بعض الأمور ؛ فهو لم يكن قد تخلص بعد من الروح الاقليمية فى سياسته ، وكان يواجه البلاد والبرلمان ، وكلاهما يعتقد أن الأحوال العادية ستعود سريعاً إلى العالم . وهذا هو تفسير ما وقع فيه من أخطاء كبيرة مثل إهانه لنظام الاجارة والاعارة .

ومع ذلك فانه اتخذ خطوات إيجابية بقدر الامكان فى أن أصر على تقديم أكثر ما يمكن من وسائل الاعانة ، ومنح الحكومة البريطانية أسخى قرض يمكن أن ينال عليه موافقة البرلمان الأمريكى ، وأيد بيرنز فى موقفه الجديد نحو السوفييت الذى يتلخص فى وصفه بأنه الصبر مع الثبات . وأقدم بلا تردد على تأييد بريطانيا سياسيا وأدبيا فى مشاكلها كأزمة طرابلس وإيران . ويمكن أن يقال بالاجمال إنه قابل تحدى السوفييت بسياسة تحمل تبعات محددة .

ومن الطبيعى أنه ما دامت تبعاته محددة فانه اعتمد على بريطانيا كى تقوم ببقية العمل ، ففى كل مناطق أوربا وآسيا ، عدا ألمانيا والصين وكوريا واليابان ، كان الأمريكيون بعيدين عن أن يكونوا فى موضع الخطر ، على حين كان البريطانيون مقيمين هناك . وكان هجوم السوفييت موجهاً إلى أماكن تهم دائماً بريطانيا أكثر من الولايات المتحدة ، فكان العبء الذى تحملته بريطانيا غير عادل ، ولا يتناسب مطلقاً مع

مواردها التى كادت تقضى عليها الحرب . وكان أمر كبار الموظفين الأمريكيين عجيباً فى الثمانية عشر شهراً التى تلت الحرب ؛ فهم من الوجهة العقلية يعلمون أنه لا بد للولايات المتحدة أن تتحمل شطراً أكبر من عبء المشاكل الدولية ، ولكنهم من الوجهة العاطفية كانوا يتجنبون هذا التحمل . ولكن هذه الحالة لا تدوم فقد تحطمت فجأة عندما قرر مجلس الوزراء البريطانى فى فبراير سنة ١٩٤٧ أن تصفى بريطانيا مسئولياتها الاقتصادية فى اليونان وتركيا .

كان ذلك القرار نهاية تحمل المسئوليات المحددة ؛ إذ كان على الرئيس ترومان ومن حوله أن يختاروا بين دخول اليونان وتركيا فى النهاية فى منطقة نفوذ السوفييت ، وما يكون لهذا الحادث من نتائج بعيدة ، وبين اتخاذ سياسة نشيطة إيجابية غير محددة المسئوليات ، تنطوى على مشاكل عظيمة فى السياسة وفى التنفيذ . ولم يكن لهذا الموقف مثيل من قبل ، حتى لقد أوجد اضطراباً فى أوساط الحكومة . ولكن الشجاعة هى أبرز صفات ترومان ؛ فلم ير أمامه إلا طريقاً واحداً فدعا زعماء البرلمان إلى البيت الأبيض وأوضح لهم خفايا الأمور ، وطلب منهم أن يوافقوا على سياسة أمريكية جديدة. وما أشبه هذا الموقف بالموقف الذى ذكرناه فى سنة ١٩٣٩ ، وكان فاندنبرج فى هذه المرة يرتدى حلة بوراه ، غير أن ترومان لم يكن كيساً فى وصفه ، بل أوضح الأمور فى خشونة. ومن هذه اللحظة حدث تطور فى السياسة الخارجية الأمريكية ، وتم الاتفاق عليها بين الرئيس والبرلمان والشعب .

من هذه اللحظة كان التحول فى سياسة أمريكا قويا . ولقد نصح بعض مستشارى ترومان له بأن يواجه البرلمان بالقول إن على الولايات المتحدة واجباً من أكبر الواجبات فى جميع أنحاء العالم ، وأن يطلب السلطات اللازمة لذلك والأموال التى تعد بالبلايين من الدولارات لهذا الأمر الهائل . ولكنه لو فعل لهبت المعارضات القديمة مما يؤدى إلى انقسام الشعب . لذلك اكتفى الرئيس بطلب المال والسلطة للعمل فى اليونان وتركيا فقط، واتخذ فى الوقت نفسه هذا الطابع لشن حملة ألفاظ شديدة على السوفييت .

الواقع أن ما حدث فى اجتماع البيت الأبيض كان أكثر تمثيلا للمبادئ التى يريد الرئيس ترومان

السير عليها ، وأكثر شرحاً لأغراضه مما قاله فى البرلمان الأمريكى . فلم تكن المناقشة فى ذلك الاجتماع مقصورة على اليونان وتركيا بل كان من موضوع المناقشة العبء الهائل الذى يقع على عاتق الولايات المتحدة ، ويحملها تبعة عالمية بسبب مركزها الجغرافى وثروتها وتعداد سكانها ، وحالة الأمور العالمية . وكان القرار الذى اتخذ هو العدول عن تحديد التبعات الذى لم يثمر وتحمل الواجبات الذى يقتضيه مركزها بصفتها دولة عظمى .

والآن يمكن من هذه القرارات أن نستخلص صورة لما ينتظر أن تكون عليه سياسة الولايات المتحدة فى المستقبل . ومن الواضح أن السنين القادمة ستقضى على أمريكا ببذل مجهودات ونفقات مختلفة فى جهات مختلفة . وفى كل مرة يجد موقف جديد سواء أكان هذا الموقف فى غرب أوربا أوالشرق الأوسط أو الشرق الأقصى ، سنجد مناقشات وتردد وتعاسة فى وشنطن . ولكن فى كل وقت لن تجد الحكومة والبرلمان والشعب مناصاً من السير فى السياسة التى بدأوها ، ولا بد من العمل بعد أن تهبط حماسة المناقشات .

ويمكن تحديد سياسة الولايات المتحدة بأن لسياستها الخارجية أغراضاً لها حد أدنى وحد أقصى . فالحد الأدنى هو الثبات السياسى والاقتصادى فى المساحات من العالم ذات الأهمية الخاصة ، ويكون ذلك بالاستعمال الانشائى للموارد الأمريكية ، وبذلك يقف التوسع السوفييتى عند ما هو عليه الآن . وهذا ما يوافق مصلحة أمريكا وبريطانيا معاً . والحد الأقصى لأغراض أمريكا هو إيجاد هيئة عالمية يمكنها حل جميع المشاكل بين الدول بطرق سلمية ، وهذا فى مصلحة الأمم جميعاً . ومن رأى السياسيين الأمريكيين أنه لا يمكن بلوغ المرمى الأكبر إلا بالحصول على الحد الأدنى ، فأحد الأمرين يعد للآخر .

ولكى نفهم هذه المسألة يجب أن نعرف وجهة نظر أمريكا فى تحليلها للسياسة السوفييتية . فمن الواضح أنه لا يمكن الاعتماد على الهيئة الدولية ما دام رجال الكرملين يعارضون فى التعاون الدولى ويرغبون فى التوسع الوطنى الروسى . على أن هذه السياسة السوفييتية ترجع إلى مصدرين : أولهما ارتياب الكرملين فى العالم الخارجى ثم تعلق الكرملين بنظريات أنبياء الشيوعية . فهؤلاء يقولون إن كل مالا يسير على نظام السوفييت يسير

على نظام الرأسمالية . وهذه الرأسمالية مقــدر لها حرب الطبقات والفوضى والتنازع الاستعمارى . فالرغبة التى يجدها رجال السوفييت فى التوســع تقوم على عاملين : الاستفادة من هذه الفوضى ، وإقامة سدود دونها . ولا يغرب عن ذهننا أن الامبراطوريات العظيمة تألفت بدوافع الخوف والجشع.

ولكن يجب ألا ننسى أن هنالك اختلافاً حقيقيا بين عالم السوفييت وعالم غير السوفييت ، وأن سياسة السوفييت قائمة على هذا الخلاف . وفى هــذه الأحوال توجد وسيلتان لعلاج هــذه الحالة : إحداهما أن تحاول الولايات المتحدة و بريطانيا استرضاء السوفييت ، ولكن أمريكا اختارت طريقاً أكــثر فائدة وهو إظهار خطأ استنتاجات السوفييت بحيث لا يبقى سبب لهــذا الخلاف .

ولقد تم هذا الاختيار أثناء الأزمة الايرانية ، ولقد نادى هنرى ولاس وأحزابه بوجوب العطف على السوفييت، وكان رجال الكرملين ينتظرون أن يتغلب هذا الرأى . ولكن ترومان وبيرنز قررا بعد تردد أن يرفضا سياسة الاسترضاء التى كانت ستحدث على حساب بريطانيا ، ولا بد أن تؤدى إما إلى الحرب وإما إلى اختلال التــوازن الدولى فى العــالم ، وبذلك تحددت مبادئ السياسة الأمريكية .

تقررت الخطوة الحاسمة التى اتخذتها أمريكا فى سبيل الرخاء الاقتصادى والثبات حين ألقى مستر مارشال خطابه فى جامعة هارفرد ، فقطعت أمريكا شوطا بعيداً وبعيداً جداً فى الطريق الذى بدأته عند الأزمة الايرانية وسارت فيه عندما وضعت برنامج المساعدة اليونانية والتركية .

لقد كان من الواجب اتخاذ هذه الخطوة قبل زمن بعيد ، ولكن زعماء الحكومة الأمريكية كانوا بطيئين كعادتهم فى فهم الخطورة فى موقف أوربا الاقتصادى . وكثيرا ما أنذرهم الزعماء البريطانيــون والأوربيون فى يأس ولكنهم لم يتأثروا بالنذير . ولو أنهم قدروا خطورة الحالة حق قدرها لكان برنامج المساعدة اليــونانية والتركية جزءاً من مساعدة كــبرى تشبه المشروع الذى وضعه مارشال .

وهذا المشروع نشأ عن ثلاثة أمور : أولا أن مارشال عمل قبل سفره إلى موسكو لتنظيم وزارة الخارجية الأمريكية من جديد ، وبذلك استطاعت أن تمده بالمعلومات التى كانت تنقصها بسبب نظامها العتيق . وثانياً أن

الأحوال تفاقمت فى أوربا بحيث لم يكن سبيل إلى تجاهلها . وثالثاً أن زيارته لموسكو أمدته بتجارب هامة ، فكان قبل هذه الزيارة موظفاً كفئاً ، ولكنه صار بعدها سياسيا بارعاً . لذلك ما كاد يعود مارشال من موسكو حتى أخذ فى دراسة الموقف مع معاونيه ، وتقرر لديه وجوب العمل فى الحال ، وكان الرئيس ترومان يؤيدهم تأييداً كبيراً ، ومضت أسابيع وهم يدرسون طرق العمل المختلفة . وأخيراً وجه مارشال نداءه فى هارفرد كى تتكاتف أمم أوربا وتضع أسساً مشتركة لتعميرها على أن تؤيد موارد الولايات المتحدة ما يصيبهم من عجز عن ذلك .

وكانت النتيجة أن السياسة الخارجية الأمريكية هى الآن فى الميزان لمعرفة مقدار ثباتها . ولا بد من عرض الأمر على البرلمان الامريكى لاقراره فى وضعه النهائى ؛ فاذا وافق البرلمان ووافقت الأمة على مشروع مارشال بما يتطلبه من نفقات باهظة ، فمما لا ريب فيه أنه لا يخشى بعد ذلك من أن تدير أمريكا ظهرها لأمور العالم مهما تغيرت الحكومة الأمريكية فى المستقبل .

على أن الناس يتساءلون: هل يوافق البرلمان على مشروع مارشال ؟ لا شك فى أن السواد الأعظم من أعضاء البرلمان لا يرضون عن فكرة مارشال ، وسيحاول بعضهم أن يهرب من هذا المشروع ، ولكن من القواعد المعترف بها فى أمريكا أن البلاد دائماً تنقذ نفسها فى آخر الأمر . ولما كان هذا المشروع فيه إنقاذ للولايات المتحدة كما أن فيه إنقاذاً للمستفيدين منه مباشرة ، فمن المعقول أن نفترض أن البرلمان الأمريكى سيقر هذا المشروع .

وهكذا نرى أن مستقبل السياسة الأمريكية يتوقف على سرعة عاملين مختلفين : فالسباق قائم بين تتابع الحوادث الخارجية الناشئة عن التدهور الاقتصادى والسياسى فى العالم بأجمعه ، وتتابع الحوادث فى الولايات المتحدة المؤدى إلى الادراك السياسى . فاذا كانت الاجرءات غير القاطعة التى اتخذت حتى الآن لدفع غائلة الانهيار السياسى والاقتصادى للعالم لا تنجح قبل الاستيقاظ السياسى فى أمريكا ، مما يؤدى إلى العمل على نطاق أوسع وأكثر فائدة ، فان السباق يكون خاسراً .

وعنصر الشك هذا هو الذى يجعل من الحاضر لحظة مؤلمة فى التاريخ .

ظهر حديثا

شرق وغرب للأستاذ على محمود طه (دار إحياء الكتب العربية)

هل نستطيع أن نقول إن الأستاذ على محمود طه هو أشعر الشعراء فى مصر؟ إن هذا القول فيه شىء من الجرأة قد يحتاج إلى تفصيل كثير، وقد يرى فيه بعض الشعراء تحديا وافتئاتاً. والقول بهذا الرأى الجرىء يحتاج إلى بحث ودفاع وتحليل ليس هذا موضعه. لذلك لا نريد أن نعرض له. ولكننا نقول فى جرأة إن الأستاذ على محمود طه هو من أوائل الشعراء الذين يصح تسميتهم بهذا الاسم على حقيقته. أى نريد أن نخرج من صفوفهم أولئك الذين يرون فى الوزن والصياغة كل شىء، أو أولئك الذين لا يجدون فى خيالهم الخصب ما يسعفهم على الشعر فيلجأون إلى تصيد المناسبات التافهة، أما ذلك الفيض من الخيال الذى ينهمر فى رءوس الشعراء المطبوعين فانك لا تجده فى شعرهم. ولكن يجب ألا يعزب عن فكرنا أن الشعر فن وصنعة وليس الخيال وحده كافياً، بل إن المنحى الجديد فى الشعر الغربى يجنح إلى القول بأن الشعر هو فن وصنعة قبل أن يكون خيالا. ومن المفهوم بوجه عام أن هذه النزعة الجديدة إنما هى مغالاة بعض الشىء فى ناحية من نواحى فن الشعر، توازن وتقابل المغالاة فى الناحية الأخرى — أى ناحية الخيال — التى كان يجنح إليها شعراء القرن التاسع عشر فى أوربا. ولا شك فى أن دولة الشعر يتنازعها هذان العاملان ويتعاور عرشها النزعتان فاذا أغرق بعض الشعراء فى ناحية أغرقت المدرسة التى تخلفهم فى الناحية الأخرى، وتلك سنة الطبيعة.

ونستخلص من هذا الحديث أن الأستاذ على محمود طه ينحو فى شعره منحى شعراء القرن التاسع عشر من الأوربيين. فهو شاعر الخيال قبل كل شىء. وهو شاعر باحساسه وبقلبه قبل أن يكون بصنعته؛ وقد لا يهتم بهذه الصنعة أحياناً. ولكنه كذلك شاعر قد ظل يخرج شعره سنوات طويلة حتى صار من السهل عليه أن يفكر بالشعر قبل أن يكون تفكيره نثراً. وهذا هو

السبب فى تلك السهولة التى تجعل من شعره شيئاً أقرب ما يكون إلى الموسيقى منه إلى الشعر .

أما نزعته الخيالية فتتبين فى هذا الديوان الجديد كما تبينت من قبل فيما يقرب من عشرة دواوين أخرى نشرها ، وعرفها الناس وأقبلوا عليها أكثر مما عرفوا شاعراً آخر من شعراء مصر . فمن موضوعاته تلك المقطوعات التى كتبها بمناسبة زيارته لمنزل ريتشارد فاجنر الموسيقى الألمانى العظيم الذى أقام فيه حينا من الدهر فى ضاحية من لوسرن ؛ أو على الأصح مكان المنزل الذى كان يقيم فيه الموسيقى العظيم ؛ فان ذلك المنزل ليس قائماً الآن وهو المكان الذى لحن فيه بعض دراماته الموسيقية .

ويمكنك أن تمضى وقتاً لذيذاً مع الأستاذ على محمود طه فتسمع منه اعترافاته ، أو ترنو معه إلى البحر والقمر فى مدينة كان ، أو تسمع منه لحناً من فينا ، أو تتخيل المغرب العربى يتمثل فى أندلسية عرفها الشاعر على بحيرة لوجانو ؛ تلك وغيرها هى صور الحياة التى يرغب أن يتمتع بها كل إنسان وإن كان لا يستطيع ذلك . فمشاغل الحياة عبء مضروب على أكثر الناس . أما تلك السعادة التى يجدها المترف فى حياة يقضيها بين المناظر الجميلة والمتعة ، فذلك أمر مقصور على القليل من الناس الذين يعرفون قيمة الحياة الفنية ، وهذه هى الحياة التى ينقلها الشاعر على محمود طه صوراً ثابتة يستطيع بها المحروم أن يجد فيها عزاء عن حرمانه .

الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور ابراهيم موريس الديك

(مطبعة الاعتماد بمصر)

إنى لأشعر دائماً بارتياح كلما عرض لى كتاب يبحث فى موضوع من غير موضوعات الأدب ؛ لأنى إذا كنت أميل بطبيعتى للمضوعات الأدبية ، فانى أحس بنقص المؤلفات العربية التى تخوض فى مناحى المعرفة المختلفة التى تعنى بها الأمم الأوربية . ولا شك أن من بين العلوم التى تمس الأدب من قريب ، والتى لا بد لأديب العصر الحاضر أن يلم بها ، تلك العلوم التى تدور حول الانسان وحياته فى هذه البيئة الانسانية . ومن أخص ما يمس

الانسان الناحية الجنسية . فلقد صار معترفاً بهذه الناحية وأثرها الكبير فى حياة الناس بعد مباحث فرويد ، وتغيرت الأوضاع ، فلم تعد الأبحاث بعد فرويد تدور على نزعة الخير والشر، بل عرف أن هنالك أموراً مسيطرة على الانسان هى جزء منه ، وهى التى تتحكم فيه أكثر من تحكم ذلك الشئ الفرضى الذى نسميه الخير أو الشر ، وهى أمور تؤلف جزءاً منه ومن تكوينه، ومن أهم هذه الأمور تلك التى تنشأ عن الجنس .

غير أن هذا الموضوع لسوء الحظ قد يمكن أن يتصل بنزعات سيئة ، ويمكن أن يتخذ وسيلة لترويج كتب لها أغراض غير خدمة العلم . وقد يكون من الخير أن تحارب أمثال هذه الكتب . على أن الذى سرنى فى هذا الكتاب الذى كتبه لنا الدكتور الديك ، أنه كتاب خالص لوجه البحث العلمى ، ولكن التعقيد العلمى فيه لا يبلغ حداً ينفر الأديب والباحث الاجتماعى والباحث النفسانى عن قراءته؛ فهو كتاب موطأ لكل مفكر على تنوع دراساته ، ولكنه لم يؤلف للجمهور غير المفكر .

هو كتاب علمى لدقته فى بحث موضوع الاضطراب الجنسى على أنواعه فى تفصيل وفى تبويب ، بحيث لا يفوت القارئ شئ من جوانب هذا البحث ، سواء من الوجهة الجسدية أو النفسية .

ويمكن أن نقول بوجه خاص ، إن الفصول التى تهم الأديب من الكتاب أكثر من غيرها ، هى تلك الفصول التى بحث فيها الكاتب عن نظريات فرويد وأدلر ويونج ، وعن الصراع بين الجنسين ، وعن عبيد العائلة ، فهى مباحث جديرة باطلاع كل أديب وباحث اجتماعى .

ولسنا نحب أن نترك الكلام عن هذا الكتاب القيم دون أن ننوه بالبساطة وحسن الترتيب فى سرد الموضوعات ؛ وفى الوقت نفسه دون أن نأخذ على الكاتب عدم العناية باللغة بقدر ما كان يجب ، وهو وإن كان كتاباً علمياً فان الكاتب أظهر فى أماكن عدة أن أسلوبه فى الشرح يكاد يكون أدبيا ، مما يجذب القارئ، ولكنه لم يعن العناية الكافية بمراجعة كتابه حتى ظهرت فيه معايب كثيرة، تدل على إهمال لقواعد اللغة أو فى مراجعة الكتاب مما كنا نرجو أن يبرأ منه .

حسن محمود

من وحي الفطرة للأستاذ محمد قره على (مطبعة بيروت)

هذا كتاب حقيق بالتنويه ، أنشأه كاتب لبنانى يستحق التنويه كذلك ؛ ولعلى لا أكون غالياً فى القول إن زعمت أن هذا الكتاب وكاتبه سيكون لهما فى غد من الشأن ما يحمل مؤرخى الأدب فى هذا الجيل على أن يفردوا لهما فصلا بعنوانه . . .

كاتب وكتاب يتحدثان عن قصة من أروع قصص البطولة الواثبة تتخطى القيود والسدود ولا تعبأ بالعقبات التى تتكاءد طريقها حتى تنتهى إلى الغاية أو تكاد ، وتضع قدمها على أولى عتبات المجد !

ليست من بطولة القوة ، فما أحرى هذه أن تكون لوناً من بطولة الغابة التى تتمثل فى ظفر وناب . وليست من بطولة الجسارة المتقحمة على المهالك على أمل الظفر بأمنية بعيدة أو الموت دونها ؛ فما أشبه هذه كذلك أن تكون فنا من فنون المغامرة . وليست بطولة الجرئ الواغل الذى يخيل إليه من شدة اعتداده بنفسه أنه فوق كل ذى فوقية فلا يزال يلقى الناس بوجه وقاح حتى يحملهم على التسليم أو الاستسلام . . . ليست بطولة من هذه البطولات المتكررة الصور فى كل مجتمع من المجامع البشرية، ولكنها بطولة من نوع ممتاز لأنها بطولة إنسان ضعيف المنة عاجز الأداة مقطوع الأسباب ؛ ولكنه إلى ضعف منته وعجز أدواته وانقطاع أسبابه — قوى الايمان بانسانيته ، يحمله هذا الايمان القوى على خطته لعل عربيا قبله لم يسلكها ليحمل الجماعة البشرية التى يعيش فيها على الاعتراف بأنه إنسان ؛ وبلغ ما أراد ، أو لعله بلغ أكثر مما أراد ؛ فكان إنساناً . . . بطلا . . .

ذلك هو محمد قره على مؤلف هذا الكتاب !

وقد تعودت فى هذا الحيز من هذه المجلة أن أعرض ما بين يدى من الكتب عرضاً مجرداً يعرف بها ويكشف عن موضوعها ، لا أكاد أستطرد إلى ذكر الكاتب إلا قليلا من قليل حين تدعو إلى ذلك حاجة . فليعذرنى القارئ اليوم إذا أناعرضت له الكاتب قبل أن أعرض كتابه ؛ فان الكاتب هنا هو الموضوع الذى ينبغى أن يحتفل له مؤرخو الأدب العربى فى هذا الجيل !

عرفته فى بهو الفندق الكبير ببيت مرى فى لبنان منذ أسابيع ، أو

هو الذى عرفنى على الصحيح ؛ وكنت واقفاً بين طائفة من أهل الأدب ثمة ولفيف من أعضاء المؤتمر الثقافى حين تقدم إلىّ شاب قد مد يده للمصافحة وهو يقول ليعرفنى نفسه : « محمد قره على ، صحفى ». وبادلته التحية ولم أزد ، وكأنى رأيت صحفيا ككل صحفى من الذين يغشون أمثال هذا المجتمع لحاجة أنفسهم أو لحاجة صحفهم فلم ألق إليه كبير اهتمام . . . ثم أتيحت لنا فرصة للاجتماع ، أو لعلها قد أتيحت لى أنا ؛ وتحدث إلىّ بقصته فى تواضع وفى إيمان !

نشأ فقيراً معدماً ككل فقير معدم ، وفقد أمه وهو صبى ، وضاقت أسباب العيش بأبيه أكثر مما كانت ، فلم يدخل مدرسة ولم يتعلم حرفاً ولا رسم حرف ، وخرج إلى الحياة يكدح لرزقه ورزق أبيــه وأخته ولم يبلغ العاشرة ، فاحترف الخدمة فى حوانيت التجار ، ثم مسح الأحذية ، ثم حمالا فى الأسواق يحمل على كاهله الضعيف حاجات الناس من الأسواق إلى دورهم فى سلة من القصب يضيق بحملهـــا فارغة فتى فى مثل سنه ساعة من نهار ؛ ثم يترقى من الحمالة إلى بيع الصحف ، وهنا يبدأ شعوره بثقل تبعته ، فهو أمى لا يميز جريدة من جريدة ، وفى لبنان عشرات من الصحف لمئات من القراء ، أو لآلاف ، ويسأل نفسه وقد بلغت سنه بضع عشرة سنة : لماذا لا أتعلم القراءة ؟ ثم لا ينتظر جواباً لسؤاله ؛ فلا يكاد يمضى قليل زمن حتى يصير قارئاً يميز أسماء الصحف بعضها من بعض ، ثم يترقى فى تعليم نفسه حتى يقرأ عناوين الموضوعات فى الجرائد التى يحملها للبيع ، ثم يترقى مرحلة أخرى حتى يقرأ الموضوعات نفسها ليعرف ماذا يبيع للناس من فنون الكلام . . . ثم لا يزال يترقى حتى يصير قارئاً له ذوق وإحساس فنى ورأى ؛ ويجتاز هذه المرحلة وثباً فاذا هو قارئ كاتب ولم يبلغ العشرين ، ولداته وأقرانه لا يزالون فى المدرسة الثانوية أو فى الجامعة يحاولون أن يتعلموا كيف يقرءون . ويغريه النجاح بالاستمرار والدأب فيقتنى الكتب ومعاجم اللغة يقرؤها فى أمسيات الفراغ على ضوء مصباح الشارع ضنا بما فى سراج البيت من زيت قليل ، ولا يزال فى النهـــار يبيع الصحف ، وأحسبه فى هــذه الفترة قد صار نقيباً للباعة يملى عليهم الرأى فيستمعون له ؛ وعرفه أصحاب الصحف فقربوه وأدنوا منزلته ؛ إذ كان فى يده دون غيره رواج صحفهم أو كسادها ؛ أليس قد جمع أعــداد

إحدى الصحف ذات صباح وأشعل فيها النار باحدى ميادين بيروت وقد تحلق حولها الباعة من «صبيانه» مهللين ؛ لأن هذه الصحيفة كان لها مذهب فى السياسة غير مذهبه ؟ هذا فتى يحاول «استغلال سلطة وظيفته» لتوجيه الرأى العام الوجهة التى يريدها ؛ لقد اغتصب سلطة صاحبة الجلالة الصحافة فما أحرى أن يكون هو صاحب الجلالة . . . إن الصحافة توجه الرأى العام ، ولكنه هو يملك توجيه الصحافة !

وبرز اسمه بين أصحاب الرأى من . . . من باعة الصحف ؛ وأراد أن تكون سلطته فى التوجيه عملية فاصطنع الكتابة ، وترق مرحلة أخرى فصار صحفيا . . . إنه لم يزل حتى اليوم وقد جاوز الثلاثين ، يحرص على هذه الصفة ، ولكنه فيما أراه أكبر من صحفى . وعالج الشعر فبلغ مبلغاً ، ونشرت له الصحف المصرية واللبنانية الراقية ؛ وغشى المجامع العامة فلقى الترحيب ، وتعرف إلى كبار أهل الأدب والسياسة فسرهم أن يعرفوه ، ولا يزال حتى اليوم يحتفظ إلى جانب صورة ماسح الأحذية ، والحمال ، وبياع الجرائد الجوال — صوراً أخرى تمثله يتحدث إلى شوقى ، أو إلى هيكل أو إلى أحمد أمين ، أو عبد الرحمن عزام — كل أولئك من أصدقائه وله فى أنفسهم مكانة ؛ إنه زميل من زملائهم فى الشعر أو فى الأدب أو فى السياسة ، وكان ماسح أحذية وحمالا، وبياع جرائد ؛ ولكنه اليوم أديب من أدباء لبنان . وحاول السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان أن يصطنعه فعين له وظيفة فى الدولة ، فقبل الوظيفة ولكنه لم يقبل أن يصطنعه أحد ؛ فهو اليوم موظف ، وصحفى ، وشاعر ، وكاتب ، ومؤلف مشهور ؛ وهذا كتابه الأول «من وحى الفطرة» وقد كتب مقدمته الشاعر القروى الأستاذ رشيد سليم خورى ، ويقول فى ختامها :

« رشح نفسك لرياسة الجمهورية يا مهقره على وأنا أول من يمنحك صوتى ، ولن أوثر عليك إلا من يحمل شهادة تحمل من علامات الثقة بالنفس والاعتماد على الساعد وا تمرن على مسح الأحذية ونقل الأمتعة وبيع الصحف أكثر مما تحمل شهادتك . إن البلاد لمفتقرة إلى إبراهيم لنكلن لبنانى، فاذا لم يتفق فانتظروا سعى فتاة لهذا الوطن ! »

ولكن ماهذا الكتاب الذى يصف الشاعر القروى كاتبه بما وصف ؟

هو كتاب تقول عنه مجلة «الأديب» البيروتية : «وأعد المحرر كتاباً عن سيرة حياته، سماه «من وحى الفطرة» نزولا عند طلب رفاق الأمس من ماسحى الأحذية، والحمالين، وبائعى الصحف وسكان الأكواخ الخشبية؛ هؤلاء الذين خرج من صفوفهم المتألمة ولم يخرج عليهم فكان خيط الألم بينه وبينهم طريق القلم.»

هو إذن قصة حياة ذلك الأديب على ما رويتها فى إيجاز؛ قد بسطها كاتبها فى أسلوب فنى عذب، وأضاف إليها طائفة من الفصول، ومن الشعر، هى أيضاً جزء من قصة حياته، لأنها تصور بعض مراحله فى الحياة وبين الناس.

وهو أول كتاب يذيعه فى الناس «نزولا عند طلب رفاق الأمس من ماسحى الأحذية والحمالين وبائعى الصحف ... الخ» معتزاً بهم ومعتزين، ليضرب به المثل لهم ولغيرهم من القراء على «أن الحياة صعيد واحد قسمه المجتمع — أو قل: تقاليد المجتمع — إلى مقاطعات، وأن فى إمكان الانسان أن يقفز من مقاطعة إلى مقاطعة بقليل من المغامرة. وقليل من الجرأة، والتطفل ...» كذلك يقول، وكذلك كانت حياته!

أين هذا الأديب اليوم مما كان؟ ولكنه لم يقنع بما بلغ ولم ينس شيئاً مما كان، فلم يزل به إلى الماضى حنين وإلى المستقبل أمل عارم.

يقول فى خاتمة قصة حياته:

«لقد كنت أبيع كتب الناس وصحفهم، فأصبحت الآن بحاجة إلى من يبيع كتابى!

«أيها الباعة، يا رفاقى! أذكروا دائماً أن كل نسخة تبيعونها من هذا الكتاب هى حجر تزيحونه من طريقكم. لن أنسى أبداً أننى واحد منكم!»

ويقول فى خاتمة كتابه:

«وأمنيتى وأنا فى الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب أن أعود بائع صحف أحمل إلى الناس آراء الناس وأفكارهم، أى أن أكون مدرسة سيارة تغرى الناس ليقرءوا الناس، فأبيع الفكر والقلم والقنبلة الذرية وسقوط وزارة وقيام وزارة بخمسة عشر قرشاً ...

«أنا اليوم موظف صغير فى الدولة ما أضعفنى اليوم وما أقوانى أمس، ساعة كان كل صحفى يتمنى أن أرضى.

« أتمنى أن أعود بائع صحف ، لأنى أخاف أن أتعلم المساومة بنفسى .

« كم صحيفة بعتها وكأنى كنت أبيع معها شرف صاحبها فى الأسواق الرخيصة ! »

ولكن صاحبه « الشاعر القروى » يتمنى له غير ما يتمنى لنفسه ، ولعله أن يبلغه يوماً فيصير رئيساً للجمهورية، ويترقى من بين صفوف باعة الصحف رئيس جمهورية آخر غير إبراهيم لنكلن ؛ فهل يأمن الصحفيون يومئذ شر المصادرة والحبس الاحتياطى ؟ وهل يأمن أهل الأدب أن يتتبعهم قارئ ضيق الفكر أو ضيق الخلق فيسوقهم إلى المحاكمة بتهمة الخروج على الناموس ؟

من يدرى ؟

محمد سعيد العريان

الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (مطبعة دار الكتب المصرية)

أصدرت دار الكتب المصرية الجزء السادس عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى . وهو مثل الأجزاء السابقة فى دقة التصحيح وجودة الطبع وجمال الرونق .

ع . م .

فى مجلات الشرق

من لبنان

الطريق العدد ٩ (سبتمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ فرج الله الحلو عن « الثقافة والسياسة » لمناسبة اقتراح عرض فى المؤتمر الثقافى العربى الذى عقد بلبنان منذ بضعة أسابيع ، يقترح بيه صاحبه أن يرسل المؤتمر برقية إلى هيئة الأمم المتحدة أو إلى مجلس الأمن بتأييد قضيتى مصر وفلسطين ، فعارض الاقتراح بعض مندوبى لبنان فى المؤتمر بحجة أن المؤتمر « ثقافى بحت » و « لا دخل له فى السياسة » !

وقد جاء فى مقال الأستاذ الحلو ما يلى :

« لا يستطيع مثقف واحد، ولا سيما إذا كان مؤرخاً ، ألا يعترف بأن الاستعمار الأجنبى هو السبب الأول الأوحد فى انتشار الجهل والأمية فى الأقطار العربية وفى مصر بصورة خاصة ؛ لأن الاستعمار الذى يعانيه هذا القطر الشقيق هو أشد أنواع الاستعمار الذى عرفته البلاد العربية . إذا كانت غاية المؤتمر الثقافى العربى حصر الثقافة والتضييق عليها ومنع انتشارها ، فالمندوب اللبنانى إذاً على حق فى رفضه تأييد قضية مصر وقضية فلسطين على الاستعمار الانجليزى . أما إذا كانت غاية المؤتمر توسيع السبل لانتشار الثقافة ، ورفع مستواها ، ومحاربة الأمية والجهل ، ورفع مكانة الفكر فى المجتمعات العربية ، فقد كان من واجب الوفد اللبنانى كله ، إذا كان حقا يريد تمثيل لبنان المثقف الحقيقى ، أن يكون أول من يؤيد مصر وفلسطين والعراق وطرابلس الغرب وأفريقيا الشمالية وأندونيسيا وجميع الشعوب المستعمرة ضد الاستعمار .

«لقد وقف كبار المثقفين العالميين فى الحرب الأخيرة إلى جانب القوى الديمقراطية ضد الفاشستية باعتبارها أكبر الآفات التى تهدد الثقافة والفكر . وكذلك أيد معظم المثقفين اللبنانيين جبهة الحرية على جبهة الفاشستية . ونعتقد أن المثقف اللبنانى الذى عارض تأييد

المؤتمر الثقافى العربى لقضية مصر وفلسطين ، كان أيضاً بين أولئك المثقفين اللبنانيين الذين أيدوا جبهة الديمقراطية على المحور .

« فهل خرجت الثقافة والفكر فى موقفهما ضد الفاشستية عن أغراضهما وأهدافهما ؟ وهل يستطيع أحد أن يتهمهما بأنهما أصبحا مطية للسياسة ؟

« كلا ! بل تصح هذه التهمة على المثقفين الذين ماشوا الفاشستية وساروا فى ركابها ، فهم الذين خانوا رسالة الثقافة وسخروها لأغراض سياسية واستعمارية .

« وبعد ، ألم تكن وراء موقف المندوب اللبنانى دوافع سياسية وعوامل سياسية حدت إلى اتخاذ موقفه ذاك ؟

« ولكى نقرب المسألة إلى الأفهام نقول لو كان هذا المؤتمر معقوداً فى مصر ، وكانت القضية المطروحة على مجلس الأمن قضية لبنان ، وقام أحد أعضاء الوفد اللبنانى أو غيره فاقترح إرسال برقية إلى الهيئة الدولية بتأييد قضية لبنان ضد الاستعمار أكان يمكن أن يكون فى أعضاء الوفد اللبنانى من يعارض ذلك بحجة أن المؤتمر ثقافى بحت ولا يجوز إخراجه عن أهدافه ؟

« وماذا كان يكون موقف الوفد اللبنانى لو قام أحد المصريين وعارض تأييد المؤتمر لقضية لبنان ؟

« لا شك أن كل لبنانى كان سيعتب على ذلك المندوب ، ومن حقه أن يعتب ، ولكان الوفد اللبنانى أشد الوفود احتجاجاً ، ولكان جميع المثقفين العرب يشجبون موقف المندوب المصرى .

« نحن كلبنانيين يعقد المؤتمر الثقافى العربى الأول تحت سمائنا ، كنا نود أن يتخذ المؤتمر الثقافى اتجاهاً واضحاً صريحاً فى تأييد قضايا الشعوب العربية الوطنية الاستقلالية ، كقضايا الجلاء والاستقلال ، وألا يكون فى ذلك أى تحفظ ؛ لأن أقدس مهمات الثقافة هى النضال لأجل الحرية ، حرية الأفراد وحرية الشعوب . والثقافة تنمو وتزدهر فى هذا النضال . وكل محاولة لتحديد أهداف أخرى للثقافة أهم من تحرير الأفراد والشعوب ، ليست سوى سخافة وسخافة خطرة يجب محاربتها . »

الأديب العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٤٧)

ويعالج الأستاذ قدرى قلعجى ذلك الموضوع من زاوية أخرى فى مجلة « الأديب » بمقال عنوانه « المثقفون والمجتمع » يقول فيه :

« يعجب أناس من اهتمام بعض مثقفينا بشؤون بلادهم الاجتماعية والسياسية ، وقد طغت على بلادنا الروح الانعزالية وانعدمت الجرأة الأدبية ، حتى باتت وكأنها فى مثل يوم الحشر « لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » وحتى أضحت كل بادرة من بوادر الاصلاح أو الدعوة إليه ، موضع الريبة والتجنى من أشخاص لا يحسون فى أنفسهم دافعاً قوميا إلى مجابهة الباطل فينكرون ما يرون فى غيرهم من شدة الاخلاص لشعبهم وشدة التمسك بالحق .

« أما أولئك المثقفون المناضلون فقد عرفوا أن من واجبهم معالجة أمراض شعبهم ، ومقاومة الظلم الذى يحيق به أو يتهدده ، و إلزام أنفسهم أعباء هذا الواجب مهما كبرت وثقلت ؛ لأنهم يستحون أن يعايشوا الظلم ولا يبذلون وسعهم للقضاء عليه .

«فيا عجبا أفى وقت حاجتنا العظمى إلى مثل هذه القيم تحثنا على العمل وتحدونا إلى النضال وترشدنا إلى بناء مجتمعنا على أسس الحرية والعدل والمساواة ، يراد من المفكرين الانصراف إلى « روحيات » هوائية غامضة ، كأن النضال الوطنى ليس صورة الروح الانسانية فى تمام وعيها وسموها وتضحيتها ، ويطلب من الأدباء الانعكاف على ما يسمونه المتعة الفنية وحدها ، كأن الفن غريب عن هذه الدنيا التى تشهد غروب عصر وإشراق عصر ، وعن هذا المجتمع الذى يصطرع فيه جيل رجعى هدام عتيق وجيل جديد صاعد بناء .

«ونحن إذ نرجع البصر إلى التاريخ العربى تطالعنا فيه صور مشرقة كثيرة من تراثنا القومى تراث الحرية والعدل والمساواة ، وتراثنا الثقافى تراث النضال الفكرى والعلمى من أجل الحرية والعدل والمساواة . فان كبار الأئمة والمفكرين والأدباء العرب قد علمونا بأقلامهم وألسنتهم وسيرهم ، الخروج على الحكام الظالمين ، والجرأة فى مقاومتهم مقاومة حازمة صادقة ؛ لأن الكفاح فى سبيل الحرية هو كفاح فى سبيل الفكر ، وهو كفاح فى سبيل الوطن ، وهو كفاح فى سبيل الله .

« ونحن المثقفين العرب الذين نعتز

بهذا الميراث النضالى العظيم ، حريصون أيضاً على أن نذكره وأن نذكر به ، وعلى أن نعمل به وندعو إلى العمل به ولا سيما فى هذه الأيام. ففى معترك الصراع الذى نشهده اليوم بين قوى الحرية وقوى العبودية ، نرانا أحوج ما نكون إلى إعادة النظر فى الأسس التى قام عليها ماضينا لكى نتعلم كيف ننهض بحاضرنا ونبنى المستقبل الذى نريد . »

وفى هذا العدد من مجلة «الأديب» مقال طريف للآنسة نجوى عارف قعوار عنوانه « حفنة تراب » تقول فيها :

« حفنة التقطتها من الأرض وفجأة إذا بذراتها تتلألأ كالدموع ، وخرجت منها أنفاس حارة ، وسمعتها تقول : أنا فتاة جميلة فى السادسة عشرة من العمر ؛ أريد أن أعود إلى الحياة ، أريد خطيبى الذى كنت أحبه ، وثيابى التى أعددتها ، وأمى التى كنت وحيدتها ؛ أريد أن أعود إلى البيت الصغير الواقع على شاطئ النهر حيث كنت وصديقاتى نلعب ونسبح ونقطف من أشجار الشاطئ الزهر والثمر . . . »

وتتقلب الحفنة فى يدها ثانية فاذا هى تسمع مواء قطة ، وفى الثالثة تشم عبير زنبقة ، ثم ترى صورة شاب هصرته المنية فى ريعانه ، ثم عجوزاً قد شاب شعرها وتجعد وجهها ، ولكنها لا تزال تحن إلى الحياة ؛ ثم يبدو لها فى ذرات التراب وجه أميرة شقراء جعدة الشعر بهية الطلعة انتزعها الموت من عز الإمارة وردها إلى التراب — كل أولئك تبدت صورهم فى حفنة التراب بين يديها ، وكلهم يحن إلى الحياة ، يأمل أن يعود من التراب خلقاً سويا كما كان . . .

قالت : « وحدقت فى حفنة التراب وسرت فىّ رعشة الخوف .

« أيتها الحفنة السوداء من التراب الحقير ! كم من مرة سخرتك جرثومة الحياة لتكونى آنية لهؤلاء ولغيرهم ؟

«وكم من مرة صاغتك القوة المسيطرة الرشيدة ، لتكونى هياكل لفكر الانسان ، ولشذى الزهر ، ولغرائز الحيوان ثم تناثرت تراباً ملقى على الأرض ؟

« حفنة تراب ، باردة ، سوداء . . .

« . . . هل تكمن فيها إرادة الحياة أم هى وعاء لها ؟

« يا حفنة التراب : كل ما أعرفه لأقوله إنك بحاجة إلى البنّاء العظيم .

« إلى نفخة من الخالق ، وعندها تصبحين حياة جديدة .

« ويحيا فيك ثانية هذا الذى يرغبه هؤلاء الذين كنت إما وعاء لهم أو جزءا منهم . »

من العراق

المعلم الجديد الجزء ٣ (سبتمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ حسن أحمد السلمان عن « الأمية : عواملها ومكافحتها » فيتساءل : لماذا لم ينجح مشروع مكافحة الأمية فى العراق ؟ ثم يحاول الجواب عن سؤاله ، فيرد عوامل الاخفاق إلى أسباب ثمانية :

١ — أن الدولة ألقت مسئولية مكافحة الأمية على وزارة المعارف وحدها .

٢ — وأنها لاتزال تعدها معضلة ثقافية فحسب وتغفل ما يجب أن تؤدى إليه من الغايات الاقتصادية والاجتماعية .

٣ — عدم وجود مكافحين معدّين إعداداً فنيا خاصا .

٤ — عدم تهيئة الأسباب للقضاء على الأمية بتوسيع دائرة التعليم العام وجعله إلزاميا حتى لا يتضاعف عدد الأميين كل عام بمن تضيق بهم مدارس التعليم العام .

٥ — قلة الميزانية المخصصة للمكافحة وتوسيع نطاق التعليم .

٦ — النظام الاقطاعى فى العراق .

٧ — الفقر .

٨ — أن مشروع المكافحة فى جملته لم يوضع على أسس راسخة .

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن عوامل التأخر الثقافى بصفة عامة ، فيردها إلى أسباب تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية ، ويخلص من كل ذلك إلى بيان الأسس التى يجب أن يرتكز عليها مشروع مكافحة الأمية ، وعن إعداد المكافحين فيرى أن إعدادهم لا يتطلب أكثر من عام دراسى واحد يتلقى المكافحون خلاله دروساً شاملة فى فن تربية الكبار وسيكولوجيتهم وأصول التدريس للراشدين ، ومشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية .

من النجف

البيان العددان ٢٧و٢٨ (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ أحمد مجيد عيسى عن « الدراسة فى النجف » تلك المدينة التى لم تزل جامعة علم وآداب ودين منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، فيقول :

« وكان طلاب العلم ورواده ينتجعون تربتها منذ قديم الزمان إلى الآن حتى غدت مزدحمة بالعلماء وراج فيها سوق الأدب والعلم لدرجة أن المرء لا يمر بمحفل من محافلها إلا ويسمع أصوات المذاكرة بالمسائل العلمية على أنواعها و يرى حلقات الحديث وثيقة العرى متماسكة الأطراف. وللقارئ أن يتصفح كتاب « أمالى » الشيخ الطوسى ليطلع على عدد المجالس وما يدور فيها ؛ فانه كتاب مشحون بالأحاديث ، وهو شاهد صدق على تعداد المجالس العلمية والأندية ، وذلك كله هو السبب الوحيد فى الهجرة إليها فقد كثر فيها ازدحام أهل العلم ورجال الأدب ، وطفقت أفكارهم تتبارى وأقلامهم تتسابق فى حلبة التأليف والتصنيف ، وبذلك حازت النجف الرياسة العلمية والزعامة الدينية منذ القرن الخامس حتى اليوم وان اختلفت فى بعض العصور شدة وضعفاً ، قلة و كثرة، ولكن لم ينقطع عنها العلم قط، وغدت تعد من العواصم العلمية التى لها الحظ الأوفر من الشهرة ، فيها كما فى غيرها من المدن العلمية آثار علمية كثيرة وفيها المدارس التاريخية والآثار الأدبية ، وفيها محلات كثيرة تعرف بمحلات العلماء ؛ وهى تسلك فى طريقة دراستها سيرة المعاهد الدينية الاسلامية الأخرى . . .

« . . . أما النجف اليوم فقد أصبحت مدينة جامعة علمية تضم مدارس عدة (بالاضافة إلى المحلات الأخرى للدراسة وهى الصحن الشريف والمساجد) تدرس فيها شتى العلوم والفنون ، ولكن الصبغة والرونق للعلوم الدينية . فالنجف جامعة دينية قبل كل شئ ، وهى فى العراق كالأزهر فى مصر ، إلا أن الأزهر أثرت فيه الحضارة المصرية والحركة الفكرية فحوّراه وهذباه ورتباه ، والنجف لم تجد من نفسية القطر مايؤثر فيها . . . »

من الموصل

الجزيرة العدد ١٨ (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الأديب فؤاد طرزى عن حرية الأدب فى مقال طيب عنوانه : « مستقبل الأدب العربى » فيقول :

« إن الأدب تعبير ، وتعبير حر لأنه من نبع الحياة المتدفق . فالحرية فى التعبير هى الخاصة الأصيلة فى كل أدب عاش وسيعيش . كتب اسكندر ديماس عشرات الكتب فى الاصلاح ، فماذ ابقى منها ؟ لم يبق ولا كتاب واحد . وكتب «غادة الكاميليا» فبقيت خالدة خلود الزمن . وأنشد حسان شاعر النبى آلاف الأبيات فى الهداية والارشاد ذهبت كلها بانتهاء أزمانها . وأنشد امرؤ القيس شاعر الجمال ، فبقيت أشعاره تتردد فى كل قلب ويختلج لها كل إنسان . . .

« وإن تقييد الأدب اعتداء على الحرية التى بغيرها لا يقدر الأديب أن يرتاد كل الآفاق وأن يحلق ما شاء التحليق ، وان تقييده وتوجيهه بالقسر والارغام وإنزاله من مستواه إلى مستوى الشعب والهبوط إليه والتقرب منه وملاحظة ما يرتضيه ويلذه كما كان الأدباء القدماء يلاحظون سادتهم ومواليهم — هذا التقييد سيضعف الأدب حتى يصل إلى الابتذال أحياناً، ولعلنا نشهد بعض ذلك منذ الآن ، وسيحرص آخرون من الأدباء على كرامة الفن وجودته أكثر مما يحرصون على انتشاره وشيوعه ، فيجددون أدبهم ويحفلون بهذا التجديد ثم يرسلون أدبهم إلى القراء غير حافلين بالرضا أو السخط ولا ما ينتجه الرضا أو السخط من الفقر والثراء ، وهؤلاء هم قوام الحياة الأدبية ، وهم هداة الناس إلى الحق والخير والجمال . »

فى مجلات الغرب

من انجلترا

هوريزن Horizon (عددا سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٧)

فى عدد سبتمبر من هذه المجلة تكلم نويل بوش عن احتلال اليابان، وهذا المقال يؤلف جزءا من كتاب للكاتب يظهر فى شهر أكتوبر باسم « الشمس الساقطة »، وقد شرح فيه العوامل التى أدت إلى أن يكون احتلال اليابان غريباً فى بابه إذ لم يشعر اليابانيون بوطأة الهزيمة. فهم لا يرون أن الاستسلام قد نقص من هيبتهم؛ لأن الامبراطور اليابانى هو الذى أعلنه. وتكلم الكاتب طويلا عن صفات اليابانيين وطرق سلوكهم. وهو يرى أن اليابانيين محبون للاقتباس والتقليد، ولذلك يقلدون الآن الأمريكيين لكى يكونوا مثل هؤلاء المنتصرين. ويحاول الأمريكيون أن يصبغوا اليابان بصبغة الديمقراطية، ولكن اليابانيين سيفهمونها على غير المعنى الذى يريده الأمريكيون. فالحضارة الأوربية هى الآن فى دور التجربة فى طوكيو وهى تجربة أكمل وأكبر نفقات من أية تجربة أخرى سبقتها.

وتكلم ليونيل تريلنج عن مركز فرويد فى الأدب وموقفه منه. وفى رأى الكاتب أن فرويد، شأن كل ناقد عظيم للطبيعة الانسانية، يجد فى الكبرياء الانسانية السبب الأخير للتعاسة. ومع ذلك فان الانسان كما يتخيله فرويد هو أهم وأكبر من أى إنسان يتصوره ناقد آخر. وبالرغم مما يعتقده الناس من أن فرويد يضع قانوناً بسيطاً يطبقه على الانسان كالجنس مثلا، فان نظريته هى فى الحقيقة مجموعة معقدة من الثقافة وعلم الحياة. وما يشعر به المرء من مجموعة آراء فرويد، هو أنه بعيد عن أن يكون سيء الظن بالانسانية، وهو لا يرغب إلا فى أن يكون الرجل إنسانيا.

وفى هذا العدد أيضاً بحثان أحدهما لروبرت ملفل عن النحات ادواردو

باولوتزى ، والآخر عن فرانسس يونج وتأثيره فى الأدب الفرنسى لبيتى ميلر .

أما عدد أكتوبر من هذه المجلة فانه خاص بموضوعات تعالج الحياة الأمريكية . ففى هذا العدد مقال عن الأمريكى وفنه ، كتبه الأديب وليم فيلبس وهو يقول إن النشاط الأدبى فى أمريكا كان يتغذى فى الماضى بالحركات الأدبية فى أوربا ، ولكن أوربا الآن وهى فقيرة ومعتمدة سياسيا على موارد الولايات المتحدة ، تعتمد الآن على التقدم الثقافى الأمريكى . على أنه قد تصير الولايات المتحدة أكبر مصادر للنفايات فى الأدب . وهو يختم مقاله بقوله : إذا نظر بعض الأوربيين إلى أمريكا نظرة المنقذ فكل ما يستطيع قوله هو لينقذ الله الملك !

وكتب كليمنت جرينبرج عن التصوير والنحت وحالتهما الحاضرة فى أمريكا . وقد استعرض الكاتب أعمال البارزين من رجال الفن الأمريكيين والمؤثرات التى تدفع بفنهم فى طريقتهم الخاصة .

وتكلم وليم باريت عن بعض المشاهد لمن يريد أن يكون أمريكيا ؛ فبحث فى أمر الأقاليم الأمريكية والجماهير الأمريكية والمهاجر واللغة الأمريكية .

وبحث جيمس سوبى فى صور المصورين بن شاهن وموريس جريفز .

وتكلم جو ألسوب عن السياسة الأمريكية الخارجية ، وتجد خلاصة وافية لمقاله فى غير هذا المكان .

وتحدث وليم أبراهامز عن بوسطن وكيمبردج ، وهما مركزا العلم القديمان فى الولايات المتحدة .

وفى العدد قصص منها قصة عن الرجل المختفى ، للأديب الزنجى رالف ألسن ، وأخرى لجون بريمان عن اليهودى الخيالى .

وكتب كريستوفار إيشارووود عن مدينة لوس أنجلس .

وذلك فضلا عن عدة بحوث أخرى إحداها عن فن الاعلان الامريكى ؛ والأخرى وصف لسان فرانسسكو وثالثة عن التربية العليا فى أمريكا .

العالم اليوم *World Today* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

وهى مجلة شهرية يصدرها المعهد الملكى الانجليزى للشئون الخارجية . يستعرض عدد سبتمبر فى مذكراته الشهرية الأزمة الاقتصادية العالمية وقرض الولايات المتحدة . وقد جاء فيها أن العناصر التى أدت إلى الفوضى الاقتصادية هى أولا الصعوبات المالية البريطانية . ثانياً عدم التوازن بين ما تنتجه الولايات المتحدة وبين ما ما ينتجه بقية العالم ومنهم بريطانيا . ثالثاً النقص العالمى فى الأغذية واستمراره بعد الحرب . رابعاً اعتقاد الولايات المتحدة أن العودة إلى التجارة الحرة بين الدول ضرورة أساسية فى التعمير الاقتصادى ، ثم إن خسارة الانتاج الألمانى سبب أساسى فى الأزمة الأوربية .

وفى هذا العرض كلام عن قضية فلسطين وهيئة الأمم المتحدة ، كما أن فيه كلاماً عن نقل السلطة فى الهند .

وفى العدد مقال عن حالة إيطاليا فى صيف هذه السنة . وقد جاء فيه أن إيطاليا قد كادت تتخلص من مساوئ الحرب وتعود إلى حالتها الطبيعية . غير أن الحالة السياسية فى البلاد لا تزال متقلقلة بسبب تنافس الأحزاب . وفى المقال شرح واف لهذه الأحزاب وآرائها المختلفة وما ينتظر لها من مستقبل .

وتكلمت المجلة فى مقال آخر عن مشكلة تهم كلا من يوغوسلافيا والنمسا ، وهى مشكلة كارينثيا السلوفونية ، وهى منطقة تقع بين البلدين وكانت موضوع نزاع بعد الحرب الأولى ، ولكن الاستفتاء فى هذه المنطقة أدى عندئذ الى ضمها إلى النمسا ؛ وقد عادت يوغوسلافيا للمطالبة بها .

وفى العدد مقال عن الحالة الاقتصادية فى بلاد الأرجنتين ، وما ينتظر لها من مستقبل بعد مشروع السنوات الخمس .

وتكلم أحد الكتاب عن الحالة الاقتصادية والسياسية فى الصين فى شرح مسهب .

ناشنال ريفيو National Review (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

مجلة شهرية سياسية محافظة .

لا تنقطع هذه المجلة فى استعراضاتها الشهرية للحوادث عن الحملة على الحكومة البريطانية القائمة ؛ فهى فى عدد أكتوبر تشن حملة شديدة على سوء الحالة الاقتصادية والاسراف والتبذير وإهمال الحكومة للبرلمان الذى يوجه أسئلة فلا تجاب .

وفى العدد مقال كتبه مستر جيبون عما أسماه الفوضى فى الهند ، وهو بلا شك يندد بالحوادث القائمة هنالك ويلقى تبعتها على حكومة العمال البريطانية التى دفعت بالهند إلى هذا الطريق فى رأيه .

وقد كتب ألكسندر كامبل مقالا وصف فيه التطاحن الحزبى فى جنوب أفريقيا . وكتب كاتب آخر عن جزيرة برمودا وابتداء تطلعها إلى الاستقلال ، وهو يرى أن ذلك ناشئ من ضعف الحكومة البريطانية أيضاً .

وتكلمت الكاتبة سلفيا ستيفنسن عن الحالة فى أسبانيا ، وهى لا ترى فيها خطراً كما يقول أعداء النظام القائم هنالك ، بل ترى أن الأمن مستتب وأن النظام الحالى تؤيده البلاد . ومن خير مقالات هذا العدد فى غير السياسة مقالة جون ويندن عن الحديقة الصغيرة يصفها ويذكر طريقة خاصة فى زراعتها .

القرن التاسع عشر وما بعده The Nineteenth Century and After (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

مجلة شهرية سياسية حرة .

كتب مستر فويجت فى المقال الافتتاحى بعدد سبتمبر عن الأمن الدولى ، وابتدأ مقاله بقول آدم سميث إن الدفاع أهم كثيراً من الرخاء ولذلك كانت السياسة الخارجية أهم كثيراً للدول الكبرى من السياسة الداخلية . وهو يرى أن الأخطاء فى السياسة الداخلية قد يمكن إصلاحها ما دام الدفاع عن البلاد قوياً بحيث لا يستطيع العدو الخارجى إغراق سفينة البلاد . وهو يقول إن الدول العظمى البرية وهى روسيا وألمانيا والولايات المتحدة لا يمكن فى آخر الأمر التغلب

عليها . فروسيا وألمانيا هزمتا فى الحرب العالمية الأولى ، ولكنهما صارتا بعد عشرين سنة أقوى مما كانتا عليه . وكذلك الولايات المتحدة إذا سقطت لا بد أن تعود . أما انجلترا التى لم تسقط من قبل فهى إذا سقطت فلن تكون لها قائمة لأنها دولة بحرية . وهو يشرح باسهاب ما يجب على انجلترا أن تعمل له من توازن القوى كى تضمن ألا يكون خصومها من الدول العظمى من القوة بحيث يقضون عليها قضاء نهائيا .

وتكلم مستر بيرن عن كتاب مستر سمنر ويلز الأخير الذى ينتقد فيه السياسة الخارجية الأمريكية ، وهو يأخذ عليه آراءه فى روسيا حين يرى أن الدولة الروسية صالحة فى أساسها وأنها ترمى إلى خدمة الانسانية وأنها تستطيع أن تحيا إلى جانب الأفكار الانسانية . ويرى كاتب المقال أن هذه الآراء لا تمثل آراء روزفلت كما أنه يرى أن الخطوات التى اتخذها الرئيس ترومان ومستر مارشال صحيحة ومفيدة للولايات المتحدة وليست فيها خسارة عليها .

وقد تكلم كاتب آخر عن النهضة فى إيطاليا وما يظهر فيها من نشاط بالغ فى الصناعات وما تلاقيه من صعوبات تحاول الحكومة الايطالية القائمة علاجها .

واستعرض باتريك لاسى حالة الهند فى صيف هذه السنة والاضطرابات فيها وهو يرى أن النظام الذى أقرته الحكومة البريطانية حسن وإن كان لا يخلو من مآخذ بسيطة .

وفى غير السياسة يوجد مقال هام عن الكاتب السويسرى راموز .

من فرنسا

لانيف *La Nef* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

يقول روبير كانتير فى المقال الافتتاحى لعدد سبتمبر من هذه المجلة ، وهو مقال كتبه مقدمة لقراءة مؤلفات الأديب الانجليزى د. ه . لورنس ، إن مؤلفات هذا الكاتب هى بلا ريب المؤلفات الوحيدة التى نشعر فيها بجو العبقرية بين الكتاب الذين برزوا فى فترة ما بين الحربين . وليس ذلك بسبب بلوغها ذروة الفن فى أجزاء عدة منها فحسب بل كذلك لما

يظهره الكاتب فى مؤلفاته وفى حياته من إخلاص لبعض الغرائز الأساسية .

لم يكن د . ه. لورنس بالفيلسوف فهو لم يضع نظاماً خاصا ، وإنما هو رجل آراء ، ونجد هذه الآراء منبثة فى كل مكان من مؤلفاته : فى أشعاره وفى قصصه وفى مقالاته . ويحلل الكاتب تحليلا بديعاً هذه الغرائز والآراء التى ينادى بها لورنس .

وفى هذا العدد مقتبسات من الكاتب النمساوى كارل كراوس الذى توفى فى فينا سنة ١٩٣٦ ، وهى مجموعة آراء متناثرة : القسم الأول منها يدور حول الرجل والمرأة ، والقسم الثانى عن الأخلاق والمسيحية ، والثالث عن الانسان وما ماثله ، والرابع عن الصحافة والسياسة ، والخامس عن الفنان ، والسادس عن القراءة والكتابة ، والسابع عن البلاد والناس ، والثامن ملاحظات ، والتاسع آراء مختلفة .

ويوالى كلود مورياك بحثه عن الكاتب الفرنسى أندريه بريتون ونزعته الدينية والأخلاقية ، كما أن بهذا العدد بحثاً قيما عن ماريفو الكاتب المسرحى .

وتكلم برنارد فواين عن الشيطان فى كارل ماركس . ومن هذا العنوان يمكن معرفة اتجاه الكاتب ، ونقده له ؛ فهو يفسر الأمور بعامل واحد ، وهذا هو وجه الخطأ فى كارل ماركس وهذا هو وجه ظهور نظرياته فى مظهر نظامى خلاب قد لا يثبت أمام الحقيقة . فالماركسية هى نظرية تؤثر فى عقول الرجال العمليين ؛ لأنها فى الظاهر بسيطة ، وتفسر كل شئ . ولكنها لا تثبت أمام العمل حيث تظهر وجوه التناقض فيها . ويمكن أن يقال إن ماركس وإن كان صاحب نظرية خاطئة ، مفكر عميق بحيث لا يمكن تجاهل شخصيته .

وفى هذا العدد قصص عدة كتبها موريس دروون ، وأدريان جورج ، وروجيه برى ، وكونستانس كولين ، وبول ألكسندر ، وقصة طويلة مترجمة عن الانجليزية لرومر جودن .

ريفى دى يارى *La Revue de Paris* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

فى عدد سبتمبر من هذه المجلة مقال افتتاحى بقلم الأخوين جيروم وجان تارو عن سنكور وبحثه التعس عن السعادة . فهذا الكاتب عاش

بين سنتى ١٧٧٠ و ١٨٤٦ عيشة فقيرة فى باريس ، وألف عدة كتب نسيها الناس بمجرد ظهورها . ولكن هذه الكتب قد استطاعت أن تظهر ثانية بالرغم من طغيان العصور ،وتظهر لتخلد اسم صاحبها بعد نيف وقرن من وفاته .

ونشرت المجلة سبع عشرة رسالة لم تنشر من قبل للشاعر فرانسيس جام ، كتبها إلى الأديب الفرنسى العظيم أندريه جيد .

وتكلم جيسكار دستانج عن القروض الأجنبية وتأثيرها فى الاقتصاد الفرنسى . وهو يرى أن تجاهل ضرورة إنقاذ الحالة بعقد قروض خارجية يكون تجاهلا للحقائق . ولكنه يرى أنه من الخطأ الذريع عقد هذه القروض إلا إذا اضطرت إليها البلاد اضطراراً ؛ فان استعمال هذه القروض يتطلب أكبر دقة فى طريقة توزيعها . فاستعمال القرض الداخلى لسد عجز واقع معناه القضاء على عملة البلاد ؛ أما استعمال القرض الخارجى فى هذا الغرض فان معناه الافلاس . ولكن إذا استعمل القرض الخارجى بحكمة وبقدر ما تتطلبه الضرورة فانه يساعد فى نهضة فرنسا وإزالة الموقف الصعب الحاضر .

وكتب بيير فريدريكس عن اضطراب الحالة فى الشرق الأوسط ، وتكلم عن البلاد العربية المختلفة ، ويلخص الكاتب رأيه بأن بريطانيا وفرنسا خرجتا من هذه الحرب ضعيفتين ، وأن الاتحاد السوفييتى فى شغل عن أمور الشرق الأوسط باعادة إحياء بلاده ، وعلى ذلك صار الدور الأول للولايات المتحدة ؛ وهى الدولة التى تستطيع أن تنفذ فى الشرق الأوسط سياسة نافعة تساعد فى حل المشاكل القائمة فى تلك الجهة كما هى قائمة فى العالم بأسره ، وهى مشاكل اقتصادية واجتماعية .

وقد وصف الكاتب أيتين روما جبل طارق وتاريخه فى زمن الحرب ، وما كان لهذا الموقع من أهمية لبريطانيا، فهو بصفته مفتاح البحر الأبيض المتوسط كان له الفضل فى القضاء نهائيا على سلاح الغواصات فى جنوب أوربا .

ووصف الكاتب جول برتو الكونتيسة دى بنلى وأتى على تاريخها إلى حين وفاتها فى سنة ١٨٤٢ .

وفى العدد مقالات وقصص طريفة أخرى .



الباب الضيق

تأليف أندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم
ورد طه حسين الى أندريه جيد

« ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ ... الى أى قارئ يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة. أمخطئ أنا؟»

أندريه جيد

« لم تخطئ أنت، وإنما دفعت الى الخطأ لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام... فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يشير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب.»

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

شبح كانترفيل

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هـذا القصر التاريخى الى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان چيمس

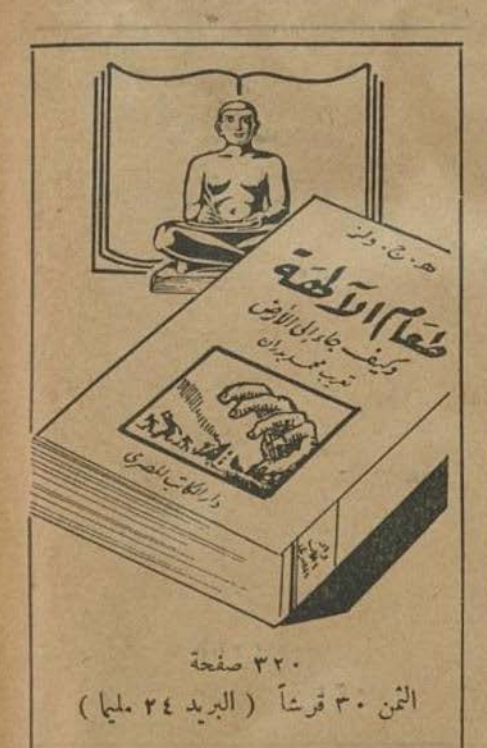
طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم « م. ج. م. »

١٢٨ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

ستواصلون بشغف قـراءة حوادث هذا الشبح المسكين الذى يرتعد خوفاً ويفر هارباً عند ما يرى شبحاً آخر !





٣٢٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

وازن الأرواح

تأليف أندريه موروا

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب عبد الحليم محمود

هل توجد الروح ؟ وكم تزن ؟ هل يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل يمكن أن تمتزج بعـد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

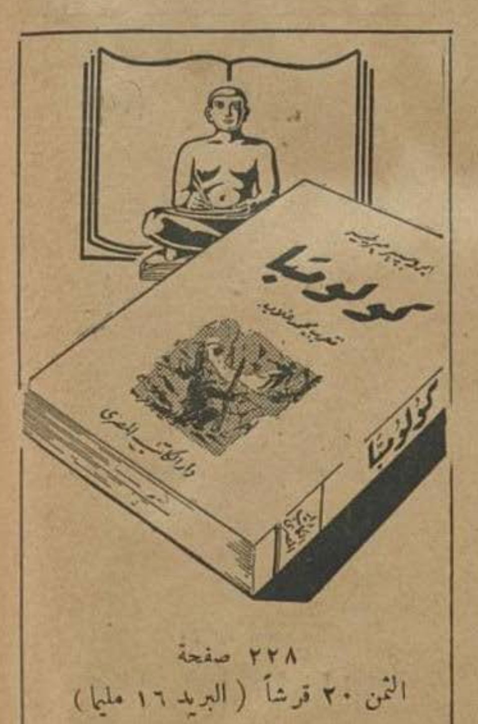
٢٠٠ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



١٧٥ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



٢٢٨ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

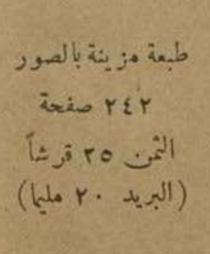
أرض البشر

للكاتب الطيار

أنطوان دى سانت اسكوبرى

تعريب مصطفى كامل فوده

أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية، تلك الأرض الجديدة باعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال.

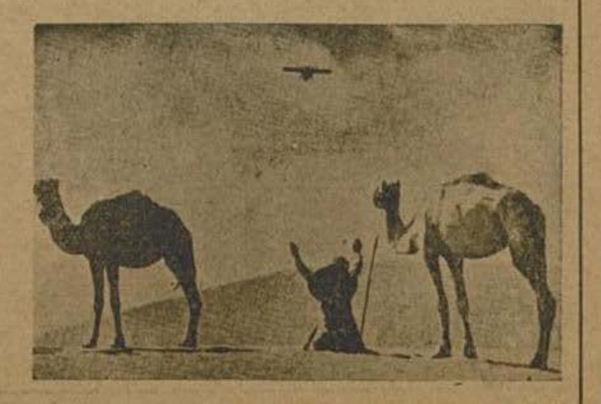


طبعة مزينة بالصور

٢٤٢ صفحة

الثمن ٣٥ قرشاً

(البريد ٢٠ مليما)



جنة على نهر العاصى

تأليف موريس بارس
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب محمد عبد الحميد عنبر
وعبد المجيد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٦ صفحة
الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠ م)

المقامر

تأليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارىء إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة
الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

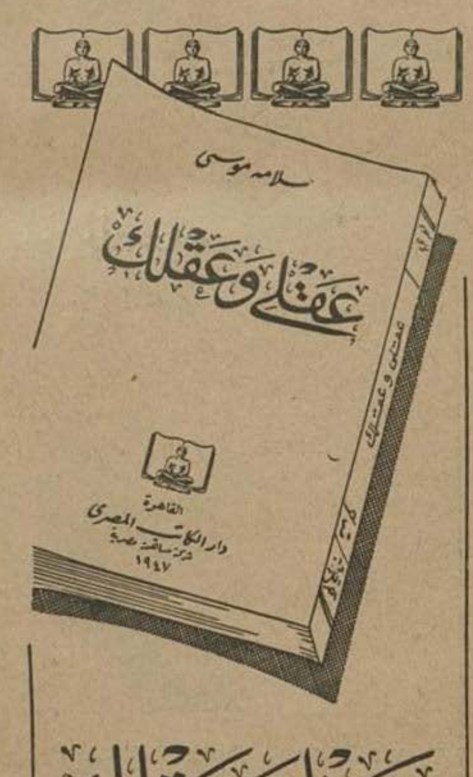
الحب الأول

تأليف إيڤان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشىء يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة
الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



عقلى وعقلك

تأليف سلامه موسى

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث يبسط آخر المعارف عن هذا العلم بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه على أسرار النفس البشرية وحركة التفكـير .

٢٠٠ صفحة

الثمن ٤٠ قرشاً (البريد ٢٨ مليما)

العقيدة والشريعة في الإسلام

للمستشرق العظيم

إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

تأليف

الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

بجامعة فاروق الأول

٢٦٦ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

تحت الطبع

سافو نارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الافاعي

قصة تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشنيطي



مجلد ٦ — عدد ٢٤
سبتمبر ١٩٤٧
هيروشيما
الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين
الثمن بمصر ١٠ قروش